مكتبة الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع

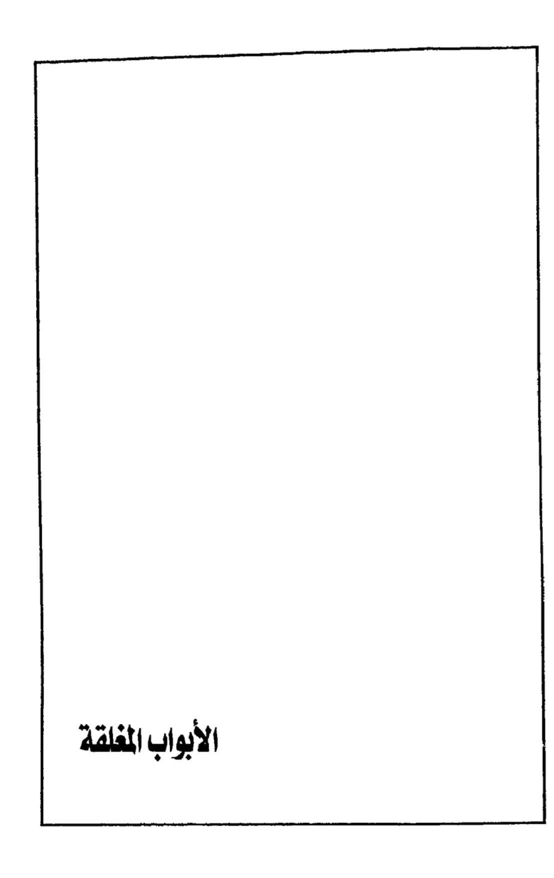
الأعمال الإبداعية

الأبواب المغلقة

أمين يوسف غراب



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



الأبواب المغلقة

الأبواب المغلقة



أمين يوسف غراب



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

الأبواب المغلقة

أمين يوسف غراب

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

الإهداء

إلى « ع » وهي عين

أمين يوسف غراب

تحية

إلى أولئك الذين لم يجدوا على مائدة الحياة سوى طبق واحد فغمسوا فيه لقمة العيش . . .

فتلوث الطبق . وتلوثت اللقمة ، وتلوث أيضاً الفم الذى مضغها .

إلى أولئك جميعاً، وأعنى بهم الذين كانت حياتهم فى هذه الدنيا قدراً مقدوراً ، أبعث بتحيتى و . . تعزيتى .

أمين يوسف غراب

١

تخرجت فى كلية الحقوق . ونلت إجازة الدكتوراه فى القانون . وكان موضوع الرسالة التى تقدمت بها « الإنسان والدوافع النفسية للجريمة » ولم أستشعر فى دراستى أى ضيق أو تعب ، برغم ضخامة الجهد الذى أقوم به . بل العكس ، كنت أجد لذة لا تكاد تعدلها لذة أخرى . فقد كنت منذ الصغر أحب دراسة القانون . ويحلو لى تعمق مواده ، ودراستها . وفهم أحاسيس المشرع عندما يتعمق الجريمة ويحدد نوعها ويدرس نفسية المجرم . ولماذا مثلا تختلف عقوبة القتل العمد الذى يسبقه الترصد عن القتل المفاجئ فى معركة مثلا ، أو فى الذود عن عرض ، مع أن نية القتل لحظة ارتكاب الجريمة واحدة ، هذه عزم أكيد على القتل ، وتلك أيضا عزم مؤكد على القتل ، حتى وأنا طفل كان يحلو لى أن أفكر فى ذلك ، إذا رأيت الصبية الذين ألعب معهم فى الشارع يتشاجرون بعضهم مع بعض ، أو أتشاجر أنا مع واحد منهم ، وكثيراً ما كنت أسأل نفسى : لو كنت أنا مكان هذا الصبى الذى ضربنى وأسال دمائى ، فهل كنت فعلت ما فعلت وهل من أجل هذا السبب التافه ، إننى مثلا أخذت الكرة منه وقذفت بها بعيداً ، أستحق أن أضرب بهذه القسوة حتى تسيل دمائى ؟

هكذا كثيراً ما كنت أسأل نفسى مثل هذا السؤال ، وكثيراً ما كان يجيئنى الجواب : لا ؛ إذن لماذا فعل هذا الطفل ما فعل ؟ ولماذا ضربنى بهذه الوحشية حتى أسال دمائى ؟ وسريعاً ما كان يجيئنى الجواب شافياً . . إما أن أمه مثلا على خلاف مع أمى ، أو أنه مثلا ابن الجوذى ، أو ابن البواب ، وهو فقير ومعوز ورث الثياب ، وأنا ابن باشا وثرى ؛ وثيابى نظيفة ، وأرتدى فاخرها دائماً ، إذن هناك دوافع نفسية للجريمة ، غير الدوافع المادية التى ترتكب من أجلها .

ولعل تفكيرى فى ذلك وأنا بعد طفل ، ظل يلازمنى فيما بعد ، وهو الذى جعلنى أتقدم برسالة فى نفس الموضوع « الإنسان والدوافع النفسية للجريمة » .

ولما تخرجت ، استطعت بفضل مؤهلى ، وأسرتى ، أن أحصل على وظيفة كبيره ، فقد كانت الوظائف إذ ذاك ، وقفاً على أبناء الأسر الكبيرة ، وليست على أصحاب المؤهل فقط . وكنت من حسن الحظ أنتمى إلى أسرة كبيرة فعلا ، فقد كانت أمى تركية الأصل ، وكان جدها لأبيها من الذين حكموا مصر فترة من الزمن . وكان أبى برغم أنه نشأ فى أسرة فقيرة فى الريف ، وكان يعمل فى صدر شبابه ناظراً للزراعة فى أحد التفاتيش التى كان يملكها جدى لأمى . إلا أنه استطاع بفضل ذكائه وألمعيته ومهارته الفائقة فى تعرف نفسيات البشر أن يشق طريقه سريعاً . ويصبح من أثرياء أهل الريف ويتزوج من أمى ، التى كان زواجه منها

فاتحة خير كثير له بعد ذلك ، وأن يظفر برتبة الباشوية وأن يصبح عضواً فى البرلمان .؟؟

ولذلك عندما تخرجت ، وعينت فى سلك النيابة العامة ، نُظر إلى بعين الاعتبار ، ولما عرف عنى ميلى إلى تعمق البحث فى أصل الجرائم وحب المعرفة فى بواعثها وأسباب ارتكابها ، كان يحال إلى بعض الجرائم الهامة التى ترتكب ، وحدث أن وقعت فى ذلك الحين بعض الجرائم الكبرى . السياسية وغير السياسية ، التى هزت البلاد فى ذلك الحين . وكان الوصول إلى معرفة مرتكبيها أمراً عسيراً جداً ، ولكن بشىء من الصبر ، والحظ . استطعت أن أمسك منها بأول الخيط . وما دامت أصابعك قوية ، وأناملك حساسة ، فلن يفلت منها الخيط أبداً ، وبذلك استطعنا أن نمسك بالجناة ، وأن نخمد تلك النار التى كاد لهيبها يستعر فى ذلك الوقت ، وقد أفادنى هذا كثيراً . ووطد مركزى إلى حد كبير ، وفرح له أبى ، فليس أحب إلى الأب من أن يرى ابنه ناجحاً .

وظللت كذلك إلى أن حدث ذات يوم ، أن وقعت جريمة قتل غامضة فى حى المنيرة ، إذ وجدت سيدة ثرية فى الأربعين من عمرها قتيلة فى منزلها . وقد حدثت الجريمة فى منتصف الليل . فى غرفة الصالون فى البيت ، إذ أطلق عليها الجانى ثلاث رصاصات على مسافة عشرة سنتيمترات ومن مسدس براونج عيار (٧) فهتكت الرصاصات الثلاث فروة الرأس وحطمت الجمجمة ونفذت إلى المخ وحدثت الوفاة فى الحال .

كما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى .

وقد كان للحادث أثره السيئ فى النفوس . فقد وقع فى إحدى العمارات الكبيرة الآهلة بالسكان وذهبت ضحيته سيدة متقدمة فى السن وقورة اشتهرت بالسمعة الحسنة ، والخلق الطيب وعمل الخير ، ولذلك اتجه تفكيرى فى الحال إلى أن الجريمة ارتكبت بسبب السرقة ، وسبب ذلك أن المجنى عليها ثرية ، وتملك مالا وفيراً ، تحتفظ بأكثره عندها فى البيت كما تملك الكثير من الحلى الثمينة من الماس والذهب وبعض التحف الغالية ، غير أنه ثبت من المعاينة وفحص محتويات البيت فحصاً دقيقاً ، أن شيئاً من هذا كله لم يمس ، حتى كيس نقودها الصغير وجد بجانبها فوق المقعد الذى كانت تجلس إليه وقت ارتكاب الحادث . ووجد كما هو لم يمس ، برغم أنه كان بداخله ما يزيد على الخمسين جنيهاً ، وبذلك انتفت الفكرة التى كانت تخامرنى فى أول الأمر . وهى أن الجريمة قد ارتكبت من أجل السرقة . وبدا الموقف يزداد غموضاً ، والظلام يخيم حلكته فوق هذه الجريمة الغامضة ، ولا سيما بعد أن انقطع ذلك الخيط الرفيع الذى كنت قد بدأت أمسك أحد طرفيه ، وهو الخادم التى كانت تعمل فى خدمة المجنى عليها ، والوحيدة التى كانت تقيم معها فى البيت ، والتى مرضت قبل الحادث بأيام ونقلت إلى المستشفى ، ولما ذهبت إلى سؤالها هناك اتضح أنها فى حالة إغماء شديد . فأرجات سؤالها .

وفى اليوم التالى وردت إشارة من المستشفى تفيد بأنها قد فارقت



الحياة ، إثر أزمة قلبية كانت تنتابها من حين إلى حين ، ولما انقطع هذا الخيط هكذا سريعاً ، وكنت أعتبره البصيص من النور الذى سنهتدى به لتبديد هذه الظلمة التى تكتنف الحادث . بدأت أمسك بخيطين جديدين تكشف عنهما التحقيق . فقد ثبت من أقوال بواب العمارة التى كانت تقطنها القتيلة ، وأقوال الذين كانوا يجاورونها فى السكن ، وبائعى اللبن والخبز ، أنه كان يتردد على المجنى عليها فتاة فى السابعة والعشرين من عمرها جميلة جمالا ملحوظاً ، ذات شعر أسود داكن وعيون زرقاء واسعة ، طويلة فارعة الطول . وكانت تلفت النظر بأناقتها ، وكانت — أى القتيلة — تحب هذه الفتاة حبًّا جنونيًّا ، وتكاد تلازمها دائماً ، أما اسم الفتاة ، أو أين تقيم أو تعمل ، فلم يعرفه أحد ولم يمكن الاهتداء إليه ، أما الثانى فهو ريفى كهل فى الستين من عمره ، وكان يتردد عليها قليلا جدًّا ، كل عدة شهور تقريباً ، عندما يأتى إليها بريع الضيعة التى تملكها المجنى عليها فى الريف . والذى يتولى هو بالنيابة عنها الإشراف على شئونها .

وبعد هذه المعلومات الجديدة ، بدأ تفكيرى يتجه اتجاهاً آخر ، وهو أن الجريمة وقعت فعلا بسبب المال أو الميراث ، وأن لهذا الرجل دخلا فى الأمر من غير شك ، ولذلك لم أشأ أن أقبض عليه أو أستدعيه للسؤال ، حتى لا يرتب أجوبته سلفاً ، أو يجد فرصة لنسج خيوط الأضاليل ، كما يحدث فى مثل هذه الحال . وانتقلت إلى ضيعة القتيلة فى الريف ، وسقطت فجأة على الرجل ، وعلى حسابات الضيعة ، وعلى بعض الذين على صلة

بالرجل من أقاربه أو أصدقائه . وقد ساعدنى فى ذلك أبى وسطوته الكبيرة فى الريف ، ومجاورة مزارعه لضيعة القتيلة . وقد بذلت فى هذا جهداً كبيراً ، حتى إننى مكثت ثلاثة أيام ، وثلاث ليال لم أنم ، ولم أبدل ملابسى . فقد كنت أواصل التحقيق فى الليل والنهار . ومع ذلك لم أظفر بطائل ، ولم أرخيطا واحداً أمسك به ، برغم مئات الصفحات التى استغرقتها فى التحقيق . أو شيئاً يبعث حتى مجرد الشك ، فقد كانت الأمور جميعاً تسير سيراً حسناً ، فى الضيعة وفى حساباتها ، وليس من وريث للقتيلة من قريب أو بعيد . حتى يرتكب مثل هذه الجريمة البشعة .

حتى عم دسوقى الذى ظننته فى أول الأمر له دخل فى الموضوع ، حتى هذا الرجل الريفى الكهل ، اتضح أنه برىء ، وأنه غير ما كنت أظن ، فقد وجدته رجلا محطماً ، زاده الحادث تحطيماً ، وكادت عيناه تبيضّان حزناً على القتيلة ، وقد ثبت من التحقيق أنه يحمل قلباً طيباً فعلا ، وضميراً يقظاً ، فقد اعترف الرجل بمبلغ كبير من المال كان فى ذمته للفقيدة ، ولم يثبت هذا المبلغ فى الدفاتر . ولم يعرف به أحد فى الوجود غير القتيلة نفسها . وكان يمكنه إغفاله لو أنه أراد أن يغفل حساب ضميره .

وكان هذا الرجل فعلا يحمل نفساً رقيقة تفيض بالخير والحنان وحب الناس جميعاً . وكنت ألاحظ ذلك من اهتمامه بأمرى بالذات وعطفه على ، وتألمه من الجهد الذى أبذله ، وكان يقدم لى من الحين إلى الحين بعض الطعام بيده ، ويرجونى من حين إلى آخر أن أريح نفسى قليلا ، ولما

انتهى التحقيق ولم يسفر عن نتيجة ، تقدم الرجل منى وراح يسدى إلى بعض النصح ، وأهمها أن لا أتعب نفسى أو أرهقها ، ولما قلت له إنه الواجب هو الذى يملى علينا هذا ، قال الرجل بلهجته الريفية التى ما زال جرسها يرن فى أذنى إلى اليوم وهو ينظر إلى ويديم النظر :

ــ أحياناً فى هذا الزمن يكون غير الواجب هو الواجب .

فاندهشت لهذا القول وسألته : ماذا يقصد ؟

فقال وصوته يختنق ، والدموع تملأ عينه :

ــ أقصد أن الست زينب عبد العال رحمها الله ، التى عاشت حياتها للخير والصلاة ، والحج إلى بيت رسول الله ، تموت قتيلة ، والقاتل يعيش طليقاً يمرح فى دنياه . .

فتأثرت فعلا بهذا القول ، وتركته وانصرفت ، ولم ينس الرجل الطيب وهو يودعنى أن يشد على يدى مصافحاً ، وهو يحملنى التحية إلى أبى ، ولما سألته هل يعرفه .: قال فى ابتهاج والفخر ملء إهابه :

ــ وهل فى المديرية جميعها من لم يعرف سعادة الباشا الوالد ؟

وتركته وانصرفت ، وفى قلب السيارة راحت أناملى تعبث فى دوسيه القضية ورحت أتصفح بعض أوراق التحقيق فإذا بها جميعها سوداء ليس فيها حتى منفذ واحد يستطيع أن يهدينى إلى شىء ، فشعرت بكثير من الضيق وأحسست لأول مرة فى حياتى بمرارة الإخفاق ، وتذكرت تلك الجملة التى أكرهها كرهاً شديداً والتى أتخيلها أمامى فوق دوسيهات بعض

القضايا أشبه بحفنة من الثعابين الكبيرة السوداء تكاد تغرس أنيابها فى مشاعرى وفى أحاسيسى ، بل فى كيانى كله وهى « يحفظ التحقيق ، وتقيد الجناية ضد مجهول » ، وعز على كثيراً أن أضطر فى النهاية إلى كتابة هذه الجملة التقليدية ، التى يضطر إليها دائماً المحقق العاجز ، وانتابنى ضيق شديد حتى إننى لما عدت إلى بيتى فى القاهرة لم أنم وظللت قلقاً برغم الإرهاق الشديد الذى كنت أحس به ، وقد لاحظ أبى ذلك ، وكان يعرف حرصى الشديد على قضاياى . . . ومتاعبى فى سبيل تبديد الظلمات التى تكتنف بعضها . وما هى الآلام التى أعيش فيها كلما غم علىّ ، وأحسست بعجزى عن الوصول إلى نتيجة ، ولذلك راح يهون على ، وجلس معى ما يزيد على الساعتين ، نقلب الأمر ونستعرض ظروفه معاً ، ونضرب أخماساً فى أسداس كما يقولون . وكلما لاحت لى بارقة أمل ، كان النور يتألق فى عينى كل منا ، إلا أن هذا النور وأسفاه كان يعود سريعاً فيتلاشى ، كلما استعرضنا ظروف الحادث مرة أخرى ، أو استرجعت أقوال من سمعت أقوالهم ، وظللنا كذلك حتى ضاق أبى ذرعاً هو الآخر ، فتركنى وانصرف لينام ، وهو يقول لى بعد أن أشفق على ورثى لحالى :

ـــ إذا مات الفارس يوماً ، فليس من الحتم أن ينفق الجواد .

* * *

وظل الحال كذلك عدة أيام ، كدت خلالها لا أفكر فى هذه القضية التى قل اهتمامى بها فعلا ، وكدت أنساها ، وشغلتنى عنها شواغل

أخرى كثيرة . ولولا بعض الإجراءات التقليدية التى كانت باقية على استيفاء التحقيق فيها من ناحية الشكل ، لمددت يدى وذيلت صفحات هذه القضية التى تضخمت أمامى بتلك الجملة الكريهة إلى نفسى والتى تشبه حفنة من الثعابين تماماً ، ولولا أننى انقطعت عن العمل لمدة يومين ، بسبب وعكة ألمت بى وجعلتنى ألازم الفراش لمدة ثلاثة أيام ، لكنت أتممت بقية الإجراءات فى هذه القضية ، وحولتها للحفظ فعلا ، غير أنه حدث فجأة حادث غريب جعل قلبى يكاد يقفز فرحاً ، فقد حضر إلى مكتبى أحد ضباط المباحث الجنائية ، ومعه عبد الفضيل بواب العمارة التى وقعت فيها الجريمة ، وأنهى إلى أنه قد عرفت شخصية الفتاة المجهولة التى كانت تتردد على المجنى عليها فى بيتها . والتى أدلى بأوصافها عبد الفضيل بواب العمارة فى التحقيق ، وأنها — أى الفتاة — تدعى « زينات شوق » وتعمل راقصة فى ملهى فى الهرم ، وأنها تقيم فى المنزل رقم ١٧ بشارع علوى بالدقى ، وقد ثبت من التحريات أنها تقيم وحدها فى المنزل المذكور ، ولا يتردد عليها أحد ، وأن هذه المعلومات جميعها قد عرفت عن طريق صورة للفتاة ، شاهدها عبد الفضيل فى إعلان من إعلانات الملهى المذكور . وبرؤيته لها رؤية العين تأكد من أنها هى نفسها الفتاة التى كانت تتردد على المجنى عليها ، والتى ورد ذكرها فى التحقيق ، وما إن استمعت إلى هذه المعلومات جميعها ، حتى أمرت بالقبض عليها فوراً وإيداعها السجن على ذمة القضية ، وقد اتجه تفكيرى

فى الحال اتجاهاً آخر ، راقصة وتعمل فى ملهى ليلى ، وصديقة للمجنى عليها ، وتتردد عليها فى بيتها ، بل تبيت معها فى البيت نفسه كما قال ذلك بواب العمارة ، فكرت فى هذا كله وفى شيء آخر ورد فى المعاينة وفى تقرير الطبيب الشرعى ، ولم أفطن إليه أو أهتم به فى حينه ، وهو أن ثوب القتيلة ، وجد أثناء وقوع الحادث ، وبه آثار تمزيق من قبل ، وهذا كله إن دل فعلى أن الحادث لم يكن بسبب السرقة ، كما فكرت فى أول الأمر ، وأن الطهر وطيبة الخلق والسمعة الحسنة التى كانت تتحلى بها المجنى عليها ، كما ورد على لسان الشهود ، كل ذلك لم يكن إلا ستاراً تختفى خلفه بعض الجرائم الخلقية ، وبذلك بدأت القضية أمامى تتجه فعلا اتجاهاً آخر . ومكثت ثلاثة أيام قضيتها فى الإسكندرية لإتمام بعض الإجراءات فى إحدى القضايا هناك . ولما عدت ، استدعيت الفتاة من السجن ، ولما مثلت أمامى ، وجدت أوصافها فعلا ، كما ذكر البواب فى أول التحقيق . . شعر أسود داكن . . وعيون زرقاء . . واسعة . . وقوام فارع طويل . . وبشرة كلون العاج الذى لفحته شمس الشرق ، فأحالته إلى ما يشبه لون سنابل القمح ، غير أن هذا الجمال الرائع ، وهذه الفتنة التى لا نظير لها كان يلفها خمار أسود رقيق من الحزن ، بحيث جعل هذا الوجه الجميل الرائع أشبه تماماً بالمصباح المنطفئ ، والعيون الزرق الواسعة يبدو لك بياضها وهو يلتمع خلف الأهداب الطويلة المنسدلة عليها كما تلمع مترنحة ذبالة السراج الذى نضب زيته ، ولاحظت أنها فى حالة

إعياء شديد بحيث لاتكاد تقوى على الوقوف ، فأذنت لها بالجلوس فتهاوت على المقعد حتى كادت تسقط من عليه . فسألتها : هل هى مريضة . . فعرفت أنها جائعة .. وأن لها ثلاثة أيام لم تتناول طعاماً ، لأنه ليس لها أحد يسأل عنها أو يعنى بها وحتى الذين كانت تعمل عندهم فى الملاهى ، تنكروا لها بمجرد القبض عليها ، وأنها لم تحضر نقوداً معها لتشترى طعاماً وأن الطعام الذى قدم لها فى السجن عافته نفسها ولم تأكله . فأشفقت عليها وأحضرت لها طعاماً فى الحال وأرجأت معها التحقيق إلى اليوم الثانى .

٢

فى الصباح استدعيت الفتاة إلى مكتبى ، وكانت قد تمالكت قواها إلى حد كبير . ودبت فى أوصالها الحياة وفى جمالها الفتنة ، كما تمشت فى وجهها خيوط من إشراق . وغدا تماماً كطلعة الفجر عندما يتنفس نوره فى الكون حتى إننى دهشت كثيراً من الفرق الكبير بين أمس واليوم . وزادت دهشتى عندما بدأت التحقيق معها وفرغت من تلك الأسئلة التقليدية الأولى : اسمك . . وسنك . . وعملك . . وأين تقيمين .. وبدأت أدخل فى الموضوع وسألتها :

— هل تعرفين المجنى عليها . . . زينب عبد العال الشوباشى ؟

أقول كانت دهشتى بالغة عندما أجابت فى صراحة متناهية ، واطمئنان زائد :

— أجل أعرفها . . وأعرفها جيداً . . فقلت :

— هل كنت ترددين عليها فى بيتها ؟

— كثيراً جداً . . وأحياناً كنت أبيت عندها أيضاً !

— متى تعرفت على المجنى عليها ؟

— هى التى تعرفت على .

ــ كيف ؟

ــ فى الصيف الماضى كنت أعمل فى ملهى صيفى . . وهو باخرة على النيل .. وذات ليلة بعد أن انتهيت من رقصتى . . حضر إلىّ جمعة ..

ــ ومن جمعة ؟

ــ خادم فى الملهى . . وقال إن سيدة تريد مقابلتك . .

ــ هل كان معك أحد فى تلك اللحظة ؟

ــ كنت فى غرفتى أبدل ملابسى . . ولما سألته من هى ؟ . . وماذا تريد ؟ . . أفهمنى بأنها سيدة يبدو عليها أنها وقورة ومن أسرة كبيرة وأنها من رواد الملهى ، وتتردد عليه من حين إلى آخر . ولما جاءت إلىّ فى غرفتى . . أجلستها ، وطلبت لها زجاجة كوكاكولا .. وقالت لى : إنها تعودت أن تتردد على هذه الباخرة بين الحين والحين لتزجية الفراغ ، وإنها منذ أن شاهدتنى أعجبت بى وبرقصى : إذ لاحظت أنى لا أجلس مع أحد . ولا أتصل بأحد ، وأنها شعرت نحوى بعاطفة وحب ، ولذلك فهى تدعونى على فنجان شاى ببيتها .

ــ ووافقت ؟

ــ لا . .

ــ لماذا ؟

ــ فى الحقيقة ترددت . . لأن الناس قد تعودوا أن لا ينظروا للراقصة كفنانة . . وإنما كامرأة تعرض جسمها عارياً على الناس . . وأنها صيد

من السهل اقتناصه . .

— وهل أنت كذلك ؟

فصمتت ولم تجب ، وعلت وجهها غمامة كتلك التى تزحف فوق وجه القمر وتغطيه ، وقالت :

— أتصدقنى لو قلت لا ؟

وشعرت بحرج شديد من هذا السؤال الذى لا دخل له فى الموضوع ، وقلت معتذراً ، أو محاولا الاعتذار :

— أقصد هل الراقصة كذلك فعلا ؟

فتمتمت بصوت خفيض جدًّا ، وهى تنظر إلى الأرض :

— أرجو أن تسألنى عن نفسى فقط .

فأغفلت السؤال وقلت :

— وهل كان مظهر المجنى عليها يوحى بترددك فى قبول دعوتها ؟

— لا . . أبداً أبداً . . وإنما ترددت لأن بعض السيدات أحياناً يتخذن مظهر الوقار والحشمة والتظاهر بالتقى وسيلة لغايات معينة ، ولكنها لما ألحت . . وعدتها بذلك . . وأعطتنى عنوان مسكنها . . وانصرفت . . وأحسست وهى تنصرف بعد استجابتى لرغبتها أنها فرحت كثيراً . . إذ تهلل وجهها حتى انشقت عيناها عن إشراقة نور أضاءت كيانها كله . . . مما جعلنى أتشكك فى الأمر ثانية ولمْ أذهب إليها فى الموعد . . وبعد يومين اثنين . . تصادف أننى مرضت فيهما ولم أذهب إلى الملهى . .

جاءتنى هى إلى بيتى . .

ــ هل كانت تعرف عنوان بيتك ؟

ــ لا . . وهذا مما أدهشنى أول الأمر . . ولكنى عرفت منها أنها لما لم تجدنى فى الملهى فى اليومين الماضيين سألت عن عنوانى فأملاه عليها جمعة الخادم . . وهو الذى أخبرها بمرضى . .

ــ ألم تزدد شكوكك .. بعد أن وجدت منها هذا الاهتمام الزائد .. الذى لامبرر له ؟

ــ فعلا . . ولكن عندما توطدت علاقتى بها ، تبددت شكوكى جميعاً . . إذ وجدتها لى أكثر من أم . . وكانت هى تقول ذلك دائماً . .

ــ ماذا كانت تقول ؟

ــ كانت تقول بأنها وحيدة . لا أخ ولا زوج . ولا ابن أو ابنة .. وأنها تود لو تتخذنى ابنة لها . ولعل هذا التشابه فى الحرمان والوحدة هو الذى حببنى فيها ، وجعلنى أنزلها من نفسى منزلة الأم تماماً . .

وكنت قد نسيت أن أوجه لها سؤالا هامًّا . . . فقلت :

ــ مع من تقيمين فى بيتك ؟

ــ وحدى .

ــ من أى بلد أصلا ؟

ــ القاهرة .

ــ وأين تقيم أسرتك ؟

ـــ أبى مات قبل أن أراه . . وأمى تزوجت وأنا طفلة . . وتقيم مع زوجها فى الصعيد . . فى قرية تسمى البدارى .

ـــ ولماذا لم تأخذك معها . . بعد أن تزوجت ؟

ـــ قالت إن زوجها رفض أن ينفق علىّ . .

ـــ كم كانت سنك فى ذلك الحين ؟

ـــ سبع سنوات ؟

ـــ ولمن تركتك أمك فى القاهرة بعد أن رحلت عنها مع زوجها ؟

ـــ ليس لأحد . .

فصمت لحظات ، ثم قلت :

ـــ وكيف نشأت إذن ؟

ـــ هذا تاريخ لا أذكره ، وإنما الذى أعرفه هو أننى اشتغلت خادمة عند « عالمة » فى شارع محمد على تدعى « الست بهية » وهى التى علمتنى الرقص . .

ـــ ألم تتردد عليك أمك طوال هذه المدة ؟

ـــ بعد أن عرفت كراقصة ، كانت تتردد على من حين إلى آخر . . لتأخذ منى بعض النقود .

ـــ أين كانت تقيم أمك فى القاهرة ؟

ـــ فى حارة درب المرعشلى . . فى القلعة . .

ـــ وما اسمها ؟

ـ نظيرة أحمد البسيونى . .

ـ وما اسم زوجها ؟

ـ لا أعرف . .

ـ ألم يحضر لزيارتك مع أمك مرة من المرات ؟

ـ لا . . ولم أره منذ تزوج من أمى . . ونزح معها إلى الصعيد . .

وراودنى شك فى هذه المعلومات . . فتناولت ورقة وكتبت فيها اسم الأم وعنوانها ، وذيلتها بأمر القبض عليها وترحيلها فوراً إلى القاهرة ، ولاحظت أثناء ذلك أن الفتاة تختلس النظر إلى يدى وما أكتب فسألتها :

ـ هل تقرئين وتكتبين ؟

ـ نعم .

ـ هل ذهبت إلى المدرسة ؟

ـ لا .

ـ كيف إذن تعلمت القراءة والكتابة ؟

ـ علمتنى الست بهية عليها رحمة الله .

ـ سمعتك من لحظات تنطقين كلمة بالإنجليزية . . . فهل تعلمت الإنجليزية أيضاً ؟

ـ تعلمت منها بعض كلمات . . حينما كنت أعمل فى مرقص ليلى ، يؤمه بعض الجنود الإنجليز أيام الحرب . .

فنظرت إليها سريعاً ، ولا أدرى لماذا تغيرت نظرتى إليها هذه المرة ،



ولا أدرى أيضاً لماذا وجهت إليها هذا السؤال على الفور :

ـ هل أنت متزوجة ؟

ـ لا . .

ـ وهل سبق أن تزوجت ؟

ـ لا .

ـ هل . . .

ولكنها لم تجعلنى أتم السؤال وقالت بصوت خفيض جداً وهى تنظر إلى الأرض :

ـ إننى عذراء .

ولعل هذا الجواب الأخير كان أبرز الأجوبة وأدعاها إلى الشك فى كل أقوالها . ولكى أضع شكوكى هذه جميعاً موضع اليقين مددت يدى وتناولت ورقة من أمامى ، وطلبت إحالتها على الكشف الطبى . . . وكأنها أدركت قصدى .. فتألمت فى حزن، لأنها قالت وكأنها جواد جريح يتألم :

ـ وما دخل هذه الأسئلة الأخيرة فيما استدعيتنى من أجله ؟

ـ أليس من حقى أن أعرف ؟

ـ تعرف ماذا ؟

ـ السر الحقيقى الذى ربط بينك وبين المجنى عليها ؟

ـ أفهم من ذلك أنك ترتاب فى صلتى بها ؟

— ولم لا . .

فقالت وقد علت وجهها فجأة سحابة قاتمة السواد ، وقد ارتفع صوتها لأول مرة ، شأن من يكاد يخرج عن طوره :

— لو أن الأمر كما تظن لما قطعت علاقتى بها نهائيًّا قبل الحادث عشرين يوماً . .

فأحسست على الفور أننى وضعت يدى على شيء . ولذلك تماسكت حتى لا تهزنى الفرحة ، وقلت وأنا أدور من بعيد حول ما أريد :

— إذن أنت تعلمين بالحادث فى حينه ؟

— قرأت عنه فى الصحف . .

— ولماذا لم تتقدمى للإدلاء بأقوالك ؟

— أى أقوال ؟

— بأنك على الأقل تعرفين المجنى عليها . . وقرأت أنه جارى البحث عن فتاة تنطبق عليها أوصافك . .

— لم أقرأ هذا . . ولم تشر إليه الصحف .

— ولكنك قرأت نبأ مقتلها . .

— ولو قتل أحد . . فهل على جميع الذين يعرفونه أن يتقدموا يقولوا إننا كنا نعرف القتيل ؟

وأحسست بما فى الجواب من سخرية ، ولكنى تغاضيت ، وقلت :

— ولكن علاقتك أنت بها لم تكن عادية كما جاء فى أقوالك . .

ـ أى أقوال ؟

ـ إنها كانت لك بمثابة الأم . .

فأرسلت تنهدة طويلة . . وقالت بصوت خفيض . . وكأنها تزداد توجعاً :

ـ ولا أنكر أنى فرحت بذلك كثيراً . . وكانت سعادتى به لاتقدر .. حتى إننى فعلا اعتبرتها أمى . وأودعتها كل أسرارى ، وصدقت كل ما كانت تقوله لى . . .

ـ ماذا كانت تقول لك ؟

ـ إنه لا ذرية لها .. وإنها تعتبرنى ابنة لها .. وإنها مستعدة أن تهب لى ماتملك حتى ضيعتها الصغيرة التى تملكها فى الريف ، فقط أترك مهنة الرقص . وأعيش معها فى بيت واحد .

ـ ولماذا لم توافقى ؟

ـ لم أشأ أن أكون عبئاً على أحد .. أو تنفق على سيدة ليست لى بها صلة قرابة أو رحم .

قالت ذلك وصمتت فى حزن شديد حتى إن بعض الدموع كادت تنفرط عن عينيها . . فانتهزت فرصة هذه الآلام التى تعتمل فى نفسها . . ووجهت إليها هذا السؤال :

ـ تقولين إنك انقطعت عنها نهائيًّا .. قبل الحادث بعشرين يوماً . . فما هى الأسباب ؟

ـ ارتبت فى أمرها .

ـ كيف ؟

ـ فاجأتها ذات ليلة . . ورجل يتسلل فى الظلام من مخدعها . .

فتماسكت حتى لا أشعرها بأهمية هذا الاعتراف الذى يكاد يكون نقطة تحول فى القضية . . وقلت :

ـ هل أنت متأكدة من أقوالك ؟

ـ نعم . .

ـ أليس من الجائز أنك تخيلت ذلك فى الظلام ؟

ـ لقد أشعلت النور . . ورأيته رؤية العين . .

ـ هل كنت معها فى البيت فى هذه الليلة ؟

ـ لا .

ـ أين كنت ؟

ـ فى الملهى . .

ـ هل كنت على موعد معها ؟

ـ لا .

ـ إذن لماذا ذهبت إليها ؟

ـ كنت متعودة أن أتردد عليها فى أى وقت . . فى النهار . . ولكنى لم أتعود أن أذهب إليها فى الليل ، إذا ذهبت . . إلا فى وقت متأخر جداً . . أى بعد أن أخلص من عملى الليلى فى الملهى .

ـــ متى كان عملك الليلى ينتهى تقريباً ؟

ـــ بعد الساعة الواحدة صباحاً . .

ـــ كل ليلة ؟

ـــ كل ليلة . .

ـــ ومتى ذهبت إليها فى تلك الليلة ؟

ـــ حوالى العاشرة مساء . .

ـــ أنت تقولين إن عملك لا ينتهى الا بعد منتصف الليل . .

ـــ فى هذه الليلة ذهبت إلى الملهى كالعادة ، فوجدتهم قد أتوا براقصة جديدة لتعمل معى ، فكانت مفاجأة لى .. واعتبرت هذا ماسًّا بكرامتى ، فتركت الملهى وانصرفت ، ولم أشأ أن أذهب إلى بيتى فذهبت إليها .

ـــ كم كانت الساعة على وجه التحديد عندما ذهبت إليها ؟

ـــ العاشرة والنصف أو الحادية عشرة .

ـــ وما الذى حدث بالتفصيل ؟

ـــ شاهدت رجلا يتسلل من مخدعها كما قلت . .

ـــ كيف شاهدته ؟

ـــ أنا صعدت فى المصعد كالعادة ، وعندما بلغت باب المسكن . . أخرجت المفتاح من حقيبتى وفتحت الباب .

ـــ هل كان معك مفتاح للمسكن ؟

ــ نعم .

ــ ولماذا ؟

ــ هى التى أعطتنى إياه، لكى أدخل وأخرج فى أى وقت أريد . .

ــ ولما فتحت الباب ؟

ــ وجدت البهو مظلماً كالعادة ، فظننتها نائمة ، لأنها كانت متعودة أن تبكر فى النوم . . ولكن ما إن أشعلت النور ، حتى سمعت حركة غير عادية فى غرفتها . . ولاحظت أن نور الغرفة قد أطفئ . . . فاتجهت إلى الغرفة وفتحت بابها ، وما إن تقدمت خطوة واحدة حتى رأيت رجلا أمامى فى الظلام فصرخت وكاد يغمى على .. وانتهز هو هذه الفرصةوخرج سريعاً وهو يحاول إخفاء وجهه بجريدة كانت فى يده .

ــ وأين كانت هى ؟

ــ لما أشعلت نور الغرفة وجدتها جالسة على مقعد بجانب السرير . . .

ــ وماذا كانت ترتدى من الثياب ؟

ــ قميص النوم . .

ــ فقط ؟

ــ وشالا أسود كانت متعودة دائماً أن تضعه على رأسها وكتفيها . .

ــ هل وضعت الشال عندما رأتك . . أو كانت تضعه على رأسها من قبل ؟

ــ لا أستطيع أن أحدد . .

ــ وماذا قالت لك ؟

ــ كانت مرتبكة جداً .. بحيث إنها لم تستطع أن تنطق .

ــ ألم تسأليها . . عن سبب وجود هذا الرجل ؟

ــ لا .

ــ لماذا ؟

ــ لأن هناك بعض الأسئلة يستطيع الإنسان أن يعرف الجواب عنها سلفاً . .

ــ هل أفهم من ذلك أنك اقتنعت فعلا ؛ . . . .

ــ مادامت قد ماتت فليغفر لها الله . .

ــ ألم يدر أى حديث بينك وبينها فى هذا الشأن ؟

ــ لا .

ــ ألم تؤنبيها على هذا الفعل ؟

ــ كانت المفاجأة مذهلة بالنسبة لى فلم أنطق . .

ــ تقولين بأنك رأيت الرجل رؤية العين .. . فما هى أوصافه ؟

ــ كل الذى أذكره . . أنه طويل القامة . . أشيب الشعر . . يضع فوق رأسه طربوشاً طويلا . . ويرتدى بذلة أنيقة سوداء اللون ذات خطوط بيضاء رفيعة . . ولونه يميل إلى السمرة . .

ــ كيف شاهدت لونه وأنت تقولين إنه كان يضع جريدة على وجهه . . ؟

ـ شاهدت يده ونصف وجهه وهو يستدير سريعاً ليخرج من الباب .

ـ تقولين بأن الغرفة كانت مظلمة . . فكيف شاهدت ذلك ؟

ـ لما فتحت الباب . . أضاء النور الذى فى البهو . . مدخل الغرفة . .

ـ هل قال لك شيئاً ؟

ـ إنه لم ينظر إلىّ . .

ـ وأنت ألم تقولى له شيئاً ؟

ـ كنت فى حالة ذهول . .

ـ إذا عرض عليك . . فهل تستطيعين أن تتعرفى عليه ؟

ـ ربما . .

ـ ألم تشاهديه قبل هذه المرة يتردد على البيت ؟

ـ لا . . لا . . أبداً . . أبداً . . لا هو ولا غيره . .

ـ هل كانت الخادمة فى البيت وقت دخولك ؟

ـ لا . . لأننى التقيت بها عند خروجى واقفة أمام المصعد . .

ـ أين كانت ؟

ـ لا أدرى . .

ـ ألم تتحدثى إليها بشىء ؟

ـ كان احتقارى لها هى الأخرى زائداً . . فلم أنظر إليها وانصرفت . .

ـ ألم تترددى عليها بعد هذا التاريخ ؟

ــ إطلاقاً . .

ــ ألم تتصل هى بك ثانية ؟

ــ حاولت كثيراً وأرسلت لى عم دسوقى أكثر من مرة .. ولكنى رفضت . .

وكانت مفاجأة لى أن تذكر هذا الاسم . . فقد كنت حتى هذه اللحظة أعرف أنها لا تعرفه .. وقد أنكر هو فى التحقيق معرفته بها إنكاراً باتاً . وأدهشنى ذلك .. وبدأت أرى خيطاً جديداً يتراقص أمام عينى . ولذلك قلت متجاهلا :

ــ من هو عم دسوقى ؟

ــ رجل من الأرياف كان يتردد عليها . . وكان خولى زراعتها كما قالت لى . .

ــ هل شاهدته يتردد عليها ؟

ــ كثيراً . . . .

ــ وهل كان يتحدث إليك ؟

ــ أحياناً . . وكنت أستريح إليه . . فقد كان لطيفاً ومرحاً إلى حد كبير . . . وأذكر أننى مرة طلبت منه أذرة خضراء فأرسلها لى بعد يومين . . . ومعها بعض الفطير والزبد . .

ــ أرسلها لك فى بيتك . . أم فى بيت المجنى عليها ؟

ــ فى بيت المجنى عليها . .

ـــ ما هى أوصاف هذا الرجل ؟

ـــ كهل فى الستين من عمره تقريباً . . طويل اللحية والشارب . . له عينان ضيقتان . . وعلى أذنه اليسرى قطع أفقى . .

فاندهشت لدقة هذه الأوصاف وقلت :

ـــ هل كان يعرف عنوان بيتك ؟

ـــ بدليل أنه جاءنى ثلاث مرات . .

ـــ لماذا جاء إليك فى المرات الثلاث ؟

ـــ ليحاول أن يستعيد صداقتى بها ثانية . .

ـــ وماذا قلت له ؟

ـــ رفضت طبعاً . .

ـــ ألم يسألك عن السبب ؟

ـــ سألنى . .

ـــ وهل قلت له السبب الحقيقى ؟

ـــ خجلت . .

ـــ ماذا قلت له إذن ؟

ـــ قلت له إننى راقصة . . وإن الناس تعودوا أن ينظروا إلى الراقصات نظرة غير مشرفة . . وإنها سيدة كريمة ومحافظة، وإن ترددى عليها قد يسىء إليها . .

ـــ ولماذا قلت له هذا ؟

ــ لأنى كنت أشفق عليها فعلا . .

ــ برغم الذى حدث وشاهدته بعينك . .

فصمتت ولم تجب . . ولما أعدت السؤال . . قالت بصوت مختنق :

ــ لقد كنت أحبها فعلا . .

ــ وماذا قال لك ؟

ــ حاول أن يقنعنى فلم أقتنع .

ــ متى كانت آخر مرة ذهب فيها إلى بيتك ؟

ــ قبل الحادث بأسبوع واحد . . وكان يوم جمعة على ما أذكر .

ــ هل أنت متأكدة من أن اليوم كان يوم جمعة ؟

ــ نعم . . لأنه كان يحضر دائماً يوم الجمعة . .

ــ لماذا يوم الجمعة بالذات ؟

ــ كان يقول لى بأنه يصلى الجمعة دائماً فى مسجد الحسين .

فزادت دهشتى وقلت وأنا أشعر بأننى وصلت إلى شىء :

ــ قال دسوقى على حسنين فى التحقيق . . إنه لم يتعرف عليك ولم يرك فى بيت المجنى عليها أبداً . .

ــ هو قال ذلك ؟

ــ أجل .

ــ غريبة .

ــ ما هو سبب إنكاره ؟

ــ لا أعرف .

ــ هل كانت علاقته بالمجنى عليها طيبة ؟

ــ جداً . .

ــ ألم تلاحظى شيئاً على هذه العلاقة ؟

ــ من أى ناحية ؟

ــ أى ملاحظة . .

ــ لم تكن أكثر من علاقة خادم بمخدومه .

ــ هل كانت المجنى عليها تثق فيه ؟

ــ إلى حد أنها كانت لا تتصرف أى تصرف إلا بمشورته .

ــ مثل ؟

ــ مثلا . . غضبت يوماً على الخادم التى تعمل عندها . . وأرادت طردها . . ولكنها لم تفعل لأن عم دسوقى لم يوافق على طردها . .

ــ ما السبب فى أنها كانت تأخذ بقوله إلى هذا الحد ، وهو لا يخرج عن أنه خادم عندها كما تقولين ؟

ــ إخلاصه لها .

ــ وهل كان مخلصاً لها فعلا ؟

ــ كان لها أكثر من أب . . وأكثر من شقيق .

* * *

وحاولت أن أسألها بعض أسئلة أخرى ولكنها كانت متعبة ومرهقة إلى حد كبير . . فاكتفيت بهذا القدر . . وشعرت بشيء من الاطمئنان لهذه النتائج التى وصلت إليها وإن كانت جميعاً ما زالت فى عالم الغيب . . وأرجأت التحقيق إلى الغد . . ولكنى فى الغد انشغلت بالمرافعة فى إحدى القضايا . .

. .

٣

بعد يومين استأنفت التحقيق فى هذه القضية . . فاطلعت على نتيجة الكشف الطبي على الفتاة . . وكم كانت دهشتى بالغة . . عندما جاء تقرير الكشف الطبي مؤيداً لصحة أقوالها وأنها عذراء فعلا كما قالت فى التحقيق . . وقد جعلنى هذا أراجع أقوالها مرة أخرى . وأنظر إليها بعين الاعتبار . . كما جعل نظرتى إليها تتبدل ، ولا أنكر أننى شعرت نحوها بكثير من العطف والتقدير .

وكانت أمها قد تم القبض عليها، وترحيلها إلى القاهرة . فاستدعيتها.. ولما مثلت أمامى . وجدتها عجوزاً ذات سحنة نحاسية صدئة . . وجه متغضن . . ترتسم فوقه عدة تجاعيد سوداء . . تنم عن الشر . . كما تنم نظراتها الصفراء الشاحبة التى تنبعث من عينيها الضيقتين عن الغلظة والقسوة والأنانية . . مما جعلنى أستشعر الضيق أو هكذا أحسست بمجرد أن وقعت عينى عليها . . ومع أنها كانت تبكى . . وكانت فعلا فى حالة ذعر شديد . . إلا أن هذا لم يقلل من أهمية خطرها فى نظرى . . ولذلك عاملتها فى أول الأمر بشيء من الغلظة . . وبعد أن أجابت على بعض الأسئلة الأولية التى يتطلبها التحقيق . . وجهت إليها السؤال التالى :

ـــ منذ متى تقيمين فى البدارى ؟

ــ من خمس عشرة سنة .

ــ أين كنت تقيمين قبل ذلك ؟

ــ فى درب المرعشلى بالقلعة . .

ــ مع من كنت تقيمين ؟

ــ مع زوجى الأول . .

ــ هل كنت متزوجة قبل زوجك الحالى ؟

ــ نعم . .

ــ ولماذا انفصلت عنه ؟

ــ مات . .

ــ ماذا كان يعمل ؟

ــ عربجى كارو . .

ــ وبعد موته ؟

ــ كنت أشتغل خادمة فى بعض المنازل . .

ــ ما هو آخر بيت كنت تعملين به ؟

ــ بيت المرحوم حسن الشربتلى . .

ــ أين يقع هذا البيت ؟

ــ خلف سراى الهياتم فى شارع الخليج . .

ــ ولماذا تركت الخدمة ؟

— لما تزوجت زوجي الثاني . . وذهبت معه إلى البداري . . وتركت القاهرة نهائيًّا . .

— ماذا كان يعمل زوجك الثاني؟

— بائع فاكهة متجول . .

— ولماذا ترك هذه التجارة ؟

— ورث عن أمه نصف فدان . . فترك التجارة . . وفضل أن يعمل فلاحاً . .

— هل أنجبت من زوجك الأول ؟

— لا . .

— ومن زوجك الثاني ؟

— ولا من زوجي الثاني .

فنظرت إليها وقلت :

— أنت لك ابنة تدعى زينات شوقي . . وتعمل راقصة في بعض الملاهي الليلية . . وتقيم في القاهرة . .

— ليست ابنتي . . وأنا لم أنجب طول حياتي . .

وكنت لحظتها أشعل سيجارة . . فكادت تسقط من فمي . . ولكني تماسكت سريعاً حتى لا أجعلها تشعر بدهشتي من هذه المفاجأة الغريبة . . وقلت :

— ولماذا تدعى هي ذلك ؟ !

— هي فعلا تظن أنني أمها .

— تظن أنك أمها ؟

ـ نعم . .

ـ وما الذى جعلها تظن ذلك ؟

ـ لأنها نشأت لا تعرف لها أماً . . فقلت لها أنا أمك . . وأيضاً الذين كانوا يعرفون حقيقتها . . طلبوا منى أن أقول لها ذلك . .

ـ من هم ؟

ـ سيدة لا أعرفها جاءتنى فى اليوم الثانى من عثورى عليها . .

ـ عثورك على من ؟

ـ على نعمة . .

ـ من نعمة ؟

ـ كان اسمها نعمة . . وأنا التى سميتها بهذا الاسم . . أما زينات فهو اسم الشهرة بعد أن اشتغلت راقصة .

ـ أين عثرت عليها ؟

ـ لقيطة ملقاة فى الطريق . .

ـ اذكرى الذى حدث بالضبط . .

ـ كنت فى ذلك اليوم أقطع الطريق من القلعة إلى شارع الخليج حيث البيت الذى أخدم فيه . . وعند أول شارع درب الجماميز . . وبجوار سبيل المحمدى . . سمعت صوت بكاء طفل . . . . فالتفت فوجدت طفلة مولودة حديثاً . . وقد لفت فى ثياب بيضاء نظيفة . . فحملتها وعدت بها إلى البيت . .

— هل شاهدك أحد ؟

— لا . .

— كم كانت الساعة فى ذلك الوقت ؟

— حوالى السادسة صباحا . .

— وما الذى جعلك تستيقظين فى هذا الوقت ؟

— كنت دائماً أذهب إلى البيت الذى أخدم فيه فى مثل هذا الوقت .

— ولماذا لم تبلغى عنها ؟

— لأننى لم أنجب . . وكانت أمنيتى أن يكون لى طفل أو طفلة . . ولذلك اعتبرتها نعمة بعث بها الله إلىّ . . وقد سميتها نعمة فعلا . .

— وماذا قال لك زوجك ؟

— كان زوجى قد مات . . وكنت أقيم بمفردى فى ذلك الحين . .

— قلت إن الذين كانوا يعرفون حقيقتها طلبوا منك تبنيها . . فمن هم ؟

— فى نفس اليوم الذى عثرت عليها فيه . . جاءتنى سيدة لا أعرفها وقالت لى إنها صديقة لأم هذه الطفلة . . وإن الله قد أمر بالستر . . وطلبت منى أن أعنى بتربية الطفلة . . وسوف تدفع أجر تربيتها والعناية بها . .

— فى أى وقت من النهار جاءت إليك ؟

— بين المغرب والعشاء . .

— أين جاءت إليك ؟

— فى بيتى . .

ـ وكيف عرفت بيتك ؟
ـ قالت لى إنها كانت تتبعنى وأنا أحمل الطفلة . .
ـ هل لاحظت أن أحداً كان يتبعك فعلا ؟
ـ لا .

فى اقوالها ؟
. . وإلا فكيف عرفت هى بيتى فعلا ؟
ـ ما هى أوصاف هذه السيدة التى جاءت إليك ؟
ـ سيدة وقورة . . يبدو عليها من ثيابها وحشمتها أنها من أسرة كبيرة . .
ـ كم سنها على وجه التقريب ؟
ـ شابة فى الثلاثين أو فى الخامسة والثلاثين . . طويلة . . ممتلئة الجسم إلى حد ما . واسعة العينين . . ولونها يميل إلى السمرة . . وشعرها أسود فاحم السواد . .
وكانت هذه الأوصاف تنطبق إلى حد كبير على المجنى عليها ، فقلت :
ـ جميلة ؟
ـ طبعاً ست وجميلة .. ولولا حزنها وبكاؤها لكانت كالقمر تماماً ..
ـ لماذا كانت تبكى ؟
ـ لا أعرف . .
ـ ألم يجعلك هذا تشكين فى أنها هى أم الطفلة ؟

ـــ فعلا شككت فى هذا وسألتها ولكنها أنكرت . .

ـــ ماذا قالت لك ؟

ـــ قالت لى إنها حزينة لأن أم الطفلة قريبة لها . .

ـــ وهل صدقت هذا ؟

ـــ الحقيقة صدقت . . لأن مظهرها لم يكن ليدل على أنها من الستات إياهن . .

ـــ ماذا تقصدين بالستات إياهن ؟

ـــ أقصد اللواتى يحملن سفاحاً . . ويلقين بأبنائهن فى الطرقات . .

ـــ ما اسم هذه السيدة :

ـــ سألتها عن اسمها . . ولكنها أنكرته علىّ . .

ـــ لماذا أنكرته عليك ؟

ـــ كانت دائماً تقول . . إن الله حليم ستار . .

٤

لست أدرى لماذا عاودنى الشعور بخطورة هذه المرأة التى تقف أمامى ، أو بمعنى آخر ، خطورة هذه الأقوال التى تدلى بها . ولذلك نظرت إليها ثانية ، ولما تمعنت فى وجهها ورأيت ظلال الخشونة التى ترتسم عليه أكثر وضوحاً ، صمت لحظات ثم قلت :

ــ أين كانت تقيم ؟

ــ لا أعرف .

ــ ألم تذكر لك عنوانها ؟

ــ طبعاً لا .

ــ ألم تحاولى سؤالها مرة أخرى؟

ــ مادامت قد أنكرت على حتى اسمها . . فبطبيعة الحال لن تذكر لى عنوانها .

ــ وأنت ألم تحاولى معرفة عنوانها ؟

ــ حاولت مرة واحدة . . ولكنى أخفقت .

ــ ما هى المحاولة التى قمت بها ؟

ــ عندما جاءت إلى بعد ذلك بأسبوعين . . انصرفت . . فتتبعتها خلسة . . ولكنها بعد أن خرجت من الحارة ، وبلغت ميدان القلعة ركبت سيارة .. واختفت .

– هل كانت هذه السيارة تنتظرها ؟

– لا أعرف .

– السيارة كانت أجرة .. أم ملاكى ؟

– الوقت كان ليلا . . وأنا لا أفرق بين الأجرة والملاكى . .

– هل لاحظت أن أحداً كان فى السيارة غير السائق ؟

– أنا كنت خلف السيارة . . فلم أر أحداً . .

– ماذا كنت تقصدين من معرفة عنوان بيتها ؟

– قلت إذا انقطعت عن المجىء إلى .. ذهبت أنا إليها ..

– تذهبين إليها لماذا ؟

– لأخذ النقود التى اتفقت معى عليها . .

– كم هو المبلغ الذى اتفقت معك عليه ؟

– ثلاثة جنيهات فى الشهر . .

– كم أعطتك فى أول مرة ؟

– خمسة جنيهات ..

– لماذا أعطتك هذا المبلغ .. وقد اتفقت معك على ثلاثة فقط . .

– هى أعطتنى هذا المبلغ ..

– هل تذكرين تاريخ اليوم الذى عثرت فيه على الطفلة . . والذى جاءتك فيه هذه السيدة ؟

– لا .. لا أذكر . .

ـ تذكرى ..

ـ إنها سنوات طويلة ..

ـ هل استخرجت شهادة ميلاد للطفلة ؟

ـ لا ..

ـ لماذا وأنت تعلمين أن هذا يخالف القوانين ؟

ـ خشيت أن أقع فى سين وجيم . . وأنا عمرى ما وقفت أمام جندى..

ـ كم كانت سنك أنت فى ذلك الحين ؟

ـ لا اعرف .

ـ هل معك قسيمة زواج .. من زوجك الثانى ؟

ـ عندى فى البيت .

ـ هل تذكرين تاريخها ؟

ـ لا ..

ـ ألا تذكرين حادثاً معيناً وقع لك فى ذلك التاريخ الذى عثرت فيه على الطفلة ؟

ـ لا ..

ـ أو لأحد أقاربك مثلا ؟

ـ ليس لى أقارب ..

ـ أو لأحد من معارفك مثلا ؟

ـ لا .. ولكن الذى أذكره . . أننى بعد أن عثرت عليها بيومين

أو بثلاثة فقط . . . استيقظت فوجدت البلدة هائجة . . والشوارع ممتلئة بالمظاهرات . . ولما سألت قيل لى إن سعد باشا ضرب بالرصاص . .

ورجعت إلى تاريخ هذا الحادث الذى ذكرته . . فوجدته فى نوفمبر عام ١٩٢٤ . فأثبت ذلك فى المحضر . . ثم استأنفت سؤالها :

— ثم بعد أن جاءتك هذه المرة ؟

— جاءتنى بعد ذلك بأسبوعين . . وأعطتنى ثلاثة جنيهات . .

— هل شاهدت الطفلة . . فى المرة الثانية ؟

— وبكت كما بكت تماماً فى المرة الأولى . . ثم لم ترها بعد ذلك . .

— ألم تتردد عليك بعد هذه المرة ؟

— لا . . . وقد انقطعت عنى نهائيًّا . .

— وانقطعت عنك النقود أيضاً ؟

— لا . . النقود كانت تصلنى بانتظام . . فى أول كل شهر . .

— كيف كانت تصلك النقود ؟

— كان يحضرها لى رجل . . فى أول كل شهر . .

— ما اسم هذا الرجل ؟

— عم دسوقى . .

نطقت هذا الاسم فأحسست كأن قنبلة انفجرت أمامى فى التحقيق.. حتى إننى اهتززت وابتلعت أنفاسى . . وقد غمرتنى فرحة زائدة . . إذ بدأت أتأكد من صحة الأقوال التى استمعت إليها جميعاً . . ولا سيما

أقوال الفتاة التى جاءت أقوال هذه المرأة مطابقة لها كل المطابقة . . وأيضاً أقوال هذه المرأة التى كنت أعتقد أول ما وقعت عينى عليها . أننى أمام امرأة كل شئ فيها لا ينطق إلا كذباً . . ونظرت إلى هذا الخيط الأبيض الذى بدأ يتوضح أمامى . . وإلى النور الذى ينبعث منه فى عينى . . وابتلعت أنفاسى مرة أخرى ابتهاجاً . . وتلاشت الغلظة التى كانت فى صوتى والتى كنت أخاطبها بها . . وتحولت إلى رقة زائدة . . وقلت أسألها :

ــ هل أنت متأكدة من أن اسمه دسوقى ؟

فقالت فى إيمان كثير :

ــ طبعاً متأكدة . .

ــ ما الذى جعلك تتأكدين ؟

ــ لأنه رجل طيب . . ولا يعرف الكذب . . ومكث يتردد علىّ عدة سنوات . .

ــ يتردد عليك لماذا ؟

ــ ليعطينى النقود فى أول كل شهر . .

ــ ما هى أوصاف هذا الرجل ؟

ــ فلاح . .

ــ ماذا تقصدين من كلمة فلاح ؟

ــ ريفى يرتدى الملابس الريفية . .



ــ ما هى أوصافه بالضبط ؟

ــ طويل طولا يلفت النظر .. ويميل لونه إلى السمرة .. وله عينان ضيقتان ..

ــ هل كانت له علامة مميزة ؟

ــ فى إحدى أذنيه من أعلى قطع أفقى قديم . .

فابتلعت أنفاسى . . مرة ثالثة اطمئناناً . . وقلت :

ــ فى أى الأذنين ؟

ــ لا أذكر . .

ــ تذكرى . .

فصمتت حيناً كمن تسترجع شيئاً بعيداً . . وقالت :

ــ أغلب الظن أنه فى أذنه اليسرى . .

فامتدت أصابعى إلى وسط الخيط . . وأمسكت به فى يدى .. وأطبقت عليه جيداً . . وقلت :

ــ متى وأين التقى بك دسوقى فى أول مرة ؟

ــ فى بيتى . .

ــ كيف عرف عنوان بيتك ؟

ــ هى التى قالت له طبعاً . .

ــ هو أخبرك بذلك ؟

ــ نعم . . .

ــ وماذا قال لك ؟

ـ قال لى إن السيدة التى سبق لها أن جاءتنى .. وأوصتنى على الطفلة .. قد حالت ظروف بينها وبين المجىء إلى .. وقد أرسلتنى نيابة عنها لأعطيك المبلغ المتفق عليه . . .

ـ ما هى هذه الظروف ؟

ـ لا أعرف . .

ـ ألم يذكرها لك ؟

ـ لا . .

ـ وأنت . . ألم تحاولى معرفتها ؟

ـ كان مرة يقول لى إنها مريضة . . ومرة يقول لى إنها سافرت . .

ـ وهل صدقت هذا ؟

ـ لا . .

ـ ماذا صدقت إذن ؟

ـ قلت إنها خشيت أن يفتضح أمرها . . إذا ما ترددت علىّ كثيراً . . فأنابت عنها هذا الرجل . .

ـ معنى هذا أنك كنت تعتقدين أن هذه المرأة هى أم الطفلة ؟

ـ نعم . . كنت أعتقد ذلك . .

ـ وما الذى جعلك تعتقدين ذلك . . وقد قالت لك إنها لم تكن أمها ؟ وإنما هى قريبة لها ؟

ـ الدم يحن . . وكانت فى المرتين عندما تنصرف . . تقبل الطفلة

وتبكى بكاء حاراً . .

ــ ذكرت فى التحقيق غير ذلك . . فقد جاء فى أقوالك أنك اقتنعت بأقوالها ، وهى أنها قريبة لأم الطفلة ؟

ــ قلت ذلك فى أول الأمر . . ولكن عندما جاءتنى فى المرة الثانية . ورأيت نظراتها للطفلة وبكاءها وهى تقبلها . . اقتنعت بأنها أمها . .

ــ ما هى الصلة التى كانت بين دسوقى وهذه السيدة ؟

ــ لا أعرف . .

ــ ألم تحاولى سؤاله ؟

ــ قال لى إنه خادم عندها . .

ــ وصدقت هذا القول ؟

ــ كان منظره فعلا يدل على هذا . .

ــ هل كان دسوقى يشاهد هذه الطفلة عندما يجىء إليك ؟

ــ أحياناً . .

ــ وماذا كان شعوره عندما يراها ؟

ــ كان يتألم . . ويقول . . ربنا يجازى أولاد الحرام . .

ــ ألم تحاولى أن تعرفى منه . . من هم أولاد الحرام هؤلاء ؟

ــ كنت كلما حاولت ذلك . . قال نفس الكلام الذى كنت أسمعه منها . .

ــ أى كلام ؟

ـ إن الله حليم ستار . .

ـ هل كان يشعر نحو الطفلة بشعور معين ؟

ـ كان يعطف عليها كثيراً . . ويوصينى دائماً بها خيراً . . وذات مرة . . حضر إلى وكانت مريضة . . فذهب إلى «الأجزخانة» . . وأحضر لها دواء . .

ـ ألم يجعلك هذا تظنين شيئاً ؟

ـ أظن ماذا ؟

ـ أنه والد الطفلة مثلا ؟

ـ لا . . لا . . أبداً . . أبداً . .

ـ لماذا نفيت هذا سريعاً ؟

ـ لأن منظره لم يكن ليدل على أنه أبوها . .

ـ كم كان يعطيك من النقود دائماً ؟

ـ هى الثلاثة جنيهات كل شهر . .

ـ هل كان يعطيك شيئاً آخر ؟

ـ أحياناً . . كان يحضر لى بعض الهدايا الريفية . .

ـ ماذا تقصدين بالهدايا الريفية ؟

ـ حنطة . . وأذرة خضراء . . وفطير . . وفى الأعياد والمواسم كان يحضر إلى بعض اللحم .

ـ ألم تحاولى أن تطلبى منه زيادة المبلغ ؟

ــ لا . . وكنت فرحة بهذا المبلغ . .

ــ هل ظل يتردد عليك كثيراً ؟

ــ ما يزيد على الخمس سنوات . .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ لم أره . .

ــ انقطع عن المجيء إليك ؟

ــ الذى حدث أننى لما تزوجت . . وطلب منى زوجى أن أنتقل معه إلى الصعيد . . . تركت الطفلة عند جارة كانت تقيم معى فى البيت نفسه . . وطلبت منها أن تسلمها إلى هذا الرجل الريفى عندما يجيء ...

ــ ولماذا لم تأخذى الطفلة معك ؟

ــ رفض زوجى . .

ــ لماذا رفض ؟

ــ قال إنه ليس على استعداد أن ينفق على طفلة ليست ابنتنا . .

ــ ووافقت ؟

ــ نعم . .

ــ كيف وافقت وقد جاء فى أقوالك . . أنك لم تنجبى . . وقد فرحت بالطفلة وتبنيتها ؟

ــ كان هذا شعورى فى أول الأمر .. ولكنى لما عرفت أن لها من يسأل عنها قل هذا الشعور .. وقلت إنهم سوف يأخذونها منى فى يوم من الأيام..

– ولماذا لم تنتظرى حتى يجىء إليك دسوقى . . وتسلميه الطفلة ؟

– أصر زوجى على أن نسافر فى يوم معين . .

– وهل تسلم دسوقى الطفلة من جارتك ؟

– لا . . لأننى عندما عدت إلى القاهرة بعد ذلك بشهرين . . قالت لى جارتى . . . . إنها استيقظت ذات صباح فلم تجد الطفلة . . إذ اختفت نهائيًّا . . حتى إنها ظنت أن دسوقى قد أخذها . . ولكنها فوجئت به يحضر فى الموعد نفسه ويسأل عن الطفلة . .

– أى موعد ؟

– أول الشهر كما تعود أن يحضر . .

– وماذا قالت له جارتك ؟

– أخبرتنى أنها خافت أن تقول له إن الطفلة قد اختفت حتى لا يسأل عنها . . وأنكرت عنه كل شىء . .

– ماذا قالت له ؟

– قالت له إنها لا تعرف شيئاً . .

– ألم يسألها عنك ؟

– سألها . . فقالت له . . إننى عزلت ولا تعرف مكانى . .

– لماذا قالت له ذلك ؟

– خافت . .

– وأنت ماذا فعلت ؟

ـ عدت إلى الصعيد . . ولم أعرف شيئاً بعد ذلك . .

ـ ما اسم هذه المرأة التى تسلمت منك الطفلة ؟

ـ مازنة حسن البرعى . .

ـ أين تقيم الآن ؟

ـ ماتت منذ زمن بعيد . .

ـ هل كان أحد فى الحى الذى تقطنين فيه غير مازنة حسن البرعى يعرف محل إقامتك الجديد فى الصعيد ؟

ـ لا . .

ـ لماذا أخفيت عنوانك ؟

ـ زوجى هو الذى طلب منى ذلك . . حتى تنقطع علاقتى بالطفلة نهائياً . .

ـ ولماذا طلب منك ذلك ؟

ـ قال لى بعد أن تزوجنا بزمن . . إنه كان يغار منها . .

ـ كيف كان يغار منها ؟

ـ تسرب إليه الشك بأنها ابنتى غير الشرعية . . وأن دسوقى الذى كان يتردد علىّ هو والدها . .

ووقفت طويلا عند هذه الإجابة . وتريثت كثيراً قبل أن أسألها :

ـ وكيف تزوجك وعنده هذا الشك ؟

ـ اقتنع بخطئه . .

ـ هل كان دسوقى يتردد عليك وأنت متزوجة ؟

ـ وأنا مخطوبة فقط . .

ـ وبعد أن تزوجت ؟

ـ سافرت مع زوجى مباشرة . .

ـ هل كان زوجك يرى دسوقى وهو يتردد عليك ؟

ـ كان يعرف . .

ـ ألم يلتق به ؟

ـ قابله مرة واحدة فى ذلك الحين . .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تزوجنى وسافرت معه . .

ـ ألم تحاولى بعد ذلك . . أن تعرفى شيئاً عن الطفلة ؟

ـ انقطعت عن القاهرة مدة . . ثم نسيتها بعد ذلك . .

ـ تقول الفتاة إنك تعرفت عليها بعد ذلك وكنت تترددين على بيتها . .

ـ تعرفت عليها من سنة فقط . . بعد أن اشتغلت راقصة . .

ـ كم من السنين مرت على انقطاعك عنها . . ثم تعرفك عليها ؟

ـ أكثر من خمس عشرة سنة . .

ـ كيف تعرفت عليها ؟

ـ ذهبت مع زوجى ذات يوم إلى مدينة أسيوط . . وأدخلنى سينما . .
وشاهدتها ترقص فى الفيلم . .

ــ وكيف تعرفت عليها بعد خمس عشرة سنة ؟

ــ الشبه . .

ــ كم كانت سنها عند آخر مرة تركتها فيها ؟

ــ ست سنوات . . أو سبع سنوات تقريباً . .

ــ تقولين إن دسوقى ظل يتردد عليك خمس سنوات فقط ؟

ــ لا أستطيع أن أذكر كم سنها على وجه التحديد . . وإنما ست أو سبع سنوات تقريباً . .

ــ وفرضاً أن سنها كانت سبع سنوات كما تقولين .. فهل فى استطاعتك أن تتعرفى عليها بعد خمس عشرة سنة ؟

ــ أحسست أنها هى فعلا . . وميزتها بعلامة فيها كنت أعرفها . .

ــ ما هى هذه العلامة ؟

ــ حسنة سوداء . . في كتفها الأيمن من الخلف . .

ــ وهل هذا يكفى ؟

ــ والشبه الكبير . . وإحساسى . . وفرحتى عندما شاهدتها ترقص . . ورأيتها شابة وجميلة جمالا رائعاً . .

ــ وماذا فعلت بعد ذلك ؟

ــ انتهزت أول مرة ذهبت فيها إلى القاهرة مع زوجى وعرفت اسمها وذهبت إليها فى بيتها . .

ــ كيف عرفت اسمها . . وعنوان بيتها ؟

ــ كان لزوجى قريب يبيع اللب والسودانى فى إحدى دور السينما . . وذكر له اسم الفيلم . . وهو الذى دلنا على الاسم والعنوان . . ولما عرفناه ذهبت إليها . .

ــ ذهبت إليها بمفردك أم مع زوجك ؟

ــ بمفردى . .

ــ ولماذا لم يذهب زوجك معك ؟

ــ هو الذى أراد ذلك . .

وراودنى شىء . . وواتتنى فكرة . . وبدأت أرى خيطاً جديداً يتراقص أمام عينى . . فمددت يدى وتناولت قلماً . . وكتبت أمراً بالقبض على الزوج . . وترحيله إلى القاهرة تحت الحراسة المشددة . . . حتى لا يتصل به أحد . . ثم أعدت القلم إلى مكانه . . واستأنفت التحقيق معها ثانية . . وسألتها ؟

ــ ولما ذهبت إليها فى أول مرة بعد هذه السنين . . ماذا حدث ؟

ــ أنكرتنى فى أول الأمر . . ثم لما تعرفت علىّ كانت مفاجأة كبيرة لها . . وارتمت فى أحضانى وبكت كثيراً . .

ــ لماذا ؟

ــ لأنها كانت لا تزال تظن أننى أمها . .

ــ وقلت لها الحقيقة ؟

ــ طبعاً لا . .

ـــ لماذا ؟

ـــ أشفقت عليها من الصدمة . .

ـــ أى صدمة ؟

ـــ أن تعرف أنها بنت سفاح . .

ـــ وماذا قالت لك عن تاريخ حياتها بعد تركك لها وهى طفلة ؟

ـــ لم تقل لى شيئاً . .

ـــ كيف هربت ؟

ـــ لم تذكر لى شيئاً ؟

ـــ وأنت ألم تسأليها ؟

ـــ الحقيقة أنى احتقرت نفسى لأنى تخليت عنها وهى طفلة . .

ـــ وكيف احترفت الرقص ؟

ـــ قالت لى إنها صنعة تتعيش منها . .

ـــ ألم تقل لك شيئاً إطلاقاً فى هذا اليوم ؟

ـــ كل الذى طلبته منى أن لا يعرف أحد أنى أمها . .

ـــ ولماذا طلبت منك ذلك ؟

ـــ قالت لى لأن هذا يؤثر عليها فى الوسط الذى تعيش فيه ؟

ـــ وماذا كان قولك ؟

ـــ وافقت . .

ـــ لماذا وافقت ؟

ـ أردت أن أحترم شعورها أولا . . ولأننى فعلا لست أمها . .
ـ كم من الزمن مكثت عندها هذه المرة ؟
ـ يوماً واحداً فقط لأنى سافرت فى اليوم الثانى مع زوجى . . .
ـ هل عرفت عنوانك فى الصعيد ؟
ـ قلته لها . .
ـ هل أعطتك نقوداً ؟
ـ عشرة جنيهات . .
ـ كم مرة ترددت عليها بعد ذلك ؟
ـ خمس مرات . .
ـ وكانت فى كل مرة تعطيك نقوداً ؟
ـ نعم . .
ـ أهى التى كانت تعطيك النقود .. أم أنت التى كنت تطلبين منها ؟
ـ هى التى كانت تعطينى . .
ـ لماذا وأنت لم تطلبى منها ؟
ـ لأننى فقيرة . . وأمها كما تظن . .
ـ كم كانت تعطيك من النقود فى كل مرة ؟
ـ عشرة جنيهات . .
ـ ألم تعطك أكثر من هذا المبلغ فى مرة من المرات ؟
ـ مرة واحدة أعطتنى خمسة عشر جنيهاً واشترت لى بعض الثياب . .

ــ لماذا فى هذه المرة ؟

ــ كان بمناسبة أحد الأعياد . .

ــ أى الأعياد بالتحديد ؟ . .

ــ العيد الكبير . .

ــ تقولين إنك ترددت عليها خمس مرات . . فهل كانت كل مرة فى البيت أو فى غيره ؟

ــ فى البيت . .

ــ كم كنت تمكثين عندها فى كل مرة ؟

ــ يوماً . . أو يومين . . ولكنى مرة مكثت عندها سبعة أيام . .

ــ لماذا ؟

ــ كنت مريضة . . وعرضتنى على طبيب . .

ــ وماذا قالت للطبيب عنك ؟

ــ أنا التى قلت له . .

ــ قلت له ماذا ؟

ــ قلت له إننى خادمة عندها . .

ــ ولماذا قلت له هذا ؟

ــ حتى لا أجرحها . .

ــ ألم تلاحظى أن أحداً كان يتردد عليها أثناء ترددك أنت عليها ؟

ــ لا . . لا . . لم أرَ أحداً قطّ يتردّد عليها . .

ـ ألم تلاحظى أنها كانت على اتصال بأحد . . أو أن أحداً كان يتصل بها ؟

ـ لا . . لم ألاحظ . .

ـ ما هى ملاحظاتك على أخلاقها بصفة عامة ؟

ـ حسنة جدًّا . . وطيبة الخلق . . إلى حد التدين . .

ـ ماذا تقصدين من كلمة تدين ؟

ـ عندما ذهبت معها إلى الطبيب . . كانت تتصدق على الفقراء ورأيتها تضع مصحفاً تحت الوسادة التى تنام عليها . . ولما سألتها عنه . . قالت إنها تتبرك به وتعتبره أنيسها فى وحدتها . .

فأدهشنى منها هذا القول . . وقلت لها وأنا أتأملها :

ـ هل صدقت هذا القول من راقصة ؟

فكان ردها سريعاً جدًّا . . وفى إيمان لا حد له :

ـ طبعاً صدقتها . .

ـ وما الذى جعلك تصدقين إلى هذا الحد ؟

ـ ما رأيته بعينى . . والمصحف الذى كنت فى كل مرة أراه فى مكانه . . وعندنا مثل فى الصعيد يقول «دايما اللى فى الجرة ، يطلع لبرة» .

ـ ما معنى هذا المثل ؟

ـ معناه إذا كان القلب نظيفاً . . فلا يمكن أن تتلوث الشفاه . .

فاندهشت لهذه الحكمة . . تصدر من مثل هذه المرأة الساذجة . .

وصمت لحظات رحت أفكر فيها وفى القضية التى أمامى .. وفى هذه الحفنة من الناس التى يتصرف فيها القدر بمثل هذه القسوة حتى إنه ينصف من يستحق الظلم ويظلم من يستحق الإنصاف . . ويجعلنا فى كثير من الأحيان نعطى ما لله لقيصر . . ونعطى ما لقيصر لله . .

وعدت إلى التحقيق . . وظروف الجريمة . . واسترجعت بعض الأقوال . . ورأيت بعض الخيوط التى بدأت تتوضح أمامى وتنير لى الطريق . . وبعض الخيوط الأخرى التى ما زالت سوداء حالكة السواد .. حتى لتكاد تغرقنى فى ظلمة سوادها . . ولما راجعت الأقوال التى أمامى مرة أخرى . . رأيت أشياء كثيرة . . ما زالت فى حاجة إلى إيضاح . . ولذلك تغاضيت عما أشعر به من إرهاق . . وما تشعر به أيضاً المرأة التى وقفت أمامى ما يزيد على الثلاث ساعات حتى تعبت ولهثت أنفاسها . . وراحت تتصبب عرقاً . . تغاضيت عن ذلك كله . . واستأنفت سؤالها ثانية . . وقلت :

ــ جاء فى أقوالك . . أن دسوقى ظل يتردد عليك بصفة منتظمة ما يزيد على الخمس سنوات . .

ــ نعم . .

ــ هل كانت السيدة التى ذكرت أوصافها تتردد عليك أيضاً ؟

ــ لا . . ولم أرها بعد المرتين كما ذكرت . .

ــ ألم تسألى عنها دسوقى ؟

ـــ سألته . .

ـــ وماذا قال لك ؟

ـــ قال لى فى أول الأمر إنها مريضة .. ثم قال لى بعد ذلك إنها ماتت..

وكدت أدهش لهذا القول . . الذى لو صح لتغير وجه التحقيق . . ولذلك سألتها فى دهشة ؟

ـــ وهل صدقت هذا القول ؟

ـــ فعلا صدقته . . وظللت أصدقه . . إلى أن جاءتنى بنفسها فى الصعيد مع دسوقى .

فانفتحت فجأة أمامى طاقة جديدة .. نظرت منها إلى أشياء كثيرة ، وقلت :

ـــ تقولين إنها جاءت إليك فى الصعيد . . وكان معها دسوقى ؟

ـــ نعم . .

ـــ هل أنت متأكدة من هذا القول ؟

ـــ طبعاً . .

ـــ منذ متى جاءت إليك ؟

ـــ من سنة تقريباً . .

ـــ اذكرى التاريخ بالضبط . .

ـــ فصمتت قليلا ثم قالت :

ـــ من تسعة أشهر . .

ـــ لماذا حددت هذا التاريخ ؟

ــ لأنها جاءتنى فى رمضان . . ورمضان قادم بعد ثلاثة شهور تقريباً . .

ــ هل أنت متأكدة من أنها جاءت إليك فى رمضان ؟

ــ نعم . . لأننى كنت صائمة . .

ــ وهى ؟

ــ الله يعلم . .

ــ هل تناولت فى بيتك طعاماً مثلا ؟

ــ إنها لم تحضر إلىّ فى بيتى . .

ــ أين حضرت إليك إذن ؟

ــ فى المحطة . .

ــ أى محطة ؟

ــ محطة البدارى . .

ــ اذكرى الذى حدث بالتفصيل . .

ــ ذات يوم . . كنت فى بيتى . . فطرق الباب . . ولما فتحت . . وجدتنى وجهاً لوجه أمام دسوقى . .

ــ ماذا كان موقفك ؟

ــ اندهشت طبعاً . .

ــ عندما وقعت عينك عليه . . عرفت من هو ؟

ــ نعم عرفته على الفور . .

ـــ ألم يتغير فيه شيء ؟

ـــ شاب شعره فقط . .

ـــ وهو . . هل تعرف عليك ؟

ـــ نعم . . وقال لى أنا دسوقى . .

ـــ وبعد ؟

ـــ رحبت به . . وطلبت منه أن يدخل . . ولكنه طلب منى أن أصحبه إلى استراحة المحطة . . فذهبت معه . .

ـــ لماذا طلب منك إن تصحبيه إلى استراحة المحطة ؟ . .

ـــ قال لى إن السيدة التى كانت قد جاءتنى من أجل الطفلة معه . . وتنتظرنى هناك . .

ـــ كيف قال لك هذا . . وقد سبق له أن أخبرك بموتها ؟

ـــ قلت له هذا . . فنظر إلى الأرض وقال . . إن الله حليم ستار . . ولما ذهبت معه وجدتها فعلا هى . .

ـــ هل أنت متأكدة من أنها هى ؟

ـــ طبعاً . . وسلمت عليها . . وسلمت علىّ . .

ـــ وهل تعرفت عليها بعد مرور أكثر من خمس عشرة سنة . . كما جاء فى أقوالك ؟

ـــ وحتى بعد خمسين لا بد أن أعرفها . .

ـــ ألم يتغير فيها شيء . .

ـــ طبعاً تقدمت بها السن . . وابيض شعرها . .

ـــ وماذا قالت لك ؟

ـــ كانت تظن أن الفتاة ما زالت عندى . . وكانت تريد أن تراها . .

ـــ وماذا قلت لها ؟

ـــ قلت لها الحقيقة . .

ـــ أى حقيقة ؟

ـــ إننى لما تزوجت . . وتركت القاهرة . . تركتها أيضاً . . ولم أعرف عنها شيئاً . . كل هذه السنين . . إلى أن تعرفت على صورتها أخيراً وهى ترقص فى السينما . .

ـــ وماذا كان شعورها عندما قلت لها هذا ؟

ـــ بكت كثيراً جداً . . وطلبت منى أن تعرف عنوانها فى القاهرة . .

ـــ وهل ذكرت لها عنوانها ؟

ـــ نعم . .

ـــ كيف ذكرت لها العنوان . . وأنت تقولين إن الفتاة تعتقد أنك أمها . . وأنك تخشين عليها من الصدمة ؟

ـــ أثر فىّ بكاؤها . . فأشفقت عليها وأنا وإن كنت لم أنجب إلا أننى أعرف قلب الأم . .

ـــ إذن أنت تقطعين بأنها أمها فعلا ؟

ـــ قلبى كان يحدثنى دائماً بذلك . .

ـــ قلت فى أول التحقيق . . إن حكمك عليها أنها ليست من النساء إياهن ؟

ـــ قد يخطئ الإنسان على الرغم منه . .

ـــ حتى فى شرفه ؟

ـــ الله يعلم بالأسباب . .

ـــ وإذا كانت أمها كما تقولين . . فأين كانت كل هذه المدة ؟

ـــ قالت إنها ظلت كل هذه السنين تبحث عن عنوانى إلى أن اهتدت إليه أخيراً . .

ـــ وكيف اهتدت إليه ؟

ـــ قالت لى إنها عرفته من عم نوفل .. بعد أن خرج من السجن ..

ـــ من عم نوفل ؟

ـــ كان يبيع الخروب والعرقسوس . . على رأس الحارة . .

ـــ ولماذا سجن ؟

ـــ كان يتجر فى المخدرات . .

ـــ وهل كان يعرفك ؟

ـــ كان يعرف كل سكان الحارة . .

ـــ وهى كانت تعرفه ؟

ـــ قالت لى إنها أعطته نقوداً . . وذكرت له اسمى وأوصافى . . وظل يبحث عنى إلى أن عرف اسم زوجى والبلد الذى سافرت إليه . .

ـ هل ذهبت معك فى هذا اليوم إلى بيتك ؟

ـ لا . . وقد سافرت مع دسوقى فى نفس اليوم . .

ـ إلى أين سافرت مع دسوقى ؟

ـ لا أعرف . . ولكن إلى القاهرة طبعاً . .

ـ هل ذهبت إلى الفتاة بعد أن تعرفت على عنوانها ؟

ـ لا أدرى . . فأنا لم أسافر إلى القاهرة منذ هذا التاريخ . .

ـ هل حضر زوجك هذه الواقعة ؟

ـ لا . . وإنما ذكرتها له . .

ـ هل أعطتك نقوداً فى هذا اليوم ؟

ـ أعطتنى خمسة جنيهات . .

ـ لماذا . . ما دامت الفتاة ليست عندك ؟

ـ قالت لى لأننى ذكرت عنوانها . .

ـ هل إذا شاهدت هذه السيدة . . يمكنك التعرف عليها ؟

ـ نعم . . أتعرف عليها . . حتى ولو كانت بين ألف . .

ففتحت درج مكتبى وأخرجت منه مظروفاً كانت به عدة صور لنساء مختلفات . . ومن بينها صورة للمجنى عليها . . وناولتها المظروف . . وطلبت منها أن تخرج صورتها من بين هذه الصور . . وما إن فعلت ورأت صورتها . . حتى انتزعتها من بين مجموعة الصور . . وقدمتها لى وهى تقول مبتسمة وكأنها تزهو بانتصارها :

— هذه هى نفسها السيدة التى أتحدث عنها . .

* * *

اطمأننت إلى هذه النتائج . . وإلى هذه الخيوط الكثيرة التى بدأت أمسك بها فى يدى . . وكان الليل قد انتصف أو كاد . . فاكتفيت بهذا القدر . . وأمرت بإعادة المرأة إلى السجن . . ووضعها فى مكان بعيد عن الفتاة . . بحيث لا تتصل بها أو حتى تراها . . ثم استدعيت الفتاة إلى مكتبى قبل أن تنصرف . . وكانت شاحبة مضطربة . . مقرحة العينين من أثر بكاء طويل . . وكانت قلقة . . تريد أن تعرف مصيرها . . فطمأنتها وأفهمتها أن الأمر لا يزيد على بعض الإجراءات التى يجب أن تتخذ . . وسألتنى . . هل استدعيت أمى . . واستشعرت مرارة لهذا السؤال . . . وأشفقت عليها من قلبى . . إذ ما زالت تظن أن هذه المرأة هى أمها فعلا . . وتذكرت قول المرأة فى التحقيق من أنها أشفقت عليها من ذكر الحقيقة . . لأنها خشيت عليها من الصدمة . . وكأننى أنا الآخر أشفقت عليها من الصدمة . . ولذلك قلت لها . . إنه فعلا قد تم القبض عليها . . ولكنى لم أسألها بعد . . وكنت قد أرجأت عملية المواجهة حتى يتم القبض على الزوج . . وسؤاله . . وأواجه الثلاثة بعضهم ببعض. . المرأة والزوج والفتاة . .

ووجدتنى وهى تنصرف أزيد من طمأنينتها مرة أخرى كما وجدتنى أيضاً أطلب لها طعاماً معيناً . . وأعطى لأحد الحراس خمسة جنيهات ،

لتكون تحت إذن الفتاة تطلب منها ما تريد من طعام مدة التحقيق . . ومع أن هذا قد يخالف بعض اللوائح . . إلا أنني باطمئنان وراحة بال وضمير . . تغاضيت عما فى هذا من مخالفات . . ولما انصرفت . . مكثت فى مكتبى بعض الوقت . . راجعت فيه بعض صفحات التحقيق . . ومطابقة أقوال الفتاة لما قالته هذه المرأة .. وخصوصا فى ما يتعلق بالمجنى عليها .. وفى ما كان خاصًّا بدسوقى بالذات . . الذى أصبح هو مفتاح كل شيء فى هذه القضية . . وفكرت فى أن أتصل بنيابة الغربية . . وأطلب من الزميل وكيل النيابة الذى حقق معه تحت إشرافى أول مرة . . أن يقبض عليه فوراً .. ويرسله إلىّ تحت الحراسة الشديدة .. ولكنى لم أستصوب هذا التصرف . . وفكرت فى طريقة أخرى . . استعملتها كثيراً فى بعض التحقيقات . . ونجحت معى إلى حد كبير . . وهى أن أدعوه لزيارتى .. فى القاهرة بحجة أننى أريد أن أراه . . ولا سيما أننى أظهرت له إعجابى بشخصيته عندما رأيته أول مرة . . وسوف يصدق هذا بطبيعة الحال . . وعندما يجيء إلى مكتبى . . أفاجئه بالحقائق التى ستأخذ بخناقه فجأة . . ولا تجعل له فرصة يهيئ فيها ذهنه . . للمغالطة . . والإنكار وعدم ذكر الحقائق . .

٥

عدت إلى بيتى فى هذه الليلة . . وظروف هذه القضية تستحوذ على تفكيرى كله . . والأقوال التى استمعت إليها . . تدور فى ذهنى . . وترن فى أذنى . . وظروف هذه الجريمة التى ما زالت حتى الآن غامضة . . تتراقص خيوطها أمام عينى . . فقد أصبح من المقطوع به أن المجنى عليها هى أم الفتاة . . وأنها ولدتها سفاحاً . . وأن الفتاة لم تعرف ذلك إلى الآن . . وأن الأم لظرف ما لم تذكر هذا للفتاة . . وأيضاً لم تتخل عنها . . بدليل أنها ظلت تبحث عنها كل هذا الزمن الطويل . . إلى أن التقت بها فى آخر الأمر تعمل راقصة . . فذهبت إليها تحت زى المعجبة . . والمخلصة . . والصديقة . . حتى اطمأنت إليها الفتاة . . ولما اطمأنت إليها . . حاولت كما جاء فى أقوال الفتاة . . أن تجعلها تمتنع عن الرقص — حتى ولو تورثها كل ما تملك — وهذا دليل قاطع على أنها أمها فعلا . . .

. . . ولكن إذا كانت أمها فعلا — كما هو واضح حتى الآن — فما الذى منعها من أن تعترف لها بالحقيقة ؟ هل خشيت من أحد . . وممن تخشى إذا كانت كما ظهر من التحقيق . . لا أهل لها . . ولا أقارب . . ولا حتى أصدقاء . . وهل كانت تخشى مثلا الرجل الذى ارتكب معها هذا الإثم . . والذى هو والد الفتاة . . وإذا كانت تخشاه . . وتخشاه

إلى هذا الحد . . فلماذا لم تظل علاقتها به قائمة . . ولماذا لم تتزوجه مثلا . . أو على الأقل يتردد عليها . . أو تتردد هى عليه . . وثابت من التحقيق حتى الآن أنه لا أحد كان يتردد عليها . . ولم تتردد هى على أحد . .

وإذا كانت الجريمة وقعت فعلا بسبب الفتاة . . باعتبارها ثمرة العار وعنوانه . . فلماذا لم تقتل الفتاة . . ووسائل قتلها مهيأة للجانى تماماً . . لأنها هى الوسائل نفسها التى هيأت له ارتكاب الجريمة . . باعتبار أن الفتاة كانت تتردد على البيت نفسه . . وتبيت فيه . . بل فى المكان نفسه الذى ارتكب فيه القاتل جريمته . . وإذا أخذنا بهذا القول . . وقطعنا بأن الجريمة وقعت بسبب الفتاة . . فمن يكون مرتكبها . . والتحقيق حتى الآن . . وبرغم الحقائق البالغة الأهمية التى أسفر عنها التحقيق . . لم يرسل حتى بصيصاً واحداً . . نستطيع أن نستدل به على الجانى . .

وتذكرت دسوقى . . وموقفه الغامض حتى الآن . . وكيف أنه كما أشار التحقيق يكاد يحمل مفتاح السر الحقيقى للجريمة . . ووقف ذهنى عند هذا الرجل طويلا .. ووجدتنى تلقائياً أسأل نفسى هذا السؤال :

ـــ لماذا لا يكون دسوقى هو القاتل . . ولماذا أيضاً لا يكون هو الأب غير الشرعى للفتاة ـــ وكثير من صفحات التحقيق تكاد تشير إلى هذا ـــ ولكن إذا كان هو فعلا . . فلماذا قتلها ؟ . . إن الثابت حتى الآن أن علاقته بالمجنى عليها ظلت ـــ كما ورد فى التحقيق على لسان الفتاة ولسان المرأة أيضاً ـــ على أحسن حال . . من الود . . والإخلاص . . والتفانى

فى خدمتها . . وما دام الأمر كذلك . . فلماذا لم يتزوجا . . ويعترفا ببنوة الطفلة التى هى ابنتهما فعلا ؟ ؟ وهل منعهما شىء من الزواج . . هل منعهما مثلا . . ذلك الفارق الاجتماعى بين الاثنين . . هو كخادم . . وهى كمخدوم . . واكتفيا بأن تظل العلاقة بينهما سرًّا . . وأن لا يذكرا شيئاً للفتاة . . وأن الذى ساعدهما على هذا . . على استمرار هذه العلاقة بينهما كل هذه السنين . . هو هذا الفارق الاجتماعى بين الاثنين . . هذا الفارق الذى هو بقدر ما أبعد عنهما الشبهات . . وطد العلاقة بينهما سرًّا . . وجعلها قائمة بينهما كل هذه السنين الطوال .

وما إن فكرت فى هذا . . واستوعبته تماماً . . ورجحت عندى كفته حتى انبثق فجأة أمام عينى خيط باهر النور . . جعلنى أعتقد اعتقاداً لا يرقى إليه الشك . . فى أن القاتل هو دسوقى . . وأن الجريمة لم ترتكب بسبب الفتاة أو غيرها . . وإنما ارتكبت بسبب الغيرة . . إذ اكتشف دسوقى . . أن للمجنى عليها عاشقاً غيره . . هو الرجل الذى شاهدته الفتاة يتسلل من مخدع المجنى عليها فى الليل . . ويؤيد هذا القول ما جاء على لسان الفتاة من وصف دقيق للحادث . . عندما ضبطت المجنى عليها ومعها رجل فى مخدعها . . والحال التى كانت عليها المجنى عليها . . قميص النوم الذى كانت ترتديه . . وارتباكها الزائد عندما اكتشفت الفتاة أمرها . وضبطتها فى حال تكاد تشبه التلبس .

وكنت قد وصلت إلى بيتى فى تلك الليلة . . وكأن البيت الذى نقطنه

قصراً على النيل . . كانت قد ورثته أمى عن جدها . . وكانت أبهاء القصر وحديقته الواسعة مكتظة بالناخبين من أهل الدائرة . . التى كان أبى مرشحاً لها لعضوية الشيوخ . . وكان يبنى على نجاحه فى هذه الانتخابات الكثير من الآمال العراض . . ولذلك كان اهتمامه بهذه المعركة زائداً . . يشغل كل وقته . . وكل تفكيره . . وكنت متعباً جداً . . وأشعر بإرهاق شديد . . فقد ظللت ما يزيد على اليومين فى تحقيقات دائمة . . ولذلك فكرت أن أتسلل من الباب الخلفى للقصر . . ولا أدخل من باب الحديقة . . حتى لا أشارك فى هذا النفاق الاجتماعى . . وأظهر بغير مظهرى . . كما يتطلب حال الانتخابات دائماً . . فأنت فيها مضطر إلى أن تعامل السفلة وقطاع الطرق ، كما لو كانوا من الأنبياء والرسل . . كما أنك لاتجد فيها من يحتفى بك . . ويشيد بفضلك . . ويعانقك بحرارة . . إلا وهو لك من أشد الخصوم . . ولذلك عندما هبطت من السيارة أردت أن أتسلل خفية من جانب السور حتى لا يرانى أحد ، غير أننى فى أثناء ذلك سمعت صوت أحد الخطباء . . فوقفت أستمع إليه . . وقد أطربنى كثيراً إشادته بأبى . . وما أسبغ عليه من صفات ووصفه من وصف . . مما جعلنى أكاد من الزهو أهتز فى مكانى طرباً . . ومع ذلك عندما انصرفت . . وجدتنى أسأل نفسى . . أهذا الخطيب مأجور . . أم هو مقدر ؟ ! وهل هو يقول هذا من قلبه . . وبدافع الحقيقة . . أو هو يقوله من جيبه . . وبدافع النقود التى تكتظ بها حافظته ؟ !

ومع ذلك لم أهتد إلى جواب . . ذلك لأننا أحياناً لا نستطيع أن نفرق بين الزيف والأصل .. ولا بين الصدق والكذب .. إذ فى كثير من الأحايين يكون طلاء الزيف أشد إقناعاً . . وتكون حرارة الكذب أشد تأثيراً . .

ثم انصرفت إلى الداخل . . وصعدت مباشرة إلى الطابق العلوى من القصر ، حيث كانت والدتى فى غرفتها تعانى آلام الربو الذى أخذت أزمته تشتد بها فى تلك الأيام . . وكنت من ثلاثة أيام لم أرها . . فجلست معها حيناً . . وأطلعتنى على سير المرض . . ونتيجة الدواء . . وكيف أنها بدأت تشعر بتحسن ملموس . . غير أن الذى كان يضايقها هو انشغال أبى فى معركة الانتخابات . . والمتاعب التى يلاقيها فى سبيل ذلك . . والمبالغ الباهظة التى ينفقها . . حتى إنه أنفق إلى الآن — ولما تنته المعركة بعد — ما يزيد على العشرة آلاف من الجنيهات . وكانت أمى متأثرة لهذا تأثراً كبيراً . . مما زاد فى أمراضها . . ومع ذلك لم أرد أن أقول لها شيئاً لأننى لم أشأ أن أقول لها الحقيقة التى أعرفها . . عن أبى . . وهى أنه على استعداد لأن يضحى بكل ما يملك فى سبيل الحصول على مجد جديد . . فقد كان طموحاً . . وكان طموحه لا يقف عند حد . . ولذلك فهو على استعداد الآن لأن ينفق مئات الألوف من الجنيهات . . لا عشراتها . . وأن يضحى بكل شىء حتى بصحته . . كل ذلك فى سبيل نجاحه فى هذه المعركة. لم أشأ أن أقول لوالدتى شيئا من هذا . . ولذلك غيرت دفة الحديث . . ورحت أتحدث إليها عن المرض ثانياً . . والمريض يلذ له دائماً أن يتحدث

عن المرض والطب والدواء . . وما إلى هذا من أشياء يستشعر هو أهميتها قبل غيره . . ومكثت أتحدث معها بعض الوقت . . وكان أبي قد علم بوجودى فى البيت . . وبأننى فى الطابق العلوى . . فاستدعانى إليه فوراً فى الحديقة ليقدمنى إلى البارزين من أهل الدائرة . . أو على الأصح يقدمهم إلىّ . . فقد كان يفخر بى كثيراً . . . ويزهو بمركزى فى القضاء وبمنصبى كأحد رجال الضبط والربط فى الحكومة . . وكان هذا كله من غير شك يقوى من مركزه كوالد لى عند هؤلاء السذج من الناس .

وبرغم إرهاقى الشديد فقد لبيت طلبه وذهبت إليه ووقفت على قدمى ما يزيد على نصف الساعة . أصافح هذا وأعانق ذاك وأبتسم لهذا الثناء وأطرب لهذا المديح وأصفق لهذا الخطيب وأستعيد أبيات هذا الشاعر . . حتى كدت أنا الآخر أشارك مشاركة فعلية فى هذا النفاق الكبير ، لولا أننى وجدت أمامى مصادفة . . الشيخ مروان عمدة القرية التى يتبعها دسوقى الذى سبق سماع شهادته فى القضية . . والذى هو باعتبار ما سيكون — إذا صدق حدسى — المتهم الأول فى القضية . . وقلت هذه فرصة أستدرج فيها العمدة دون أن يفطن لعلنى أعرف ما يهمنى معرفته عن دسوقى قبل أن أقبض عليه وأسأله رسمياً ، أو أوجه إليه تهمة القتل .

وانتهزت فرصة حفاوة العمدة بى وسعادته بالجلوس فى حضرتى واسترسلت معه فى الحديث . . وسألته عن حال المحصول الزراعى هذا العام . . وما سببته الإصابات فى محصول القطن هذه السنة . . ثم سألته عن حال

الأمن فى الأرياف وأظهرت له إعجابى به وتقديرى له . . لقلة الحوادث فى منطقته . . وكثرتها فى المناطق الأخرى ـ مع أن العكس هو الصحيح ـ فزاد هذا فى طربه وسعادته مما جعله يكاد يرقص فرحاً . . وهكذا ظللت به حتى جعلته هو الذى يطرق حديث القضية . . ويسألنى عما تم بشأنها . . فقلت له دون مبالاة . . وكأننى أتحدث عن شىء لا أهمية له . . إنها أوشكت على الانتهاء .. وسوف تقيد ضد مجهول . . فقد ثبت من التحقيق تعذر معرفة الجناة . . فراح يترحم على المجنى عليها . . التى كانت ـ كما قال ـ المثل الأعلى للأخلاق الطيبة والسجايا الكريمة. ولما سألته هل كان يعرفها عن قرب ؟ . . قال : إنه كان يسمع عنها فقط . . لأنها كانت تقيم دائماً فى القاهرة . . وإنما حدثه عنها كثيراً دسوقى ، الذى كان على اتصال دائم بها . .

وجرنا ذكر اسم دسوقى بطبيعة الحال إلى التحدث عنه كثيراً . وراح الرجل يمتدحه . . ويثنى على أخلاقه ويعدد مناقبه وسجاياه وإيمانه الذى لا حد له ووفاءه الذى كان يشبه وفاء الملائكة للمجنى عليها . . وكيف أنه كان لها أباً وأخاً وخادماً . . وكيف أن حزنه ما زال عليها إلى الآن قائماً . . وبكاءه عليها لا ينقطع . . وكان أبى قد حضر طرفاً من هذا الحديث فأمن على القول . . وقال إنه وإن كان لا يعرف دسوقى معرفة مؤكدة أو تربطه به صلة . . إلا أنه سمع عنه الكثير من الثناء . . وانتهزت أنا هذه الفرصة المواتية . . وألقيت بالحجر الذى أريد . . ورحت

أنا أيضاً أثنى عليه وعلى ما ظهر لى من أخلاقه الطيبة أثناء سؤاله فى القضية . وكيف أنى أحببت فيه الكثير من الصفات . . منذ ذلك اليوم . . وكيف أنه حاول أن يكرمنى أنا بالذات كرماً حاتمياً عندما انتقلت إلى بيته أنا والزميل وكيل نيابة الغربية الذى كان يحقق معه بحضورى . . وأن يقدم لنا الفطير والزبد والدجاج وطواجن الفريك المحشوة بالحمام . . مما يجعلنى الآن أفكر فى دعوته لزيارتى فى القاهرة . . ولما أظهرت صدق هذه الرغبة تطوع العمدة سريعاً بتنفيذها . . وأخبرنى بأنه بمجرد وصوله إلى القرية فى مساء الغد . . أو صباح بعد غد على الأكثر . فسوف يبعث به إلىّ . . وسوف يسره هذا ويسعده كثيراً . . بل يزيده فخراً . . وشعرت باطمئنان زائد إلى هذه الوسيلة التى سأستدرجه بها إلىّ دون أن يتسرب إليه أدنى شك فى السبب الذى أدعوه من أجله . . ثم تحدثنا بعد ذلك بعض الأحاديث العابرة إلى أن انفض ذلك السامر الانتخابى الكبير . . وانطفأت شعلة النفاق الاجتماعى التى تشتعل فى هذه المناسبات . . وذهبت لتتزود بالوقود . . لتشتعل وتضىء فى الليلة القادمة . . وجلست مع أبى الذى كان بادى التعب والإرهاق إلى حد كبير . . بعض الوقت فى الصالون . . ربما يشرب فنجاناً من القهوة . . فقد كان من عادته أن يشرب القهوة لينام . . وكنت أقدر فيه هذه الأعصاب . . وتطرق بنا الحديث فى هذا الوقت القصير إلى أمور عدة . . تحدثنا عن والدتى ومرضها . . وعلة الربو التى بدأت تأخذ بخناقها . . وتحدثنا عن الانتخابات

ومتاعبها . . ومركز المنافس لأبى من حيث القوة والضعف . . والأمل الكبير الذى يبنيه أبى على الحفل الانتخابى الضخم الذى سيقيمه قريباً . . ويحضره زعيم الحزب الذى ينتمى إليه .

ثم تطرق بنا الحديث إلى عملى وبعض القضايا التى أهتم بها . . وسألنى عن ظروف بعضها وملابساته . . فقد كان دائماً يهتم بعملى ويتتبع خطوات نجاحى . . وكنت أحياناً أشرح له بعض الدقائق . . وكان هو يبدى لى بعض الآراء الصائبة . . التى كثيراً ما كنت آخذ بها . . وأذكر أنه ذات مرة وجه نظرى إلى نقطة كانت غائبة عنى . . فى إحدى القضايا السياسية الهامة التى كان لها بعض الدوى فى ذلك الحين ، وفعلا كانت هى نقطة التحول الخطير فى القضية . . والثقب الذى نفذنا منه إلى الحقيقة كاملة . ثم تطرق بنا الحديث إلى هذه القضية بالذات . . فذكرت له الحقائق الغريبة التى وصل إليها التحقيق حتى الآن . . وكيف أنه اتضح أن الفتاة التى قبض عليها لم تكن ابنة هذه المرأة التى ظلت كل هذه السنين توهمها بأنها أمها . . وأنها ابنة سفاح . . وأن جميع الخيوط بدأت تتجه الآن . . وتنتقل من الشك إلى مرتبة اليقين بأنها ابنة المجنى عليها . . وأن القاتل هو دسوقى . . وفرح أبى كثيراً لهذه المعلومات التى وصلت إليها . . ولكنه اندهش دهشة كبيرة . . إذ كيف يرتكب دسوقى هذه الجريمة الفظيعة . . وهو الذى نقول عنه ما نقول ونصفه بما نصف . . وما زالت دموعه على القتيلة لم تجف حتى اليوم . . فأفهمته بأن كثيراً من الذئاب إذا تأصلت

فيها جذور الضراوة ترتدى زى الحمل . . فازدادت دهشته . . وسألنى فى استغراب كثير . . لماذا والأمر كذلك لم أقبض عليه حتى الآن . . بل لماذا كنت أتحدث عنه هذا الحديث مع العمدة . . فأفهمته بنظريتى . . فلم يقتنع بها . . وطلب منى سرعة القبض عليه فوراً . . ولكنى لما شرحت له نظريتى وأضيف أنها نجحت معى فى أكثر من قضية . . ومع أكثر من متهم . . انصرف وهو يدعو لى بالتوفيق فى كل خطواتى . .

٦

في الصباح . . ذهبت إلى مكتبي . . واستأنفت التحقيق في القضية . وكان زوج نظيرة الذى ورد ذكره في التحقيق قد قبض عليه .. وتم ترحيله . فاستدعيته إليّ في الحال . . ولما مثل أمامي رأيته رجلا غليظ القلب . . تتسم نظرته بالقسوة والعنف . . وله تجاعيد منطو بعضها على البعض الآخر . . وملتوية أشبه بالتواء جسم الأفعى . . الذى يكمن وراءه الشر . . ولذلك انتظرت منه الكثير من المتاعب . . ولكي أحطم فيه هذه الغلظة ، وأحد من قسوة هذه النظرات التي تنبعث من عينيه الجامدتين . . قلت له في غلظة وأنا أنظر إليه قبل أن أبدأ معه التحقيق ، وأدوّن أقواله في المحضر :

ــ أنت متهم بجريمة قتل . .

فلم يحرك فيه هذا القول ساكناً . . أو حتى تطرف له عين . . وإنما قال وهو يبتسم في هدوء لا حد له :

ــ أما إنني متهم بجريمة قتل . . فهذا شيء . . وأما إنني لم أقتل في حياتي حتى دجاجة . . فشيء آخر . .

وأعجبني منه هذا الرد الذى ينطوي على سخرية لاذعة . . وفي الوقت

نفسه ينم عن اطمئنان عجيب . . ثم بدأت معه التحقيق . . وبعد أن سألته عن اسمه وسنه ومحل إقامته . . وبعض أسئلة أخرى سريعة قلت له :

ـ هل أنت متزوج من نظيرة أحمد البسيونى ؟

ـ نعم .

ـ منذ متى تزوجتها ؟

ـ لا أدرى . . وإنما هى سنين طويلة . .

ـ اذكر التاريخ على وجه التحديد . .

فقال وهو يخرج من صدر ثوبه . . حافظة جلد كبيرة لها عدة أزرار نحاسية لامعة . . ويخرج منها ورقة . . ويقدمها لى :

ـ هذه قسيمة الزواج . .

وأدهشنى أنه يحملها فى جيبه . . فقلت :

ـ هل أنت تحمل هذه القسيمة فى جيبك دائماً ؟

تحملها فى جيبك الآن ؟

ـ احتفظت بها معى عقب القبض على زوجتى . .

ولما قارنت التاريخ والوقائع التى ذكرتها زوجته . . ووجدتها مطابقة تماما . . قلت :

ـ هل كنت تعلم سبب القبض على زوجتك ؟

ـ طبعاً . .

ــ ما هو ؟

ــ علاقتها بهذه الفتاة التى تشتغل راقصة .

ــ فقط ؟

ــ وعلاقتها أيضاً بتلك السيدة التى وجدت قتيلة فى بيتها . .

ــ من أين عرفت هذه المعلومات ؟

ــ من زوجتى . . وأنا أيضاً كنت أعرف بعض المعلومات . .

ــ ما هى هذه المعلومات التى تعرفها ؟

ــ أن زوجتى كانت تتبنى هذه الفتاة وهى طفلة . . وأنها كانت تعرف القتيلة .

ــ هل كانت زوجتك تتبنى الطفلة . . أو هى ابنتها فعلا ؟

ــ لا . . لا . . كانت تتبناها .

ــ قالت زوجتك فى التحقيق .. إنك اتهمتها يوماً ببنوة هذه الطفلة ..

ــ شككت فقط . .

ــ ما هو سبب هذا الشك ؟

ــ الحقيقة أنى لما وجدت هذا الرجل الريفى الذى كان يتردد على زوجتى ــ قبل أن أعقد عليها ــ ليعطيها بعض النقود لتنفق منها على الطفلة . . ووجدت حبه الزائد للطفلة وعطفه عليها . . وبكاءه أحياناً إذا رآها . . ورأيت أيضاً تعلق زوجتى الزائد بالطفلة ــ شككت فى الأمر .

ــ شككت فى ماذا ؟

ـ فى أن الطفلة ابنة زوجتى من هذا الرجل .

ـ ما اسم هذا الرجل ؟

ـ دسوقى .

ـ ما هى أوصافه ؟

ولما وصفه وصفاً دقيقاً . . يطابق الحقيقة . . قلت :

ـ وصفت زوجتك فى التحقيق دسوقى بأنه كان على شىء كثير من التقى والتدين والخلق الحسن . . وأنه كان يصلى دائماً .. فكيف يتسرب إليك الشك . . إذا كان كذلك فعلا ؟

ـ الحقيقة أنا لا أطمئن كثيراً . . لبعض الذين يتظاهرون بالتقوى والصلاح . . . وكثرة الصلاة . .

ـ هل كانت زوجتك كذلك ؟

ـ لا . .

ـ لماذا شككت فيها ؟

ـ هكذا حدثتنى نفسى . .

ـ ولماذا لم تطلب من زوجتك التخلى عن الطفلة ؟

ـ رفضت . . وكنت لم أعقد عليها بعد .

ـ ألم تذكر لك سبب الرفض ؟

ـ كانت فرحة جداً بالثلاثة جنيهات التى كانت تأخذها فى كل شهر . . والحقيقة أن هذا المبلغ فى ذلك الحين كان ثروة كبيرة . .

– قلت إنك كنت تشك . . فما الذى أزال شكوكك ؟

– الحقيقة . . والأحاديث التى كنت أستمع إليها خلسة تدور بين زوجتى ودسوقى كلما جاء إليها . .

– تقول الحقيقة . . فما هى الحقيقة ؟

– تأكدى من أن زوجتى لم تتعرف على دسوقى إلا بعد أن عثرت على الطفلة فى الطريق بما يزيد على الشهر .. وبعد أن تعرفت على القتيلة ، وأن دسوقى لم يكن أكثر من رسول بين زوجتى وبين أم الطفلة . .

– من هى أم الطفلة ؟

– الله يعلم . .

– تقول أم الطفلة . . معنى ذلك أنك تعرفها . .

– أعتقد أنها هى السيدة التى كانت تتردد على زوجتى فى أول الأمر من أجل الطفلة . .

– ما الذى جعلك تعتقد ذلك ؟

– الأحاديث التى أسمعها تدور بين زوجتى ودسوقى . .

– ما هى هذه الأحاديث ؟

– عطف دسوقى على تلك السيدة وحديثه عنها بالخير دائماً . . وكيف أنها لم تكن لتستحق هذا العذاب الذى تعيش فيه من أجل هذه الطفلة . وقوله دائماً كلما سألته زوجتى عن شىء . . إن الله حليم ستار . . وربنا يجازى أولاد الحرام . .

ــ وهل هذا كاف ليجعلك تعتقد هذا الاعتقاد؟

ــ طبعاً . . وإلا فلماذا سعت إليها وتعرفت على مكانها .. وظلت تمد زوجتى بالنقود . . من أجل الطفلة كل تلك السنين ؟

ــ إذا كانت ابنتها فعلا . . فلماذا تخلت عنها ؟

ــ ظروف . .

ــ قالت زوجتك فى التحقيق . . إن هذه السيدة قالت لها إن الطفلة ابنة قريبة لها وليست ابنتها . .

ــ طبعاً تقول ذلك . . .

ــ ما الذى يجعلها تقول ذلك ؟

ــ الظروف . .

ــ ما هى هذه الظروف ؟

ــ الله يعلمها . .

ــ هل هذه فقط الأسباب التى أزالت شكوكك ؟

ــ نعم . .

ــ وهل تظنها كافية لتزيل شكوكك ؟

ــ طبعاً . . والدليل أننى عندما عقدت على زوجتى . . وطلبت منها أن تتخلى عن الطفلة . . تخلت عنها نهائيًّا . .

ــ ولماذا لم تكن قد فضلتك كزوج . . على الطفلة كابنة ؟

ــ ليس فى الوجود ما يفضل الضنى . . أو يجعلنا نتخلى عنه . .

– إذن لماذا تخلت تلك السيدة عن طفلتها . . وألقت بها فى الطريق ؟
– الشرف فقط . . هو الأغلى ثمناً . .
– أى شرف . . وهى قد ولدتها سفاحًا ؟
– الله يعلم بالأسباب . .

وصمت لحظات . . أستوعب فيها هذا القول . . وأتخيل هذا الصراع الجبار الذى يقوم بين الإنسان وشرفه . . وبين الإنسان وفلذة كبده . . وما هى قوة تلك الأسباب التى تدفعنا إلى التطاول على هذه القدسيات التى تنبض فى دمائنا حتى تجعلنا نلقى بفلذات أكبادنا على الأرض . . وندوسها بالأقدام . . وتجعلنا نبيع بالثمن البخس أغلى ما فى حياتنا .. وهو شرفنا – كما يقول هذا الرجل – وكدت أسترسل فى هذه الهواجس .. وأنسى ما أنا فيه . . والرجل الذى أمامى ، لولا حركة بدرت فى الغرفة فأيقظتنى وأعادتنى إلى ما أنا فيه وجعلتنى أستأنف أسئلتى له . . فقلت بعد أن رجعت إلى بعض صفحات التحقيق :

– هل شاهدت الطفلة . . بعد أن كبرت واشتغلت راقصة ؟
– لا . . لم أشاهدها إلى الآن . . ومنذ أن كانت طفلة فى الثالثة أو فى الرابعة من عمرها . .
– تقول زوجتك إنك شاهدتها ترقص فى أحد الأفلام . .
– نعم . . وهى التى تعرفت عليها . .
– وكيف تعرفت عليها ؟

ــ بالشبه . . وبحسنة كانت فى كتفها . . وقد تحقق أنها هى فعلا . . عندما حضرت زوجتى إلى القاهرة . . وتعرفت على عنوانها .. وذهبت إليها .

ــ كيف تعرفت على عنوانها ؟

ــ أنا الذى تعرفت عليه .

ــ ممن ؟

ــ أحد أقاربى . . وهو يبيع اللب والسودانى فى إحدى دور السينما .

ــ ولماذا لم تذهب إليها مع زوجتك ؟

ــ الحقيقة أنا رجل صعيدى . . والشرف عندى له قيمته .

ــ وما دخل الشرف فى هذا ؟

فقال الرجل محتداً . . وفى صوته غلظة . . وكأنه يؤنبنى :

ــ كيف لا دخل للشرف . . وهى ابنة زنا . . وراقصة ؟

ــ لكن كيف سمحت لزوجتك بأن تذهب إليها ؟

فانخفض صوت الرجل . وقال فى خجل كثير . . وهو ينظر إلى الارض ، وكأنه يؤنب نفسه هذه المرة :

ــ الحقيقة . . أنا لا أعرف لماذا فعلت هذا . .

ولما أحسست بخجله حقيقة . . أشفقت عليه . . ووجهت إليه سؤالا آخر . . وقلت :

ــ هل شاهدت تلك السيدة التى كانت تتردد على زوجتك ؟

ــ شاهدتها مرة واحدة . . عندما جاءت إلى زوجتى فى البدارى . .

ــ ما هو تاريخ ذهابها إلى زوجتك فى البدارى ؟ !

ــ لا أذكر .

ــ تذكر . .

ــ سنة تقريباً . .

ــ قالت زوجتك تسعة أشهر . .

ــ هى أصدق . .

ــ لماذا ؟

ــ النساء دائماً أقدر على حساب الأيام . .

ــ سنة . . أم تسعة أشهر ؟

ــ تسعة أشهر . . وقد تذكرت الآن .

ــ تذكرت ماذا ؟

ــ أنها جاءت إلى زوجتى فى رمضان . .

ــ هل كانت وحدها . . أو معها أحد ؟

ــ كان معها دسوقى . .

ــ ماذا كان شعورك عندما شاهدتهما معاً ؟

ــ من أى ناحية ؟

ــ قلت فى التحقيق . . إنك تشك فى أن السيدة المذكورة هى أم الطفلة وأن دسوقى هو والدها . .

ــ الحقيقة . . تحول شكى إلى يقين . .

ــ ما الذى جعلك تؤمن بهذا ؟

ــ الحب . . والحنان . . والعطف المتبادل بين الاثنين . . والمعاملة التى كان يعاملها كل منهما للآخر . . لم تكن أبداً معاملة خادم لمخدوم .. وإنما معاملة أهل أو أصدقاء . . وغير ذلك . . الفرحة الزائدة التى كانت تتألق فى عين الاثنين عندما ذكرت لهما زوجتى عنوان الفتاة فى القاهرة .

ــ ألم تلاحظ أيهما كان أكثر فرحًا ؟

ــ هى طبعاً . . لأنها لم تملك شعورها . .

ــ ماذا فعلت ؟

ــ احتضنت زوجتى . . وقبلتها . .

ــ ودسوقى ؟

ــ فرح أيضاً . . ولكن فرحته كانت أقل . .

ــ لماذا ؟

ــ لأنه رجل . . والرجل يستطيع أن يكبت شعوره . .

ــ ولكنها ابنته أيضًا كما تقول ؟

ــ ولكنها أيضاً ابنة حرام . .

وكأننى نسيت ذلك .. لأننى تألمت .. وعاودنى إحساس بالعطف الشديد على الفتاة .. ولذلك صمت بعض الوقت ..ثم قلت لأنتهى من استجوابه :

ــ لماذا جاءت المجنى عليها ومعها دسوقى إلى زوجتك فى البدارى من تسعة أشهر ؟

ـــ لتتعرف منها على عنوان الفتاة .

ـــ وأين كانت كل هذه السنين ؟

ـــ قالت إنها كانت تجهل عنوان زوجتى . .

ـــ ومن الذى دلها عليه ؟

ـــ قالت إنه رجل كان يبيع الخروب والعرقسوس فى القلعة . . وكان فى السجن وخرج منه . .

ـــ لماذا دخل السجن ؟

ـــ سمعتهم يقولون إنه كان يتجر فى المخدرات . .

ـــ هل كانت لك علاقة به ؟

ـــ لا ولم أعرفه . . ولم تكن لى به أية علاقة . .

ـــ هل كان يعرف زوجتك ؟

ـــ طبعاً . . وكان يقطن معها فى حى واحد . . وبائع العرقسوس كالمسحراتى يعرف بيوت الحى بيتاً بيتاً . . وأشخاصه شخصاً شخصاً . .

ـــ هل كان هذا الرجل يعرف أن زوجتك انتقلت معك إلى البدارى ؟

ـــ كنت أعتقد أنه لا يعرف عنوانها . .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأننى نبهت على زوجتى ألا تذكر عنوانها لأحد إطلاقاً . .

ـــ لماذا نبهت عليها بذلك ؟

ـــ لأننى كنت أريد أن أقطع علاقتها بالطفلة نهائياً . .

ــ ولماذا كنت تريد ذلك ؟
ــ لأنها ابنة دنس . . وأنا لا أريد أن أدنس نفسي . . .
ــ وما ذنب الطفلة ؟
ــ البذرة التي تنبت في العفن . . تظل رائحتها عفنة، حتى ولو أثمرت الورد . .

فأعجبني هذا المثل يصدر من مثل هذا الرجل الريفي الساذج الذي شعرت نحوه باحترام زائد وقلت له :

ــ إذا شاهدت صورة هذه السيدة فهل تستطيع أن تتعرف عليها ؟
ــ طبعاً . .

فقدمت له نفس المظروف الذي كنت قدمته إلى زوجته والذي يضم عدة صور لنساء مختلفات من بينها صورة القتيلة . . وما إن فضه الرجل وتفحص الصور حتى تعرف على صورة المجني عليها . . وقدمها إلىّ . . وبذلك انتهت أقواله . . فاستدعيت زوجته نظيرة أحمد البسيوني وواجهتها به . . ولما شاهدها الرجل ثار عليها ثورة عنيفة . . وكادت يده تمتد إليها . . لولا أنني انتهرته ، ذلك لأنه اعتبرها المتسببة له في القبض عليه .. والحرج الذي هو فيه . . مع أنهما معاً لا دخل لهما في الموضوع .

* * *

تمت عملية المواجهة . . ولم تأت بجديد في التحقيق . . إذ أكد كل منهما أقوال الآخر حرفياً . . وهي بطبعها متسمة بالصدق طوال

التحقيق . . ومؤكدة من غير هذه المواجهة . . ثم بقى بعد ذلك أن أواجه الفتاة بهما . . وشعرت بثقل هذه المهمة .

وأشفقت على الفتاة من الصدمة . . عندما تواجه بالشاهدين . . وتعرف أنها ابنة زنا .. وأن هذه — نظيرة أحمد البسيونى — التى ظلت كل هذهالسنين توهمها بأنها أمها . . لم تكن أمها فعلا . . وأن أمها الحقيقية . . لم يزل سرها فى علم الغيب . . وإن كانت الشكوك جميعاً تؤكد بأن أمها هى المجنى عليها . . وأن والدها هو دسوقى . . وتمثل لعينى هول الصدمة ووقعها على الفتاة . . وفداحة الخطب الذى سينزل بها . . وتذكرت أولئك الذين يرتكبون هذا الخطأ . . ويتسببون فى هذا الفعل . . وهل هم يقدرون نتائجه . . ويستشعرون السوء الذى يخلفه . . والظلم الذى يوجده . . وهذا الظلام الذى يعيش فيه الأبرياء ؟ ! . . أو هم لا يشعرون . . أوهم أكثر شعوراً به من غيرهم . . وإحساسًا بالظلام الذى يخلفونه . . لأن أيديهم هى التى تطفئ المصباح . . ومع ذلك يرتكبونه . . سألت نفسى هذه الأسئلة جميعاً . . وإذا بالجواب يجيئنى سهلا . . وهو كثرة الجرائم الخلقية التى حققت فيها . . أو التى عرضت علىّ . . وقلت ألا ما أبشع الإنسان الذى يرتدى زى الحمل وهو أكثر ضراوة من وحش مفترس . . كما قال أبى ! . .

وكأن هذا الذى كنت أفكر فيه من إشفاق على الفتاة ووقع الصدمة على نفسها . . كان هو تماماً الذى تفكر فيه أيضاً المرأة . . الساذجة

الواقفة أمامى . . لأنها ما إن سمعتنى أطلب استدعاء الفتاة ، حتى ارتعشت شفتاها وراحت تتوسل إلىّ أن لا أذكر للفتاة شيئاً عن حقيقتها . .

وكانت الفتاة قد حضرت ولاحظت عليها وهى تدخل أنها منطفئة الوجه . . ذابلة النظرة . . كأنها خارجة من كهف . . بعد عديد من السنين . . وما إن وقعت عيناها على « أمها » الماثلة أمامى . . حتى تقدمت منها . . وقدمت لها يدها . . وصافحتها . . وهى تتمتم بصوت خفيض جداً . . وكأنها لا تريد أن يسمعها أحد :

ــ أهلا بأمى . .

فبكت المرأة وسالت دموعها . . فظنتها الفتاة تبكى من أجلها . . فراحت تطمئنها . . وتؤكد لها بأنها بريئة . . وأن علاقتها بالمجنى عليها لم تكن أكثر من صداقة . . وأنها كما قالت فى التحقيق لم ترها . . من قبل الحادث بعشرين يوماً . . فازداد بكاء المرأة . . وتعالى نحيبها . . وكأنما ظنتها الفتاة تبكى لما تلاقيه هى من سجن . . فراحت تطمئنها من هذه الناحية وتذكر لها عطفى عليها ورعايتى لها فى السجن . . والطعام الذى أمرت بتقديمه إليها .. وكانت تشير إلىّ .. وتذكر لها هذه المآثر .. بنبرات رقيقة . . شفافة . . وباكية فى الوقت نفسه .. مما جعلنى أزداد إشفاقاً عليها . . وأحاول اختصار سؤالها ثانية بقدر الإمكان . . وأنهى هذا الموقف سريعاً . . هذا الموقف القاسى الذى شاء القدر للفتاة أن تقفه . . ولذلك قلت لها . . وبلا مقدمات . . وأنا آذن لها أن تجلس . . لأنها

كانت متعبة جداً . . وغير قادرة على الوقوف :

ـ هل تعرفين هذا الرجل . . فضالى أحمد عبد الموجود ؟

وأشرت إلى الزوج الواقف . . فقالت وهى تنظر إليه فى دهشة :

ـ لا . . لم أعرفه . . ولم أره فى حياتى غير الآن . .

ـ إنه زوج نظيرة أحمد البسيونى . .

فندت عن الفتاة أنة حبيسة . . وقالت وهى تعاود النظر إليه فى دهشة كبيرة :

ـ زوج أمى ؟ !

ـ إنه زوجها . .

فانخفض صوتها . . وقالت وهى ما تزال تنظر إليه :

ـ لا . . لم أعرفه . .

فقلت للرجل الذى كان يتأملها من رأسها إلى أخمص قدميها :

ـ وأنت هل تعرفها ؟

ـ لا . . وهذه أول مرة تراها عينى . .

ـ قلت فى التحقيق إنك شاهدتها قبل ذلك ؟

ـ فى السينما . . وهى عريانة ترقص فى الفيلم . .

فنكست الفتاة رأسها وانخفضت نظراتها إلى الأرض . . وواصلت أنا سؤالى للرجل :

ـ هل هذه هى التى شاهدتها ترقص فى الفيلم ؟

ـ نعم هى . .

ـ هل أنت متأكد ؟

ـ طبعاً . .

فقلت للفتاة وأنا أشير إلى نظيرة أحمد البسيونى الواقفة بجوارها :

ـ هل تعرفين نظيرة أحمد البسيونى ؟

ـ إنها أمى . .

نطقتها الفتاة فى إيمان لا حد له . . وأيضاً فى سذاجة متناهية . . فقلت لها وأنا أمسك أنفاسى . . إشفاقاً عليها :

ـ قالت نظيرة أحمد البسيونى . . بأنها ليست أمك . . ولست أنت ابنتها . . وأنه لم يكن لها أولاد . . وأنها لم تنجب فى حياتها . . وكل ما فى الأمر أنها كانت تتبناك فقط .

وأغمضت الفتاة عينيها فجأة . . شأن من يفاجأ بنور باهر يصدم عينيه أو يغرق فى ظلام دامس فيمسك أنفاسه . . وقالت وهى تتفرس فى وجوهنا نحن الثلاثة .. بعينين راح جحوظهما المخيف يزداد شيئًا فشيئًا :

ـ ماذا تقول ؟

ـ تقول إنها ليست أمك . . وإنك لست ابنتها . .

فقفزت الفتاة عن المقعد وأمسكت بكتف المرأة الواقفة أمامها . . وأعادت عليها السؤال فى ذهول :

ـ ماذا تقولين ؟

ولما لم تنطق المرأة . . أو حتى تطرف . . صرخت الفتاة فى وجهها صرخة مدوية . . وقالت وهى تهزها فى عنف من كتفيها . . حتى لتكاد تسقطها على الأرض :

— انطقى . .

— . . . . . .

— تكلمى . . .

— . . . . .

— قولى . . .

فازداد نحيب المرأة . . وقالت وهى تتألم فعلا . . وتغرق فى الدموع :

— ماذا أقول ؟

فصرخت الفتاة فى وجهها :

— قولى لماذا تتنكرين لى . . ألأننى راقصة . . تتبرئين منى . .

— قلت إنك طاهرة وعفيفة ومتدينة . . وتتصدقين على الفقراء . . وتعرفين ربك جيداً . .

— لماذا إذن قلت إننى لست ابنتك ؟

— لأنها الحقيقة . .

فازدادت عيناها جحوظاً . . وعلت وجهها غبرة . . لم أشهدها من قبل على وجه بشر . . وقالت وهى ترتعش :

— الحقيقة أنك لست أمى ؟!

ـ نعم . .

ـ ومن هي أمي إذن ؟ !

ـ يعلمها الله . .

ـ ومن أين جئت بي أنت ؟ !

ـ وجدتك قطعة من اللحم . . ملقاة في الطريق . . فأشفقت عليك وتبنيتك خمس سنوات . .

ـ إذن أنا . .

نطقت الفتاة هذا في ذعر . . وكأنها خافت أن تكمل . . فزمت شفتيها . . ولم تتمم . . ومن ثم انهارت قواها . . فسقطت على المقعد الذي كان أمامها تئن وتتوجع . . وكل شيء فيها يحترق في صمت . . حتى زفراتها التي كانت تخرج كألسنة النار . . وكأنها تخرج من بركان ينفجر ـ كانت ما تكاد تبلغ شفتيها حتى تتحول إلى ما يشبه سحائب من الدخان مما أثار إشفاقنا جميعاً . . حتى هذا الرجل الزوج الذي كان وجهه كالحجر الصلد . . رق وشف . . وانقلب إلى وجه طفل تغشاه الدموع . .

وظلت الفتاة كذلك حيناً . . إلى أن استعادت بعض قواها . . ففتحت عينيها . . وكأنها تفتحهما على حلم مزعج . . ولما رأتني أمامها . . ورأت محضر التحقيق لا يزال مفتوحاً أمامي .. ورأت أحد الجنود مدججاً بالسلاح . . وما زال يقف في مكانه بجانب الباب . . تذكرت أنها سجينة

وأنه يحقق معها وأنها غير قادرة على النطق . . ولهذا نكست رأسها تقول فى توسل كبير . . وهى ما زالت تئن وتتوجع :

— هل تأذن لى أن أنصرف ؟

— إلى أين ؟

— إلى غرفتى فى السجن . .

— لماذا ؟

— إننى غير قادرة حتى على النطق . .

ولما رأيتها متخاذلة فعلا إلى حد كبير . . قلت :

— هل أنت مريضة ؟

— إلى حد . .

— هل تحتاجين إلى طبيب ؟

— أشكرك . .

ورأيت أن أى سؤال يوجه إلى أحد من الثلاثة بعد ذلك لن يأتى بجديد . . أو يضفى على هذه الظلمة التى ما زالت تكتنف الجريمة شيئاً يفيد . . ولذلك أنهيت التحقيق فى هذه الليلة عند هذا الحد . . وأمرت بإعادة الثلاثة إلى السجن . . كما طلبت إلى المسئولين فى السجن وضع الفتاة تحت المراقبة نظراً لسوء حالتها الصحية والنفسية . . وانصرفت فى تلك الليلة والفتاة تشغل تفكيرى، وصورتها وهى تئن وتتوجع وتحترق —كحزمة هشة من القش — تشتعل فيها النار — تروح وتجىء فى خاطرى..

٧

لقد قدر لى بحكم مهنتى . . أن أشاهد أحداثاً جمة . . وأرى فواجع كثيرة . . رأيت الإنسان الذى يزدرى الحياة فى شخصه . . وتهون عليه لدرجة الانتحار.. ورأيته وهو يموت .. سواء من يميته الندم .. أو من يميته السلاح الذى قتل نفسه به .. رأيت ذلك الإنسان ورأيت تأوهاته وصرخاته .. ورأيت الإنسان الذى يلتف حبل المشنقة حول عنقه . . وأحسست بمشاعره والحياة الغالية ترقص عارية أمام عينيه فى هذه اللحظات . . مبرزة له بهجتها ومفاتنها . . لتزيده حسرة على فراقها فى لحظات الوداع الخاطفة، ورأيت الإنسان عندما يسفك شرفه . . ولا يجد وسيلة للذود عنه . . فيسفك هو دماء نفسه . . وكيف أن كل نقطة من هذه الدماء كانت تحرق وجهه . . وتنطبع عليه نقاطاً من نار وهى تخفى خلفها دم ذلك الشرف المسفوك . . ورأيت الأم التى تفجع فى ابنها . . والابن الذى يفجع فى أبيه . . والأب الذى يفجع فى فلذات كبده فلذة إثر فلذة . . رأيت هذه النار وحرقتها . . وهذه الدماء وبشاعتها . . وكل هذه الآلام ومرارتها . . ولكنى لم أر أبداً مثل هذه النار التى تحرق الإنسان عندما يفتقد أصله . . عندما يفتقد نفسه كإنسان . . عندما يعرف أنه جاء عن الطريق الذى

تجيء منه أحط الحيوانات . . عندما يعجز حتى عن معرفة الإناء القذر والكلب الذى ولغ فيه .. عندما يعرف أنه هو نفسه هذه النجاسة التى نضح بها الإناء .. وأن هذه النجاسة لن تلصق به أو تلاحقه .. وإنما هو الذى سيلاحق بها الناس . . لأنه هو أصلها . . لأنه هو ثمرتها .

ورأيتنى دون قصد أو تفكير أفكر فى هذا كله . . وفى هذه القضية التى أمامى . . والتى قبل أن أصل فيها إلى النجاح أو الإخفاق . . فى وضع يدى على الجانى . . وضعت يدى على مجنى عليه آخر ليس من فارق بينهما إلا أن المجنى عليها الأولى قتلت ولفظت أنفاسها . . وماتت .. وشيعت إلى مقرها الأخير ، أما المجنى عليها الثانية فقد قتلت أيضاً . . ولكنها لم تمت . . وإنما هى تموت . . وستظل تموت . . وستظل تلفظ أنفاسها ولن يغيثها الموت . . ولن يغيثها أيضاً الشفاء منه . . بل ستظل عمرها تموت . .

ومن ثم رحت أفكر فى الجريمتين . . وفى القتيلتين . . تلك التى شيعت إلى قبرها الضيق فى الأرض . . وهذه التى شيعت إلى قبرها الواسع فى الدنيا . . وأيهما أسعد حالا بالسلاح الذى قتل به . . الرصاصات الثلاث التى هتكت فروة الرأس . . وحطمت الجمجمة . . ونفذت إلى الرأس . . وأحدثت الوفاة فى الحال . . أم النزوة الطائشة التى حطمت الكيان . . وطعنت القلب . . وسلبت الفؤاد . . وهرأت الصدر . . وأدمت الضمير . . وقتلت الروح ؟! . . .

وتعجبت من هذه التفرقة حتى فى الموت . . ولا أدرى لماذا عطفت على الفتاة من قلبى . . ولا لماذا شعرت نحوها بهذه العاطفة التى لم أستشعرها من قبل حتى حيال أقرب الناس إلىّ . . وقد ازداد هذا الشعور عندما ذهبت إلى بيتى . . وخلوت فى غرفتى إلى دوسيه هذه القضية . . ورحت أسترجع ما جاء فى التحقيق مرة أخرى . . وأراجع أقوال الفتاة بصفة خاصة . . وما قالته عنها الشاهدة نظيرة أحمد البسيونى . . وزوجها فضالى . كما راجعت مرة ثالثة . . أو رابعة أقوال دسوقى بالذات . . وأحسست حيال هذا الرجل الذى كنت أحبه بشىء غريب . . لعله أقرب إلى البغض والتخوف منه إلى أى شىء آخر . . فقد استطاع هذا الرجل بذكائه الفطرى . . ودهائه الكبير . . أن يغير حتى معالم وجهه . . ويجعلنى أنا الذى تمرست كل هذه السنين فى تفهم نفسيات البشر وسبر أغوار ما فى نفوسهم . . أن أعتقد اعتقاداً . . لا يتطرق إليه الشك فى سلامة طويته . . وصدق أقواله . . وبعده — البعد كله — عن هذه الجريمة ، أو أن له أية صلة بها . . من قريب . . أو من بعيد . . وأحسست ببغضى له يتزايد . . ووددت لو أنى فتحت عينى فرأيته أمامى . . إذن لأنشبت أظافرى فى عنقه . . ولن أتركه . . حتى يفصح عن الحقيقة كاملة . . هذه الحقيقة التى يعرفها جيداً . . وهو الوحيد الذى يحمل سرها فى قلبه . . ويعرف من الجانى الحقيقى . . وبدأت أشعر بسوء تصرفى لأننى لم أقبض عليه فوراً . . ولكن كان أول شىء فعلته عندما ذهبت إلى مكتبى فى

الصباح أن اتصلت أولا بإدارة السجن الذى تنزل فيه الفتاة واستفسرت عن حالتها . . فعلمت أنها ظلت طوال الليل تعانى حالة نفسية حادة . . وكانت تنتابها من حين إلى آخر حالات من الهستيرية تجعلها تصرخ وتبكى حتى يغمى عليها . . مما استدعى وجود مرافقة لها فى غرفتها . . وفى الصباح عادها طبيب السجن . . فحقنها بالمخدر . . فنامت . . وما زالت مستغرقة فى النوم .

كما أرسلت إشارة عاجلة إلى نيابة الغربية طلبت فيها سرعة القبض على دسوقى على حسنين السابق سؤاله فى مقتل مخدومته زينب عبد العال الشوباشى . . وأن يرحل فوراً وفى اليوم نفسه تحت الحراسة الشديدة إلى القاهرة . . ثم أنجزت بعض الأعمال فى عدة قضايا أخرى . . قبل أن أذهب إلى الدائرة السابعة الجنائية . . لأترافع فى إحدى القضايا الهامة . . التى وفقت فى المرافعة فيها مما جعل المتهم الأول والثالث والثامن يؤخذون بأقصى العقوبة . . وقد سرنى هذا كثيراً . . وابتهجت له . . إذ ليس أحب إلى المحقق الذى يعرف واجبه . . وله ضمير يحاسبه . . من أن يأخذ الحق مجراه . . فتمسك العدالة بتلابيب المجرم . . وتحاسبه أقسى الحساب .

* * *

كانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر . . فذهبت إلى بيتى سريعاً لأحضر الوليمة الضخمة التى أعدها أبى فى القصر لجماعة من الناخبين الذين يعتمد عليهم فى نجاحه فى هذه المعركة الطاحنة التى يخوضها . .

وكان قد أصر على أن أحضر . . وقد شعرت بشيء كثير من الفخر عندما ذهبت إلى البيت ووجدت أبهاء القصر تغص بعلية القوم من الساسة والعظماء وبعض الوزراء وبعض رجال القصر الملكى الذين كان أبى على صلة وطيدة بهم فى ذلك الحين وازددت فخراً عندما استقبلت من الكثيرين منهم بالحفاوة البالغة . . إذ راح أكثرهم – ولا سيما من المسئولين فى ذلك الوقت – يشيد بى وبنشاطى وبمركزى المرموق فى عالم القضاء . . وبعض القضايا السياسية الهامة التى حققت فيها . . وكان لى فضل اكتشاف الجناة فيها . . مما جعل أبى وهو يجلس معنا على المائدة يشعر بالكثير من الزهو . . وظللنا فى مثل هذه الأحاديث وغيرها من أحاديث الانتخابات . . وسير المعركة فيها . . وكلما استشعرت من هذه الأحاديث أن النجاح هو حليف أبى . . ازددت فخراً وابتهاجاً . . وأقبلت على طعامى بشهوة بالغة . . غير أننى وقبل أن أنتهى من طعامى . . وكانت الساعة – على وجه التقريب – قد بلغت الرابعة مساء . استدعيت إلى محادثة تليفونية عاجلة . . ولما ذهبت وجدت المتحدث أنيس أفندى باشكاتب نيابة جنوب القاهرة . . وإذا به يدلى لى بنبأ غريب . . اندهشت له دهشة كبيرة . . وفوجئت به مفاجأة مذهلة . . وهو أنه قد وردت إشارة عاجلة الآن من نيابة الغربية تفيد بأن دسوقى على حسنين – المطلوب القبض عليه وترحيله إلى القاهرة لسؤاله فى القضية رقم ١١٠٧ جنايات القاهرة الخاصة بمقتل المجنى عليها زينب عبدالعال الشوباشى – قد وجد ظهر اليوم مقتولاً فى حقل الأذرة التابع لزمام

ضيعة المجنى عليها . . إذ أطلق عليه الجناة اثنى عشرة رصاصة . . مزقت جسده . . وأردته قتيلا فى الحال . . وأنه لا أثر للجناة . . أو معرفة أسباب الجريمة . . وأن التحقيق لا يزال جارياً

و بالرغم من أن هذه المفاجآت . . لم تكن غريبة . . على رجل التحقيق الذى تعوّد أن يرى فى بعض الجرائم الكثير من العجب . . إلا أن وقع الخبر على نفسى كان ثقيلا . . وشعرت بالصدمة تكاد تهزنى ولا سيما عندما تأكدت بأن جميع خيوط الأمل التى كانت تلوح لعينى فى القضية .. قد اجتثت من جذورها . . بمقتل دسوقى .. وأحسست بتأنيب الضمير .. و بالخطأ الجسيم الذى ارتكبته .. إذ تريثت فى القبض عليه .. ولو كنت قد فعلت هذا بمجرد أن ورد ذكر اسمه على لسان الفتاة فى أول التحقيق .. أو حتى بعد أن ذكرت ما ذكرت الشاهدة الثانية نظيرة أحمد البسيونى ... لما كان قد حدث من هذا شىء ولما كان الرجل قد قتل . . ولما أفلت من يدى الجانى فى هذه القضية كما أفلت منها الآن إلى الأبد

وعدت إلى مقعدى من المائدة وأنا فى حالة اضطراب شديد . . مما جعل والدى يلاحظ علىّ ذلك . . ويسألنى أكثر من مرة . . ولم أستطع أن أجيبه . . إلى أن انتهى المدعوون من تناول الطعام وتناثروا حول الموائد الأخرى فى الحديقة . . وأبهاء القصر وشرفاته . . يشربون القهوة ويدخنون السجاير . . عند ذلك انتحى بى أبى ركناً . . وما إن ذكرت له نبأ مقتل دسوقى . . وكيف أن الجناة مزقوا جسده باثنتى عشرة رصاصة . . وكيف

عثر عليه جثة هامدة فى حقل الأذرة . . وكيف فر الجناة دون أن يتركوا أثراً لجريمتهم . . حتى ذعر أبى ذعراً شديداً .. واربدت سحنته إلى حد مخيف . . وراح يضرب كفاً على كف . . ولأول مرة أشعر بالغلظة فى صوته وهو يخاطبنى . . ويؤنبنى فى شىء من التقريع . . لأننى قصرت فى واجبى ولم أقبض عليه من أول الأمر كما قال لى . . وقد وافقته على كل حرف قاله . . حتى فى عبارات التقريع التى وجهها إلىّ . . وانصرفت إلى مكتبى فوراً . وأثبت هذه الإشارة التى وردت إلىّ من نيابة الغربية عن مقتل دسوقى رسمياً فى محضر التحقيق ،وقررت السفر فى الحال إلى طنطا ، ومنها إلى المكان الذى وقعت فيه الجريمة لأنضم إلى المحقق هناك . وأطلع على سير التحقيق . . وهناك وجدت شئياً غريباً اندهشت له . . وعقد الأمور تعقيداً غريباً وأضفى على التخمينات والتقديرات والافتراضات جميعها ظلاماً دامساً . . فقد وجدت أن التحقيق قد أوشك على الانتهاء . . ولما يمض عليه ساعات . . أو تتجاوز صفحات التحقيق فى هذه الجناية بضع صفحات . . فالجانى مجهول . . ولم يترك أثراً ولا حتى شبه أثر يمكن للمحقق أن يمسك به .. كما أن أهل المجنى عليه لم يتهموا أحداً .. بل إن شبهاتهم لم تحم من قريب أو بعيد حول أحد . . وبسؤال جميع الأهل والمعارف وأصدقاء المجنى عليه، وحتى غير أصدقائه . . لم يشر أحد إلى شىء أو حتى شبه شىء بين المجنى عليه وبين أحد . . بل أجمع الكل على أنه كان محبوباً من الجميع . وكان آخر شىء يفكرون فيه هو أن

يموت هذا الرجل هذه الميتة الشنعاء . .

وجلست مع زميلى وكيل النيابة المحقق فى القضية نتذاكر الأمور جيداً ونجمع بين طرفى الجريمتين والأسباب الدافعة إلى تلك وهذه . . والأسباب التى جعلت المجنى عليه ينكر فى التحقيقات السابقة صلته بالفتاة . . ورؤيته لها تتردد على المجنى عليها . . كما أنكر صلته بأحد غيرها . . مع أن الثابت من التحقيق عكس ذلك . . إذ اعترف الشهود الثلاثة . . الراقصة زينات شوقى . . والزوجة نظيرة أحمد البسيونى . . والزوج فضالى أحمد عبد الموجود . . اعترف الثلاثة بصلتهم الوثيقة بدسوقى . .وخرجنا من ذلك كله بأن يداً فى الخفاء هى التى لعبت هذا الدور الخطير فى الجريمتين ، وأن هناك صلة من غير شك بين هاتين الجريمتين . . ولكن يَدُ من هى هذه اليد ؟ . . وما هى هذه الصلة ؟ . . كان هذا هو بيت القصيد ؛ وكان هذا هو المحير فعلا .

وفى طريق عودتى إلى القاهرة . . وبعد أن تحقق الإخفاق فى العثور على الجناة . . وأصبح مؤكداً أن جديداً لن يطرأ على هذه الظروف الغامضة التى قتل فيها دسوقى . . ازدحمت رأسى بأفكار كثيرة وتكهنات عدة . . وحاولت أن أربط بين الجريمتين والظروف الغامضة التى حدثت فيهما . . والأسباب والدوافع التى أدت إلى قتل دسوقى بالذات . . وعلاقة دسوقى بالمجنى عليها . . زينب عبد العال الشوباشى . . وهل هذه الجريمة التى ذهب ضحيتها دسوقى لا علاقة لها بالجريمة التى ذهبت ضحيتها

زينب . . أو أن هذه امتداد لتلك . . وأن الأسباب التى أدت إلى قتل المجنى عليها هى نفسها الأسباب التى أدت إلى قتل دسوقى ؟

هذا هو المرجح حتى الآن . . والأقرب إلى المنطق . . ولكن ما هى الأسباب . . والبواعث عليها . . والدوافع إليها . . وهل اليد التى ارتكبت الجريمة الأولى . . وقتلت زينب عبد العال الشوباشى هى نفسها اليد التى ارتكبت الجريمة الثانية وقتلت دسوقى على حسنين ؟ !

لقد كان من الممكن ترجيح ذلك أو على الأقل الميل إليه . . لو أن للمجنى عليها مثلا . . أحد الأهل . . أو الأقرباء . . ولو حتى من بعيد . . علم بالعلاقة الآثمة التى كانت بين المجنى عليها وبين دسوقى . . وأراد أن يذود عن عرضه . . فقتل الاثنين . . ولكن الثابت من التحقيق أن لا أحد إطلاقاً من الأهل أو الأقارب لها . . وإذا افترضنا مثلا وجود هذا الشخص . . وسلمنا جدلا . . بأن التحقيق عجز عن معرفته . . أو حتى الظن بوجوده . . فأين كان هذا الشخص . . طيلة هذه السنين التى تزيد على العشرين وتتجاوزها ؟ . . وفى أى كهف كان ينام شرفه هذا . . الذى استيقظ فجأة وهب للذود عنه بهذه الوحشية التى لا تعرف حدوداً فى الإجرام وسفك الدماء وإزهاق أرواح البشر ؟ .!

أو أن الأسباب تختلف عن هذا كلية . . وأن الدوافع لارتكاب الجريمة الأولى هى نفس الدوافع لارتكاب الجريمة الثانية . . وهى الغيرة على الإثم . . والحرص على التمادى فيه والرغبة فى استمرار سفك هذه

الحرمات التى ظلت تنتهك وتسفك دماؤها . . ما يزيد على العشرين سنة . .
وهذا هو الأقرب إلى العقل وإلى المنطق وإلى الحقائق الكثيرة التى كشف
عنها التحقيق . . فقد ثبت من أقوال الشهود الثلاثة . . ولا سيما شهادة
الزوجة نظيرة أحمد البسيونى وزوجها فضالى أحمد عبد الموجود . . ومن
الوقائع والأسانيد المدعمة بمنطق الحوادث وتسلسلها وتواريخها . . ثبت أن
المتهمة الأولى وهى الفتاة زينات شوقى هى ابنة المجنى عليها زينب عبد العال
الشوباشى . . وأن المجنى عليها هى أمها فعلا . . وأن هذا لا سبيل إلى
الشك فيه . . وأن الدلائل عليه واضحة ومتوفرة وتنطق بها الحوادث
جميعاً . .

مراقبة المجنى عليها للطفلة بعد أن ألقيت فى الطريق . . تتبعها للشاهدة
الثانية نظيرة أحمد البسيونى . . ومعرفتها لبيتها . . وذهابها إليها فى صباح
اليوم الثانى . . وبكاؤها . . واضطرابها . . والحالة النفسية التى كانت عليها
وهى تقبل الطفلة وتحنو عليها . . وتوصى بها المرأة خيراً . . إنفاقها على
الفتاة بصفة دائمة . . وجعل مرتب دائم ثابت للمرأة التى تبنت الطفلة . .
خشيتها من افتضاح أمرها إذا كثر ترددها على البيت الذي تعيش فيه
الطفلة . . وانقطاعها عن الذهاب إليها . . وهذا يثبت كذب قولها . .
بأنها قريبة لأم الطفلة كما جاء على لسان الشاهدة الثانية . . إنابة دسوقى
عنها فى الاطمئنان على الفتاة وتوصيل المبلغ إليها فى كل شهر . . ثم افتقادها
للطفلة بعد أن تركتها الشاهدة الثانية.....وسافرت مع زوجها إلى الصعيد . .

وما بذلته المجنى عليها من جهد فى سبيل البحث عنها طيلة تلك السنين . . بدليل تعرفها على بائع العرقسوس بعد خروجه من السجن . . وما إن هداها إلى عنوان نظيرة أحمد البسيونى فى الصعيد حتى ذهبت إليها فى البدارى . . وتعرفت منها على عنوان الفتاة . . وفرحتها البالغة عندما عثرت على عنوانها . . ومبلغ الخمسة جنيهات الذى أعطته لنظيرة . . لأنها ذكرت لها العنوان . . ثم طريقة تعرفها على الفتاة فى القاهرة وذهابها إليها فى الصالة . . أو الكباريه . . وهى كما جاء على ألسنة الشهود جميعاً . . سيدة وقورة وليست ممن يؤمون هذه الأماكن.. ثم استمالتها الفتاة إليها، وتوطيد صداقتها بها وجعلها تتردد عليها فى بيتها كل يوم وكل ليلة . . ثم أحزانها التى لا حد لها — كما هو وارد فى أقوال الفتاة — من أنها تعمل راقصة . . ومحاولة إقناعها بترك هذه المهنة بأى ثمن . . ثم — وهذا هو المهم — استعداد المجنى عليها لأن تهب الفتاة كل ما تملك من ثروة . . إن هذه كلها أشياء واضحة الدلالة . . ثم يجىء بعد ذلك دور دسوقى فى الموضوع . . والدور الخطير الذى لعبه وإنكاره إنكاراً باتاً لهذا الدور.. وهذا الإنكار له دلالته . . وهو أنه يعرف من غير شك هذا السر ، وهو أن الفتاة هى ابنة المجنى عليها . . وأنها ولدتها سفاحاً . . وأنها ألقت بها فى الطريق . . إلى آخر هذه السنوات الخمس التى ظل هو يتردد فيها على الفتاة . . والمرأة التى تبنتها . . وذهابه بانتظام ليعطيها المبلغ المتفق عليه . . ومعنى هذا أن دسوقى يعلم كل شىء عن حقيقة أخلاق المجنى

عليها، بل هو الوحيد الذى كان يعلم هذه الحقيقة . والدليل على ذلك أقوال الشهود الثلاثة . . الفتاة والزوجة والزوج . . هذه الأقوال المتفقة فى جميع الوقائع . . والتى لم تتناقض فى واقعة واحدة . . وأنه يعلم هذا ويظل طوله هذه السنين على هذه العلاقة الوطيدة بالمجنى عليها . . فمعنى ذلك أنه هو نفسه الذى كان على علاقة بها — حتى بغض النظر عما جاء فى التحقيق من شبهات كثيرة تؤكد أنه هو والد الفتاة غير الشرعى — واستمرار هذه العلاقة وتوطيدها إلى هذا الحد له دلالة أخرى لا تكاد تقبل الشك . . وهى أن دسوقى كان يحب المجنى عليها . . ويتخذ منها عشيقة له . . وأنها هى أيضا تحبه وتتخذ منه عشيقاً لها . . وليس لها عشيق غيره .. وظل يعتقد هذا ويؤمن به إلى أن تبين خطأ هذا الاعتقاد واكتشف أن للمجنى عليها عشيقاً غيره وهو الرجل الذى ضبطته الفتاة يتسلل من مخدع المجنى عليها فى الليل . . ولا بد — بل من المقطوع به — أنه كان لهذا العشيق الجديد مميزات كثيرة . . جعلت المجنى عليها تفضله على دسوقى . . فهو من أبناء الحضر ووجيه . . وطويل القامة عريضها . . وأنيق الملبس . . مما يدل على أنه من أبناء الثراء . . كما جاء على لسان الفتاة التى رأته رؤية العين . . وبديهى أن دسوقى — وهو الريفى المعدم ، الرث الثياب أو المهملها على الأقل . . والذى لم يزد فى نظر التى يحبها على أنه خادم عندها . . بديهى أنه لم يقدر على منازلة هذا العشيق الجديد . . أو حتى التفكير فى محاربته . . وعز عليه ذلك . . عز عليه أن يرضى

بالهزيمة . . وأن تفضل عليه هذه المرأة . . عشيقاً غيره . . بعد كل هذه السنين التى قضاها معها . . فلم يجد بدًّا من ارتكاب جريمته . . ولكنه ارتكبها من سوء حظه فى الوقت الذى كان فيه العشيق الجديد قد توطدت علاقته بالمجنى عليها . . مما جعله ينتقم لنفسه ولها . . بقتل دسوقى . . وهكذا تأكل النار بعضها دائماً .

فكرت فى هذا كله . . وحللته على ضوء منطق الحوادث المدعمة بالأسانيد التى جاءت على لسان الشهود الثلاثة . . ولما اقتنعت به . . أحسست بضيق لا حد له . . فقد وقف بى الطريق فى هذه القضية عند هذا الحد . . بعد أن خيم الظلام عليها إلى الأبد بعد قتل دسوقى وموته وموت السر معه . .

٨

شعرت بهذا الضيق يزداد عندما ذهبت إلى مكتبي فى صباح اليوم التالى ووجدتنى مضطرًا وعلى الرغم منى وبعد كل هذا الجهد الذى بذلته .. إلى أن تخط يدى هذه الكلمات التى أكرهها جدًا والتى تشبه سلسلة من الثعابين الضريرة . . تسبح فوق الأوراق : « يحفظ التحقيق وتقيد الجناية ضد مجهول » . .

وقد فعلت ذلك مضطرًا وأخليت سبيل الشهود الثلاثة . . وكانت الفتاة قد تماثلت للشفاء بعض الشيء . . ولما أخلى سبيلها طلبت مقابلتى . . ولما أذنت لها وجاءت .. رأيتها أكثر شحوباً ووجهها أشد اصفراراً ، ومع أنها جميلة جمالا رائعاً . . إلا أن هذا الجمال اكتنفته فجأة مسحة من القبح أشبه ما تكون تماماً بتلك المسحة من العار التى تقف حائلا بين عينيك وبين الجمال الرائع الذى طمست رواءه الأيدى التى استباحته . . والعيون التى عبثت به . . . والفراش الملوث التى تقلب عليه . . ولأننى أعلم تماماً أنها ليست كذلك . . اندهشت كثيراً وتعجبت لهذه النفوس الشفافة التى ترميها الخطيئة بحجر . . وكيف تكون آلام هذه النفوس . . عندما تصيبها الضربة فى الصميم . . وكيف تتحول هذه الآلام من كثرة

أوجاعها وحرقة جراحها ولوعة التفكير فيها . . إلى مثل هذه الظلال القاتمة . التى تتجمع خيوطها السوداء فوق وجه الضحية فتطمس معالم الطهر والبراءة فيه . . وتحوله إلى صورة واضحة للإثم والعار ومهانة النفس . .

ونظرت إلى الفتاة مرة أخرى ورأيت عينيها الواسعتين الكبيرتين . . ونظرات الذلة والانكسار التى تروح وتجىء فيهما خابية شاحبة . . تتأرجح كذبالة السراج الذى ينضب زيته . . ويكاد يلفظ أنفاسه . . فأشفقت عليها وأحسست وأنا أستقبلها فى مكتبى كأننى أستقبل قطعة منى . . وأذنت لها بالجلوس وطلبت لها كوباً من الشراب المثلج . . وأحسست من صمتها ونظراتها الساهمة التى تلقى بها إلى الأرض دائماً . . وارتعاش شفتيها بين الحين والحين . . أنها إنما تريد أن تقول شيئاً . . متحرجة من قوله . . فشجعتها لكى تقول كل ما تريد . . دون أن تفطن إلى مقصدى . . وقلت لها إنها لم تجلس أمامى الآن هذه الجلسة كمتهمة أمام محقق .. كما كانت جلساتها السابقة أمامى . . وإنما هى تجلس أمام إنسان يحترمها ويقدرها . . ويقدر ظروفها القاسية . . هذه الظروف التى لا دخل لها فيها . . والتى كانت هى ضحية لها . . وأن هذه الظروف يجب أن لا تؤثر فيها مثل هذا التأثير الذى يكاد يقضى عليها . . وهى ظروف حدثت كثيراً لغيرها . . وتحدث كثيراً . . وما دام أن هناك شراً . . وهناك خطيئة . . وهناك ظلاماً . . يعيش فيه بعض الناس . . فلا بد من وجود ضحايا .

وقد أثر فيها هذا القول . . ورفع من معنوياتها . . وجعل بعض النور

يتمشى فى تلك الذبالة التى كانت توشك أن تنطفئ . . وعاد إلى نظراتها بعض الاستقرار . . كما عاد إلى وجهها بعض الهدوء . . وقالت فى صوت خفيض . . وهى ما زالت تنظر إلى الأرض بعينيها المخضلتين بالدموع :

— إننى لا أعرف كيف أشكرك . .

— إن الشكر الذى أريده منك هو أن تعتبرينى بالنسبة إليك الشخص الذى يهمه أمرك . . وأن تقولى لى دائما كل ما يجول بخاطرك . .

قلت لها هذا . . وأنا أقصد شيئاً بعيداً . . لم تفطن إليه . . وحتى أنا لم أكن قد فطنت إليه . . إلا بعد أن طلبت الفتاة مقابلتى . . وهو أن أجعل هذه الفتاة تطمئن إلىّ ، وإلى صداقتى ، حتى لو تطلب منى ذلك أن ألتقى بها كثيراً . . وحتى لو كان هذا كما أعرف يخالف العرف والتقاليد المرعية . . انفراد محقق ومتهمة أو شاهدة فى قضية من القضايا سواء أزالت هذه الصفة . . أم ظلت باقية . . غير أننى كنت أعتقد أن هذا هو السبيل الوحيد الذى عن طريقه ربما أتعرف من الفتاة على شخصية ذلك العشيق الثانى للمجنى عليها . . والذى قتل دسوقى . . والذى ستوصلنا معرفة شخصه . . إلى معرفة الحقيقة كلها . .

حقيقة إن الفتاة لم تعرف شخصيته حتى الآن . . وهى لم تخف شيئاً حاولت إنكاره فى التحقيق . . ولكنى أعلم بحكم تجاربى الكثيرة وكثرة ما شاهدت من القضايا .. ووقف أمامى من المتهمين .. أن للإنسان .. كلّ إنسان .. حاسة سادسة تقف بجانبه .. فى لحظات الحرج .. هى التى تجعله

متيقظاً أم غير متيقظ.. وفق ما ترى فيه مصلحته . . وأن هذه الحاسة من الذكاء وقدرة التسلط على صاحبها بحيث تجعله يقول الكذب وهو يؤمن بأنه الصدق . . ويقول الصدق وهو يؤمن بأنه الكذب . . وتجعله يصف لك الشمس وبهجة نورها وقوة إشعاعها ومقياس حرارتها وصفاً دقيقاً مقنعاً . فى حين أنه لم يكن قد رأى غير الظلام وحلكته . . وسواده الذى كانت تتخبط فيه عيناه !

فإذا زالت لحظات التحرج . . زالت فيها يقظة هذه الحاسة . . وعاد الإنسان إلى طبيعته . . وإلى تذكراته . . التى كثيراً ما تكون صائبة .

لهذا كانت مجاملتى للفتاة زائدة . . ولهذا قلت لها فى صدق حقيقى . . إننى أرجو أن تعتبرنى بالنسبة إليها الشخص الذى يهمه أمرها . . وأن تقول لى دائماً . . كل ما يجول بخاطرها . . غير أنها لم تصدق هذا . . أو لعلها استكثرته على نفسها . . لأنها وقفت عند كلمة معينة قلتها لها . . وكأن ذكاءها اللماح — الذى شهدت لها به أثناء التحقيق— لم يصدقها أو يصدق أننى جاد فيها . . لأنها قالت وهى تتمتم فى صوت خفيض جداً هذه المرة :

— تقول إنك تريدنى أن أطلعك — دائماً — على كل ما يجول بخاطرى . . فهل أنت ترحب بلقائى دائماً ؟

فلم أنطق . . لأننى أحسست بقلبى هو الذى يتحدث ويقول :

— إننى أرحب بذلك دائماً . . علم الله . .

فقالت وقد انفرجت أساريرها بعض الشيء وكأنها تريد أن تبتسم :

— إنني حقيقة أشكرك . .

— أتشكرينني لأنني أرحب بلقائك ؟

— أنت الوحيد في هذا الوجود كله الذي أشكر له هذا الجميل . .

— لماذا أنا بالذات ؟

— لأنك الوحيد الذي عرفت من أنا . .

وعاد وجهها إلى الاحمرار . . وعادت نظراتها فانطفأت ثانية وامتلأت عيناها بالدموع ، وقالت وهي تبكي . . معبرة عما يجول بخاطرها حقيقة :

— إنني خائفة . .

— مم ؟ . .

— أن يقتلني الرجل الذي قتل أمي . .

وكأن صنعتي كمحقق . . أصبحت طبيعة فيّ . . لأنني قلت :

— وهل أصبحت مقتنعة فعلا .. بأن المجني عليها هي أمك حقيقة ؟

— طبعاً . .

— وعلى أي أساس بنيتِ هذا الاقتناع ؟

— أحياناً كثيرة لا يستشعر الإنسان حرارة الشمس إلا بعد أن تغيب !

وأعجبني منها هذا القول . . فنظرت إليها . . فإذا بها تبكي . . فتركتها إلى أن استطردت وهي تجفف دموعها وتمسح على شفتيها المضطربتين :

— عطفها الزائد . . الذي كنت أندهش له . . حنانها الذي بلغ

من شدة تأثيره فى نفسى أننى أنكرته عليها . . وأسأت به الظن . . وقلت إنه نوع من الشباك تجيد صنعه بعض النساء، لتغطى به ما فى نفوسهن من سوء . . ولتقطع به الطريق على الفريسة . . وتوقعها فى شباكها مهما كانت يقظة حذرة عليمة بأنواع الفخاخ جميعًا . . ثم تحرجها الشديد وارتباكها الزائد ، واضطرابها الذى لا حد له . . يوم أن جاءت إلىّ فى الصالة . . وطلبت مقابلتى وقالت إنها تحبنى وتقدر فنى . . وإنها إنما تجىء إلى هذا المكان من أجلى فقط . . ومن أجل أن ترانى . . ونظراتها إلىّ وهى تتحدث إلىّ فى أول مرة . . ونور الفرحة الذى كان يشع من عينيها . . ونبرات الحنان التى كانت ترن فى صوتها . . وهى تتحدث إلىّ . . وتنفذ إلى قلبى ووجدانى وتضفى على مشاعرى إحساساً جميلا بالحياة والدنيا والناس . . كنت لا أستشعر وجوده . . قبل أن تجىء هى إلىّ وتحدثنى وأتحدث إليها . . ثم تلك الرغبة التى كانت تلح عليها إلحاحاً شديداً . . وتود تحقيقها بأى ثمن وهى أن تهبنى كل ثروتها وكل ما تملك . . فقط أترك مهنتى كراقصة . . وأعيش معها بصفة دائمة . . . ثم . . .

واختنقت الفتاة . . بالدموع . . فلم تكمل . . واحتقن وجهها . . وراحت تبكى . . فلم أحاول أن أجعلها تكمل وتستطرد فى هذه الذكريات المريرة . . بل تركتها تبكى كثيراً وتتألم كثيراً وتكتوى بحرقة الدموع ما تشاء . . إلى أن فتت هذا كله كيانها . . وراحت تلتقط أنفاسها التقاطاً كالنار عندما تخبو جذوتها . . ويعلو التراب أنفاسها وتختنق . . ولما غدت

كذلك .. تمتمت هي من تلقاء نفسها واستطردت تلفظ نار تلك الذكرى التي تحرقها . .

ثم تلك الكلمة التي لم أستشعر حقيقتها إلا بعد أن ماتت . . والتي كانت تناديني بها دائماً . . ابنتي . . كلي يا ابنتي . . اشربي يا ابنتي . . نامي يا ابنتي . .

وكنت أستمع إلى الفتاة وهي تنطق هذه الكلمات . . وتسترجع هذه الذكريات .. وأتذكر قولها في أول الحديث : « أحياناً كثيرة لا يستشعر الإنسان حرارة الشمس إلا بعد أن تغيب » وأتعجب من بعض الظروف التي يورطنا فيها القدر . . بحيث يجعلنا أحياناً نرى الذهب حديداً . . والماس زجاجاً . . والبحر العجاج سراباً أو يابسة . . ويجعل أحياناً أكثر الناس إدراكاً لحاسة الإبصار والسمع أعماهم بصراً . . وأغشاهم نظراً . . وأغلقهم عيناً وسمعاً وإحساساً . .

ونظرت إلى الفتاة مرة أخرى وأردت أن أقول لها شيئاً آخر . . وأن أستطرد معها في أحاديث أخرى كثيرة . . ولكني تذكرت شيئاً هاماً قالته لي وكدت أنساه في غمرة هذه الآلام التي جعلتني أعيش فيها حيناً . . وأشاركها فيها حقيقة . . فقلت :

— تقولين بأنك خائفة من أن يقتلك الرجل الذي قتل أمك . .

— نعم . .

— ولماذا يقتلك ؟

ـ ولماذا إذن قتل أمى ؟

فأحسست بالجواب فاحماً . . فقلت :

ـ من تظنين الذى قتلها ؟

ـ لا أعرف .

ـ بعد كل هذه الملابسات التى كشف عنها التحقيق . . ووضحت لك هذا الوضوح . . . أليس فى استطاعتك ولو مجرد الظن معرفة من هو صاحب المصلحة فى ارتكاب هذه الجريمة ؟

ـ لعلك أكثر منى معرفة بالظروف جميعاً . .

ـ أنا أظن أن دسوقى هو القاتل . .

شهقت الفتاة وقالت فى ذعر شديد وهى تتراجع إلى الخلف كمن يباغت بشىء يخيفه :

ـ لا . . لا . . أبداً . . أبداً . .

وأدهشنى صوتها هذا المفاجأ . . وذعرها هذا الشديد . . فقلت :

ـ ما الذى أخافك ؟

ـ هذا القول الذى تقوله . .

فتركتها قليلا حتى هدأت . . وقلت :

ـ وما الذى تستنكرينه فى هذا القول ؟

ـ مجرد هذا الظن الذى تظنه . .

ـ أأنت تستبعدينه . . أم أنك فوجئت به ؟

ـ أستبعده قطعًا . .

فتركتها مرة أخرى قليلا . . ثم قلت :

ـ ما الذى يجعلك تستبعدينه . . وترفضين تصديقه . . بعد كل هذه الحوادث الغريبة التى أثبت التحقيق حقيقتها ؟

ـ إنك لم تعرف دسوقى . . ولم تعرف طهارة خلقه . . ولا كريم سجاياه أو نبل قلبه . . لقد كان هذا الرجل الطيب بالنسبة لناس هذا الزمن . . أشبه بنبى . .

ـ هل كان يخلص لها ؟

ـ كما يخلص العابد إلى معبوده تماماً . . كان لها أكثر من أب . . وأكثر من أخ . . وأكثر من خادم . .

وجعلنى هذا القول أزداد اقتناعاً بما تحدثت به إلى نفسى والنتيجة التى وصلت إليها . . من وجود علاقة بينه وبين المجنى عليها . . ولذلك قلت . . وكنت أعتمد على بعض الخبث فيما أقول :

ـ إلى هذا الحد كان دسوقى يحب المجنى عليها ؟

فقالت الفتاة على الفور دون أن تفطن إلى قصدى :

ـ كان يحبها إلى حد الجنون.. إلى حد أنها إذا مرضت يوماً .. كان المريض الحقيقى هو.. وإذا شفيت ..كان الصحيح المعافى هو.. وإذا حزنت أو غضبت . . كان الحزين هو . . فإذا رآها يوماً ضاحكةأو مبتسمة .. كاد هذا الرجل العجوز يخرج عن وقاره ويرقص طرباًمن فرط فرحته ..

فأحسست بالزهو الذى يحس به من يصدق حدسه . وقلت :

ــ ألم يداخلك شك فى هذه العلاقة ؟

فاكفهر وجهها فجأة وقالت :

ــ ماذا تقصد بهذا القول ؟

ــ أقصد . . أنها أكثر من علاقة بين خادم ومخدومه . .

فازداد وجهها احتقاناً . . وهى تقول :

ــ ولماذا تسىء الظن إلى هذا الحد ؟

ــ ولماذا أنكر هو فى التحقيق أنه يعرفك ؟

ــ ربما لأنه كان يعرف الحقيقة . .

ــ أى حقيقة ؟

ــ أنها أمى . .

ــ ولماذا لم يذكر هذا ؟

فعادت الدموع إلى عينيها وقالت وهى تنظر فى خجل واضطراب كثير إلى الأرض :

ــ هل تريد أن تحقق معى مرة أخرى ؟

فأحسست بأننى نكأت جرحها . . دون أن أدرى . . ولذلك قلت :

ــ إنما أقول هذا فقط لكى أطمئنك بأن الذى قتل المجنى عليها لن يصيبك أنت بسوء .

فقالت وهى تبكى :

— من يدرى ؟

— لأنه مات . .

ففغرت فاها وهى تقول :

— مات ؟ !

— نعم . .

— إذن أنت كنت تعرفه ؟

— عرفته فقط بعد أن قتل . .

— ومن هو ؟

— دسوقى . .

فجحظت عيناها جحوظاً مخيفاً . . وهى تصرخ :

— دسوقى . . هو الذى قتل أمى . . أنا لا أصدق هذا . .

— وأنا أيضا كنت لا أصدقه . .

فقالت وهى لا تزال شبه صارخة :

— وما الذى جعلك تصدقه إذن ؟

— قتل دسوقى . .

— ومن الذى قتله ؟

— لا أعرف . .

ولم أشأ أن أقول لها بأن دسوقى كان عشيقاً لأمك . . وأنه قتلها لما عرف بأن لها عشيقاً غيره . . وأن الذى قتل دسوقى هو هذا العشيق

الثانى . . الذى رأيته أنت بعينيك يتسلل من مخدعها فى الليل . . لم أشأ أن أقول لها هذا . . حتى لا أزيد فى جراحها . . هذه الجراح التى كنت أشعر بمدى آلامها فى نفسها . . ولكنها أدركت قصدى . . لأن صوتها اختنق فجأة . . وقالت وهى تحاول أن تجفف الدموع التى كانت تغرق وجهها :

ـ أرجو أن تذكر . . أنها أمى . . وأنها قد ماتت . . وأن الترحم على الموتى قد يكون ترحماً على الأحياء كذلك . . .

ونهضت لتخرج . . فإذا بى أجد نفسى دون أن أدرى ودون تفكير أيضا . . أمد يدى إلى ورقة أمامى . . وأكتب عليها رقم تليفونى الخاص فى المكتب وأناوله لها . . وأنا أقول . . وكأن كل جارحة فى . . ترجو وتلح فى الرجاء . . أن تتصل بى ثانية . . وتتصل بى فى أى وقت . . وفى أية لحظة تشاء . . وسوف تجدنى دائماً عند حسن ظنها . .

فتناولت منى الورقة . . دون أن تنطق . . لأن صوتها كان لا يزال مختنقاً . . ولما انصرفت ، وغادرت الغرفة . . أحسست بأنها قد أخذت منى شيئاً وانصرفت به . . ولكن‌ما هو هذا الشىء ؟ . . كنت لا أدرى . . .

٩

ظل هذا الإحساس يراودنى زمنا . . ويلح علىّ أياماً . . وكنت كلما مر يوم أحسست به يزداد علىّ إلحاحاً . . وأزداد رغبة فى رؤيتها . . ولولا أننى تماسكت . . لكنت قد ذهبت إليها فعلا ، ولولا أننى أحاسب نفسى دائماً قبل كل خطوة أخطوها . . لكنت قد تصرفت تصرفاً آخر . . ولكنى فكرت . . وفكرت كثيراً وطويلا . . حتى كاد يجهدنى التفكير . . أو هو أجهدنى فعلا . . ماذا أريد من هذه الفتاة ؟ . . وما هو هذا الشىء الذى أخذته منى ؟ . . ولماذا أخذته ؟ وهل هى التى أخذته منى ؟ ! أو أنا الذى أعطيتها إياه . . ومن هو المتسبب فى هذا الفعل . . الذى أخذ . . أم الذى أعطى . . وعلى من تقع التبعة ؟ ! أتقع عليها هى لأنها أخذت ما أخذت . . أم تقع علىّ أنا لأننى أعطيت ما أعطيت ؟ !

وخرجت من ذلك بأن هناك تبعة فعلا . . بدليل حدوث الفعل وهو هذا الشىء الذى أخذ، ولكن الذى لم أستطع الوصول إليه هو السبب أو الأسباب الحقيقية التى دفعت إلى حدوث هذا الفعل . . أهى الظروف القاسية التى التقيت بهذه الفتاة فيها . . أم هو هذا الخلق الطيب الذى أعجبت به . . وهذا الشعور المرهف الذى شفت حساسيته إلى هذا

الحد .. حد هذه الانطباعات التي تترك أثرها في الغير .. واضحة كل هذا الوضوح . . معبرة كل هذا التعبير . . الذى لا تستطيع أن تتركه . . أو تعبر عنه حتى الملائكة نفسها . . أم هو هذا الطهر الأصيل فى جوهره ، الذى لم تزده النار إلا صفاء . . ولم يزده الاحتراق إلا صقلا وحساسية وإشراقاً . .

فكرت فى هذا كله . . وفى غيره أيضاً . . من أحساسيس مماثلة . . تأثرت بها تأثراً كبيراً . . ومع ذلك لم أجد جواباً شافياً أطمئن إليه . . ولذلك وجدتنى أسأل نفسى هذا السؤال المفاجئ . . وكأننى محقق أحقق مع نفسى فى قضية هامة يكاد يتوقف عليها مصير إنسان :

ـ هل أحب هذه الفتاة ؟ !

وشرق حلقى . . وابتلعت أنفاسى . . وتلعثمت ولم أجب . . ولم يكن سبب ارتباكى هذا المفاجئ ، وحالة الاضطراب هذه التى انتابتنى فجأة ، لم يكن مبعثها عجزى عن الجواب . . . لا ، لم يكن ذلك . . وإنما الذى أربكنى إلى هذا الحد وجف له حلقى واضطربت له أنفاسى هو أننى وجدت الجواب . . يأتى سريعاً وبأسرع مما كنت أنتظر . . . و . . . بالإيجاب . .

* * *

إذن أنا أحب هذه الفتاة فعلا . . وإذن فأنا المتسبب فى الفعل . . لأننى أنا الذى أعطيت وأعطيت شيئاً غالياً . . أعطيت قلبى . . وأعطيته

طواعية . . وعن طيب خاطر . . وبلا أدنى مساومة أو فصال . . أو تأثير . . بل حتى دون علم منها أنها أخذت شيئاً . .

ولكن كيف حدث هذا ؟ ! وكيف أجرمت هذا الجرم . . بحيث إنى أدس فى يد إنسان شيئاً دون أن يدرى . . شيئاً قد يضر به . . قد يزيده آلاماً فوق آلامه . . ومتاعب فوق متاعبه . . وحتى إن لم يكن ذلك . . حتى لو رحب به . . حتى لو طرب له ورضى عنه . . أفليس هذا فيه تغرير بالغير . . وأى تغرير أكثر من ذلك: تهب لإنسان هبة . . لست أنت وحدك صاحب الحق فى التصرف فيها . . إنها ملكك حقيقة . . لأنها قلبك . . ولكن هذا القلب . . هناك كثير من مقومات حياته الأخرى . . لها الحق فيه . . مثلك تماماً . . مجتمعك . . عملك . . أسرتك . . أبوك . . أمك . . مركزك كقاض . . أكل هذا يجعلك تفرط فى هذا الشىء بهذه السهولة التى فرطت بها أنت . . تبيح لك أن تحب راقصة . . تتزوج من راقصة . . تظهر مجرد الظهور فى المجتمعات مع راقصة . . مع فتاة أنت تعلم قبل سواك . . أنها ابنة سفاح . . ابنة زنا . . ابنة خطيئة . . أمها بغى . . عشقها رجل . . وعشقت غيره . . وماتت وهى تتمرغ فى الوزر . . غارقة فى حمأة الرذيلة . . وأبوها سواء كان دسوقى أم غيره . . هو رجل مجهول . . إلا من الإثم الذى يدل عليه . . والوزر الذى ارتكبه . . والخطيئة التى تشير إلى وجوده . .

وإذا أنت تغاضيت عن هذا كله . . وضربت به عرض الحائط . . وتحللت من كل القيم . . مجتمعك الذى تعيش فيه . . . أسرتك التى تنتمى إليها . . مركزك الذى تفخر به . . إذا أنت تغاضيت عن هذا كله . . وألقيت به خلف ظهرك . . وتحللت منه . . فكيف تتحلل من ضميرك . . عندما تحنث باليمين المقدسة التى أقسمتها على احترام المهنة .. والمحافظة على قدسيتها . . إذا ما جعلت مطية رغباتك تعبر طريقها فوق جسر المهنة التى أقسمت اليمين على احترامها . . بأن تحب متهمة . . كنت أنت تحقق معها فى إحدى القضايا . . ولو لم تكن مهنتك كمحقق أفكنت تعرفت على هذه الفتاة وأحببتها ؟ .. وهل معنى ذلك أنه من حقك ومن حق أى محقق آخر أن يحب عشرات الفتيات والنساء اللواتى يقفن أمامه فى تهم مماثلة . . أو غير مماثلة ؟ !

إنها الآن قد زالت عنها هذه الصفة . . ولم تصبح متهمة . . وإنما هى الآن حرة طليقة . . شأنها شأن أية فتاة أخرى . . من حقك أن تحبها وأن تتدله فى حبها . . وتتزوجها . .

إن هذا قول تغالط به ضميرك فقط . . أو أن ضميرك الذى سكت عن هذا الجرم هو الذى يغالطك بهذا القول . . وإلا فماذا يكون موقفك . . لو أنك أحببتها وتزوجتها . . ثم لأمر ما أعيد التحقيق فى هذه القضية . . واتضح لك أن هذه الفتاة هى القاتلة . . هل تتجرد لحظتها من ضميرك . . وتحنث بقسمك . . وتخون الأمانة . . وتخرجها

من التحقيق نظيفة اليد من الدماء التى تلوثت بها . . أو أنك ستقدم رأسها للمشنقة ؟ . . وهبك فعلت . . وكان لك منها أولاد . . وجاءوا يوماً يسألونك عن أمهم . . هل يصمد ضميرك للسؤال . . أو أنه سيغالطك كما يريد أن يغالطك الآن . . وكما غالطك من قبل . . عندما كانت صفة الاتهام لا تزال قائمة وكانت تقف أمامك كمتهمة . . وأنت تجلس أمامها كمحقق . . ومع ذلك . . وباسم العطف . . والشفقة . . واستنكار الظلم . . وما إلى هذه المعللات التى تختفى وراءها رغباتنا الحقيقية .. عندما تجابهنا ضمائرنا . . إذا ما ثبت أنك حدت عن طريق الحق . . والقانون . . والعرف . . وتقاليد التحقيقات . . وأنفقت عليها من مالك . . وأعطيتها نقوداً مما تملك . . وسألت عنها فى السجن . . وأمرت بتهيئة أسباب الراحة لها فيه . .

وسمعت صوتاً فى أعماقى يصرخ :

— إذن أنا كنت أحبها حين ذاك . .

— ومنذ أن وقعت عينك عليها . .

وبرغم أن هذا الصوت الذى صرخ فجأة من أعماقى أرعبنى كثيراً . . إلا أن الذى أرعبنى أكثر أننى وجدته يتلاشى فى نفس الأعماق ويلوذ بالصمت والصمت المطبق . . مما جعلنى أتوجس خيفة . . وأخشى أن يستيقظ ثانية ويغرقنى فى هذه الدوامة . . التى أرعبتنى هذا الرعب . .

* * *

لكن هذا لم يحدث .. فقدخرجت من هذه المعركة منتصراً .. وبدأت أقدر أشياء .. كنت لا أقدرها .. وأسعد بأشياء كنت أشقى بها .. فقد كنت أظن أنه من أشق ما يشق الإنسان هو محاسبته لنفسه . . هذا الحساب العسير . . على كل صغيرة وكبيرة . . وقبل كل فرسخ يقطعه أو حتى خطوة يخطوها . . ولكن بعد أن خرجت من هذه المعركة . . التى حاسبت نفسى فيها هذا الحساب المرير . . أحسست بسعادة بالغة لهذه النتائج التى وصلت إليها . . وهذه الخطوة الأولى التى وقفت عندها . . وسددت بها ذلك الطريق الشائك الذى كنت سأخترقه بجهالة غير فطن إلى هذا الشوك . . الذى على جانبيه . . والذى كنت من غير شك سوف لا أفطن إليه أبداً إلا بعد أن تدمى قدمى . . وأعود مثخن الجراح .

ومرت الأيام . . وظل الصمت مطبقاً . . حتى عششت العناكب على كل شىء وحجبته فى عالم النسيان . . فنسيت كل شىء . . حتى ذلك الشىء الذى كان قد أخذ منى أو الذى كنت قد أعطيته ؛ فقدأصبح الأمر سواء . . سواء الذى أخذ والذى أعطى . . الذى باع والذى اشترى . . طالما أن السلعة قد بارت . . وأصبحت غير ذات موضوع . . وكما هى عادتى غرقت فى دوامة العمل . وحققت عشرات القضايا . . وقدر لى النجاح فى أكثرها . . مما جعلنى أنسى متاعبى جميعاً . . حتى متاعب الذكرى أيضاً نسيتها ولم أعد أذكرها . . إلا كما يذكر المسافر بعض المناظر الجميلة أو القبيحة التى مرت به .

وظللت كذلك . . إلى أن فوجئت ذات يوم بأنني إنما وقعت في ضلال كبير . . وأن هذا النسيان الذى عشت فيه كل هذه الأيام . لم يكن إلا نوعاً من التخدير . . وأنني ما زلت أحب هذه الفتاة . . وأن هذه الأيام التى مرت . . وهذا النسيان الذى كنت قد ظننته لم يكن إلا ستاراً . . احتجبت خلفه مشاعرى . . حتى ينمو هذا الغرس . . وتمتد جذوره بحيث لا أستطيع اقتلاعها إذا أردت . . وقد اكتشفت هذا فجأة وبلا قصد منى أو رغبة فى اكتشافه . . فقد حدث أن اتصل بى صديق عزيز من الزملاء . . وأخبرنى بأن صديقاً ثالثاً لنا من الزملاء أيضاً . قد صدر أمر ترقيته . . وأنه يجب أن نقيم له حفلا بمناسبة هذه الترقية وأن يقتصر الحفل على ثلاثتنا . . باعتبارنا أقرب الأصدقاء إليه . . وطلب منى أن أحدد له المكان الذى سنقضى فيه سهرتنا . . ووجدتنى دون أن أفطن إلى ما أقول أو أفكر فيه أو حتى أتريث فى القول . . أختار له المكان . . وأصر عليه بالذات وهو الملهى الليلى الذى ترقص فيه زينات فى طريق الهرم . . لنقضى فيه سهرتنا . . والغريب أنه عندما وافق . . فرحت كثيراً وفرحت فى جنون . . حتى إننى رحت أعد الساعات الباقية على لقائنا والذهاب إلى هناك . . ولما التقينا . . أحسست وأنا أدخل معهما إلى هذا الملهى لأول مرة فى حياتى . . أننى إنما أدخل الجنة . . ولذلك جلست معهما إلى المائدة أتحدث وأتندر . وأضحك على غير العادة فى ابتهاج شديد . . وفرحة زائدة . . تكاد تنطلق نوراً من عينى تبحث فى

أركان الملهى . . عن الفتاة . . وكنت أصور وأنا أجلس معهما إحساسى عندما أراها . . أو إحساسها هى . . ومشاعرها عندما ترانى فى الصالة وتقع عينها على بين الرواد . . وهى ترقص فوق خشبة المسرح . . وأحسست بشىء من الضيق . . وظللت زائغ النظرات . . أبحث عنها يميناً وشمالا . . وأردت أن أسأل عنها أحد الخدم . . ولكنى تحرجت من السؤال لوجود من معى وأيضاً لوجود بعض الزملاء من القضاة ووكلاء النيابة . . يجلسون إلى المائدة القريبة منى مع زوجاتهم . . وأحسست أنى إذا سألت عن راقصة . . ارتكبت عملا مشيناً . . وقام صراع بيني وبين نفسى . . حتى إننى فكرت فى أن أذهب إلى خارج الصالة . . وأنتحى ركناً بأحد الخدم وأبعثه إليها بورقة منى وأقول لها إننى فى الصالة وإنى أريد رؤيتها بعد أن تنتهى من رقصتها . . ولكنى لا أريد رؤيتها فى الصالة . . حتى لا يرانى أحد معها وأترك لها هى أن تحدد لى المكان الذى سأراها فيه . . ففكرت فى هذا لدرجة أنى كدت أهم بتنفيذه . . لولا أنى استهجنت هذا الفعل . . واعتبرت هذا التصرف نزقاً لا يتفق مع شخصى أمام أحد الخدم . . مهما كان هذا الخادم والنية الحسنة التى ينطوى عليها تفكيره . . وتريثت . . وانتظرت حتى تظهر على المسرح وقلت لعلها عندما ترانى وهى ترقص تتصرف هى نفس التصرف . . وتعفينى من هذا الحرج أمام خادم من الخدم . . . غير أن الذى حدث شىء غريب لم أكن أتوقعه . . فقد حل موعد النمرة الراقصة وأعلن عنها فى المايكروفون . . كما هى

العادة . . وإذا بالاسم غير الاسم . . وإذا بالتي ترقص غير زينات . . وشعرت بضيق شديد لا حد له . . وظللت طوال السهرة . . مشغول البال . . أعيش بعيداً عن نفسي . . وعن اللذين معي . . ولولا بعض من عقل . . وبقية من تريث . . لافتضح أمري . . وعرف من معي . . لماذا جئت بهما إلى هذا المكان بالذات . . ومن غير شك أن معرفة هذا كان سيسيء إلىّ كثيراً . . وظللت أفكر في أشياء كثيرة . . لم تكن لتخطر لي على بال من قبل . . ولم أكن لأصدق أنه سيأتي اليوم الذي يجعلني أنا بالذات أفكر فيها . . وعندما بدأ الليل ينتهي . . وينتهي معه هذا الحفل الساهر . . الذي كان إمتاعاً لجميع من شارك فيه إلا أنا . . أحسست بما يشبه الاختناق تماماً . . إذ كيف أنصرف دون أن أعرف لماذا هي غائبة ؟ أو لماذا لم تجئ هذه الليلة .. وهل تغيبت هذه الليلة فقط .. أو هي غائبة منذ أيام . . وهل هذه هي أول مرة تتغيب فيها . . أوهي متعودة أن تتغيب بين الحين والحين . . وهل هي مريضة . . وهذا هو سبب امتناعها عن الحضور الليلة . . أو أن هناك ما شغلها عن الحضور . . وإذا كان كذلك . . فما هو يا ترى هذا الشيء ؟

١٠

أحسست برغبة شديدة فى أن أعرف شيئاً . . أى شئ . . . ومع أن الخداع ليس من خلق . . وحتى إذا أردت أن أخادع . . فأنا لا أعرف . . مع ذلك لجأت إليه . . والغريب أننى نجحت فيه نجاحاً لا بأس به . . نجاح من تعود تجربته على الأقل . . فقد تعمدت أن أترك علبة سجائرى وولاعتى الذهبية على المائدة . . عندما انصرفت مع الصديقين . . وفى أسفل السلم تذكرتهما . . . فتركت من معى فى هذا المكان البعيد . . وعدت إلى المائدة . . فوجدت أحد الخدم يحتفظ لى بهما . . فشكرته وأظهرت له سرورى لأمانته . . وانتهزت هذا الظرف المواتى . . وأنقدته مبلغاً ، وسألته على الفور . . ولكن دون أن يفطن إلى أهمية السؤال . . عن زينات . . ولماذا لم تجئ الليلة . . وترقص فى الملهى كعادتها . .

ولما قلت له ذلك . . ارتسمت علائم الأسف على وجهه . . وقال فى صوت حزين . . وكأنه يتحدث عن إنسان عزيز مات :

ـــ لقد طردوها من المحل .

فاندهشت على الرغم منى . . وظهر الاستغراب واضحاً على وجهى . . وقلت :

— طردوها . . ولماذا ؟ !

— كانت قد اتهمت فى جريمة قتل . . وقبض عليها وسجنت أياماً . .

فتجاهلت . . وقلت له :

— قتل من ؟ !

— قتل سيدة من أسرة كبيرة جداً . .

— ولكنها . . على ما سمعت برئت من التهمة . . وخرجت من السجن .

فقال الرجل فى سذاجة الشرقى الطيب القلب :

— لكن المحل يا سعادة البيه . . يجب أن يحافظ على سمعته . .

فتركته وانصرفت . . ولا أدرى ماذا حدث لى . . ولا ما هى الأفكار والهواجس التى عشت فيها فى هذه الليلة . . ولا فى الأيام التى أعقبتها . . وإنما الذى أدريه هو أننى كنت أشعر برغبة لا تقاوم فى رؤيتها . . وفكرت فى أكثر من سبيل إلى ذلك . . فكرت فى أن أذهب إليها فى بيتها . . ولكن إذا فعلت . . فهل تستقبلنى استقبالا حسناً . . أو هى ستمتنع عن مقابلتى . . وتظن فى ظناً سيئاً . . ومن حقها أن تظن هذا الظن.. ومن حق أى إنسان غيرها أن يظن هذا الظن أيضاً .. وإلا فما هى الدوافع والأسباب التى تدفع شاباً مثلى لزيارة فتاة جميلة فى بيتها . . وقد انقطعت جميع الرسميات التى كانت تربط صلته بها . . وهبها كانت أكرم خلقاً . . من أن تظن هذا الظن السيئ الذى لم يخطر لى على بال . . ولن يخطر لى يوماً على بال . . أليس مجرد زيارتى لها فجأة فى بيتها

وبلا مقدمات . . أو سابق موعد . . كفيلاً بأن يثير الرعب فى قلبها . . ويجعلها تسقط مغمياً عليها ، كما حدث لها أثناء التحقيق . . إذ ستظن قطعاً أننى جئت لأقبض عليها ثانية . . وأحقق معها مرة أخرى . . ثم أنا . . أنا شخصياً ماذا سيظن الناس . . لو تصادف ورآنى أحد يعرفنى . . أو وقف أمامى يوماً فى قضية . . أو كان يدخل العمارة أو يخرج منها . . أو هو قاطن فيها ورآنى أطرق باب راقصة . .

واستبعدت هذه الفكرة نهائياً . . ورفضتها رفضا باتاً . . ورحت أفكر فى غيرها . . كأن أبعث لها رسولاً مثلا . . يخبرها بأنى أريد أن أراها مجرد الرؤية . . لكى أطمئن عليها فقط . . ولا سيما بعد أن عرفت أنها تركت عملها . . وأترك لها هى تحديد المكان والزمان الذى تريد . . وحتى هذه الفكرة أيضاً استبعدتها . . ولم أعد أفكر فيها ثانية . . لا لأنها محفوفة بالمخاطر . . كالفكرة السابقة . . ولكن لأننى لم أجد هذا الرسول الذى يؤمن بطهارة أخلاق الناس . . وحسن نواياهم .

ومرت عدة أيام . . أتعبنى التفكير فيها كثيراً . . وبدأت أشعر بكراهية لا حد لها لهذا المجتمع الذى نعيش فيه . . والذى يفترض السوء أولا . . ويفترضه فى كل شىء . . بحيث يجعلك تحتاج إلى جهد قد يفوق جهد الأنبياء . . لتقنعه بالنية الحسنة . . وهذا بلاء كبير . . يصاب به الخلق فى الصميم . . لأن عهد الأنبياء قد انقضى . . ولذلك فأنت لكى تصل إلى ما تريد وتحقق رغباتك مهما كانت سامية . . يتحتم

عليك أن تفترض السوء أولا . . وإن أنت افترضت السوء . . كنت سيئاً . .
أو تصبح على الأقل كالآخرين . . وأنا لا أريد أن أكون كذلك . .
حتى مع نفسى على الأقل . . ولذلك أجهدت نفسى كثيراً لكى أهتدى
إلى الطريق الذى يوصلنى سالماً إلى ما أريد . ومكثت كذلك إلى أن حدث
ذات يوم أن كنت أقود سيارتى فى أحد الشوارع الهامة . . فى طريقى إلى
مستشفى كبير معروف لزيارة مريض هناك . . غير أننى فى وسط المسافة
وجدت الطريق معطلا . . بسبب حادث تصادم ضخم انقلبت على أثره
إحدى عربات الترام وتحطمت سيارة كبيرة وتناثرت أجزاؤها .. فاضطررت
للعودة واختراق طريق آخر كنت لا أعرف مسالكه جيداً . . ولذلك
كنت بين الحين والحين أضطر للسؤال أو قراءة لافتات الشوارع . . إلى
أن تصادف وقرأت لافتة تحمل اسماً لشارع أذكره جيداً . . وأذكر أن
اسمه تردد أمامى أكثر من مرة . . وأذكر غير هذا . . إن ذاكرتى ما زالت
تحتفظ به إلى الآن . . وتحفظه عن ظهر قلب . . إنه نفس الشارع
الذى تقطنه زينات . . ووجدتنى فى تلهف زائد أتلفت على الرقم ١٤
والشقة الثانية من اليمين التى تطل على الشارع . والغريب الذى اندهشت له
هو النزق . . والطيش . . والرعونة التى كنت فيها . . وأنا أتلفت ذات
اليمين وذات الشمال باحثاً عن هذا الرقم بالذات وهذه الشقة بعينها . . تماماً
كما لو كنت أعتقد أننى إذا تريثت فى البحث لحظات . . انتقل الشارع
من مكانه . . وأقفرت معالمه واندثرت المساكن التى فيه . . ومع ذلك

عندما بلغت الرقم ١٤. ووقفت أمام العمارة ورأيت بعيني الشقة الثانية. من اليمين المطلة على الطريق . . لم أفعل شيئاً ولم أحرك ساكناً . . وكل الذي فعلته هو أنني أوقفت السيارة فعلا . . وهبطت منها حقيقة . . ولكني لم أتجه إلى تلك العمارة ولم أطرق باب تلك الشقة الثانية على اليمين . . وإنما اتجهت إلى حانوت أمام العمارة مباشرة واشتريت علبة سجاير أضفتها إلى العلبتين اللتين في جيبي . . ومن ثم ركبت سيارتي وانصرفت على الفور . . .

غير أن هذا الحادث أفادني من غير شك فائدة كبيرة . . فقد اكتشفت وأنا أشترى علبة السجاير أن بجانب الحانوت وأمام مدخل العمارة مباشرة مطعماً فاخراً ، عرفت فيما بعد أنه اشتهر بتقديم أجود أنواع السمك . . وقد لاحظت على رواده أن أكثرهم من علية القوم . . وأن مثلي لا يشعر بحرج إن هو جلس وتناول طعامه فيه . . وكان مبعث سروري في هذا هو أنني لو تناولت الغداء يوماً في هذا المطعم . . وجلست فيه أكبر وقت ممكن بحجة تناول الطعام . . فربما شاهدتها . . وهي تدخل العمارة أو تخرج منها أو رأيتها وهي تعبر الطريق مادام أنه يتحتم عليها أن تعبر هذا الطريق بالذات . . ومع أنني بطبعي لا أحب هذا اللون من الطعام . . وأشعر بأن السمك بالذات يسبب لي متاعب صحية كثيرة . . فقد كنت ممعوداً . . وكانت معدتي مدللة إلى حد الإزعاج . . ومع ذلك ما كاد يأتي ظهر اليوم الثاني وأفرغ من عملي حتى أسرعت إلى هناك . .

وكما أن الآلام – إذا كثرت – تعلمك الصبر والأناة وقوة الاحتمال . . فكذلك الحب إذا طغى . . يعلمك المكر والدهاء . . ويفتق ذهنك عن أفكار كثيرة صائبة . . فقد تعمدت أن أوقف سيارتى أمام مدخل العمارة بالذات وليس أمام المطعم . . لأن ذلك يحتم علىّ أن أعبر الطريق ذاهباً وأن أعبره عائداً . . وقد يحقق هذا الحدث الذى أنتظره . . وتحقيق الصدفة التى أبنى عليها الكثير من الآمال . . ولما دخلت المطعم . . تعمدت أيضاً أن أختار مائدتى بجوار النافذة المطلة على الطريق . . بحيث تكون الشقة الثانية على اليمين فى مواجهتى تماماً . . وبحيث أرى العابرين جميعاً . . ومن يدخل العمارة أو يخرج منها بالذات . . ومن ثم جلست أتناول طعامى الذى لم أر له لوناً . . ولم أعرف أهو سمك أم غيره ... فقد كانت نظراتى مشدودة إلى الشقة ونوافذها المغلقة التى يرين عليها الصمت وتكتنفها الوحشة، والتى لولا الشرفة وبعض المقاعد التى فيها لظننتها خالية مهجورة من زمن بعيد مما جعلنى أحس بالضيق . . وجعلنى أيضاً أفكر فى العودة إلى ما كنت قد صرفت النظر عنه . . وهو أن أبعث إليها برسول يخبرها بوجودى فى هذا المطعم المجاور لبيتها وأطلب استدعاءها إلى . . وفكرت فعلا فى أن أبعث إليها بأحد من الخدم الذين فى المطعم، ولعل الذى شجعنى على ذلك صبى صغير كان ضمن الذين يقومون بالخدمة فى المطعم . وقد توسمت فيه الذكاء وارتاحت نفسى إليه . . وإلى الابتسامة التى تعلو ثغره دائماً . . مما جعلنى ألاطفه وأسأله عن اسمه . . ولكنى

لم أفعل . . وكل الذى فعلته هو أننى بعد أن جلست ما يزيد على الساعتين تناولت خلالهما طعامى على مهل ممل وشربت أكثر من فنجان من القهوة لأطيل جلستى دون فائدة . . وجدتنى أضع فى يدى هذا الصبى مبلغاً كبيراً من المال وأنصرف . .

ترى هل أدخر أنا هذا الصبى لشىء ؟ ؟ !

وكثر ترددى على هذا المطعم بعد ذلك . . وكنت أتناول فيه طعامى كل يوم ، وأجلس إلى تلك المائدة بالذات التى هى فى مواجهة الشقة الثانية على اليمين ، المطلة على الطريق . . حتى إن الخدم تعرفوا علىّ وكانوا من كثرة ما أجزل لهم فى العطاء ولا سيما ذلك الصبى الصغير الذى لا تفارق الابتسامة شفتيه يحرصون على إعداد هذه المائدة لى بالذات ، وقد نتج عن ذلك . وعن السمك الذى كنت آكله كل يوم ، أن أصبت بنزلة معوية حادة . . ومع ذلك لم أصل إلى نتيجة . . . فالنوافذ مغلقة بصفة دائمة . والصمت يطبق عليها من كل جانب ، وكما قدمت ، لولا بعض المقاعد التى كانت فى الشرفة والتى كانت تستبدل أماكنها من حين إلى آخر . . لظننت أن الشقة فارغة ، ومع ذلك لم أيأس . . ولم أقطع الأمل . وما كنت أحسب أبداً أن المحب يهون عليه العذاب إلى هذا الحد . . فقد كنت أحتمل هذا كله بهدوء غريب ، وظللت كذلك إلى أن اتخذت مجلسى من المائدة ذات يوم . . وراح ذلك الصبى الصغير الذى كنت أخاله من فرط فرحته بلقائى يكاد برغم صغر سنه وضعف بنيته

يحملنى فوق كتفيه حتى يجلسنى فوق مقعدى أمام المائدة . . وجلست فى هذا اليوم كما هى العادة أتطلع إلى الطريق . . وأتفحص المارة فرداً فرداً . . وكلما رأيت فتاة أو سيدة تقبل من بعيد وترتدى ثوباً يقارب لونه الثوب الذى كانت ترتديه زينات عندما قبض عليها وقدمت لى لأحقق معها . . خفق قلبى . . وأحسست بفرحة غامرة يعقبها فى الحال ضيق شديد عندما لا أجدها هى . . وأروح بين الحين والحين أيضاً . . أتطلع إلى النوافذ المغلقة ومتمناى لو أن نظراتى استطاعت أن تخترق هذه الحجب وتنفذ إلى الداخل وترى الفتاة رؤية العين . .

وبينما أنا كذلك . أحسست فجأة بأن شيئاً ما سوف يحدث الآن . . وقد جعلنى أومن بأن القلب يرى قبل العين أحياناً وأنه فى كثير من الحالات . . تسبق مشاعره وأحاسيسه سرعة النظر . . فقد رأيت على حين فجأة باب الشرفة يهتز من الداخل وكأنه يريد أن ينفتح . . ولكن فى حذر . . وقد فتح فعلا . . وفى حذر شديد أيضاً . . وانفرج عن قدر تستطيع العين من الداخل أن ترى منه ما تريد . . وكأن هذه العين اطمأنت إلى أن أحداً لا يراقبها لأن الباب فتح بعد ذلك رويداً . . فدق قلبى دقات سريعة . . ومن الغريب أنه ظل يدق بل تزايدت دقاته حتى بعد أن فتح الباب على مصراعيه وظهر منه شاب وسيم أنيق الملبس فى ثياب فاخرة . . وتناول فى سرعة شيئاً ما كان فوق مقعد فى الشرفة ثم ارتد وأغلق الباب خلفه سريعاً تماماً كأنه لا يريد لأحد أن يراه . . أو يعرف

أنه الآن داخل هذا المسكن .

من المؤكد أنى رأيت ذلك تماماً . . ورأيته بعينى . . ومما زادنى تأكيداً هو قلبى الذى ظلت ضرباته تدق طوال الليل وكأنها أجراس الهزيمة تدق فى أذن جيش منكسر يتراجع . . ومع أننى فكرت كثيراً إلا أننى لم أكن محتاجاً إلى جهد كبير لتسويغ وجود هذا الشاب فى مسكن الفتاة . . فهى كما وضح لى أثناء التحقيق معها أن ظروفها المالية ليست طيبة وأنها لم تدخر مالا تستطيع أن تنفق منه عند الحاجة وأنها لم تكن تملك غير راتبها المحدود الذى تتقاضاه من الصالة التى تعمل بها كراقصة ، وحتى هذا الراتب كان لا يكفيها لنهاية الشهر بدليل أنها عندما قبض عليها كادت تموت جوعاً لأنها عافت طعام السجن ولم تكن تملك نقوداً تشترى بها ما تريد مما أثار عطفى عليها وجعلنى أنفق عليها طوال مدة إقامتها فى السجن تحت التحقيق من مالى الخاص ، ومما لا شك فيه أنه لما انتهى التحقيق معها وأطلق سراحها كانت تعتمد على عملها فى الصالة ، ولكنها طردت من عملها ، وطردت وهى لا تملك مليما واحداً . وكان لابد لها أن تعيش وأن تأكل وألا تموت جوعاً ، ولا بد أنها احتملت كثيراً وعانت الفاقة كثيراً ولكنها لم تحتمل . . لم تحتمل الفقر الذى يبلغ بالإنسان إلى حد الجوع . وليس من أحد فى الوجود يستطيع أن يحتمل ذلك . : يحتمل الفاقة . . يحتمل هذا الفقر المدقع .. إن الفقر شىء بغيض .. شىء كريه .. رحم الله علىّ بن أبى طالب حين قال : « لو كان الفقر رجلا لقتلته » ، ولكنه

من سوء حظ الإنسانية أنه غير متيسر قتله .. لأنه ليس رجلا .. ومعنى ذلك أنه قادر على تعذيبنا دون أن نستطيع نحن حتى أن نمسه . . أن نراه . . وكيف نرى أو نمس شيئاً لا وجود له إلا فى كياننا الداخلى فقط . . وما يصنعه فى هذا الكيان من عذابات . . ومن غير شك أنها فكرت فى هذا كله وعاشت تحت وطأة عذاباته التى لا تحتمل والتى لم يقدر على احتمالها حتى الرسل . ولذلك سقطت صريعة تحت وطأته وانحدرت من فوق القمة إلى هذا المنحدر . . إلى هذا المستنقع . . إلى هذا الشاب تبيع له جسدها لكى تأكل . .

مسكينة المرأة . . إن الرجل إذا تكاثرت عليه ذئاب الفقر ، وأوجعته حدة أنيابها وهى تنغرز فى أضلاعه . . وجد ما يدفع به هذه النار عن نفسه أو على الأقل ما يهدئ من اشتعالها . . وجد قوته يحفر بها الأرض . . أو يحمل عليها الأثقال كما تحملها الدواب تماماً . . وشقاء أقل من شقاء .. وعذاب أهون من عذاب . . ونار تحرق ذراعاً أو كتفاً . . أهون من نار تأكل الجسم كله . . أما المرأة فإذا أعوزتها الحياة إلى ضرورة البيع فهى لا تملك غير جسدها تبيعه . . ومن سوء حظها أنه سلعة رائجة ما من أحد إلا ويطمع فى شرائها ويدفع فيها الغالى من الثمن . . والنفيس من المال . . وتعجبت من نقائض هذا المجتمع الذى يطرد فتاة من عملها الذى تقتات منه لأنها اتهمت مجرد تهمة ظالمة من الجائز أن يتهم بها أى إنسان غيرها ، فى حين أنه يبيح لهذه الفتاة بالذات أن تعرض جسدها عارياً على

الناس وهى ترقص وأن تساوم علانية على هذا الجسد وأن تبيعه فى السوق لمن يدفع الثمن أكثر . . وأن يبيح فى أكثر الأحيان وهو راض مطمئن صفقة هذا البيع ، ويجيز عملية هذا الشراء . .

وارتسمت أمام عينى صورة تقرير الكشف الطبى على الفتاة الذى طلبت توقيعه عليها أثناء التحقيق والذى أثبت أنها عذراء ، كما ارتسمت بجانبه تماماً صورة ذلك الشاب الأنيق الذى رأيته بعينى فى مسكن الفتاة وأحسست بشىء فى صدرى يريد أن يتمزق . . إن التبعة من غير شك تقع علىّ أنا وحدى دون سواى لأننى لو اتصلت بالفتاة عقب الإفراج عنها ولم أتردد هذا التردد السخيف الذى كان يشبه تردد الأطفال تماماً لكنت عرفت على الأقل أنها طردت من عملها ، وكنت مددت لها يد المساعدة ، وكنت بذلك أنقذتها من هذه الهاوية التى تردت فيها . . وحلت بينها وبين هذا المنقلب الذى انقلبت إليه ، وكان هناك أكثر من سبب يدفعنى إلى القيام بهذا العمل الإنسانى البحت . . الخلق الطيب الذى وجدت الفتاة عليه . . الظلم البين الذى لحق بها دون ذنب أو جريرة . . الصدمة العنيفة التى هزت كيانها وكادت تطيح بها عندما عرفت أصل مولدها . . وحقيقة الجريمة التى جاءت عن طريقها إلى هذه الدنيا . . وهذا البؤس الذى عاشت فيه طوال حياتها تئن تحت ثقل مرارته . . وهذه النار التى ظلت فى قلبها كل هذا العمر الطويل . . ومع ذلك خرجت منها سليمة معافاة . . لم يحترق معها حتى ظفر . . كما ثبت ذلك رسمياً فى

تقرير الطبيب الشرعى . . وأخيراً هذا الشيء الذى كنت أنا الوحيد دون سواى الذى يعرفه أيضاً وهو الإلقاء بها فى خضم هذه الدنيا بعد إطلاق سراحها دون أن تملك قرشاً فى يدها . .

فكرت فى كل هذا . . ثم أحسست بأن ذلك الشيء الذى كان يريد أن يتمزق فى صدرى ينفجر باكياً وتغرقه الدموع كما أحسست ولعل ذلك لشعورى بالخطأ البالغ حد الجرم الذى ارتكبته فى حق هذه الفتاة . . أحسست بأننى إنسان آخر . . يختلف عن الإنسان الذى كنته تماماً . . إنسان عنده من الجرأة أن يفعل ما يريد . . وعنده من الإيمان الثابت بطهارة خلقه وحسن نواياه أن يضرب صفحاً عن الـ « أنا » وقدرى ومركزى ووظيفتى ومجتمعى وأبى وأمى وأسرتى وما إلى ذلك جميعه فى سبيل إنقاذ هذه الفتاة واللحاق بها قبل أن تأتى النار عليها جميعاً وتتركها رماداً . . وليس فى هذا ما يشيننى أو يشين الفتاة . . فالجرح الذى أصيبت به لم يكن عن قصد منها وإنما أرغمتها قوة خارجة على إرادتها أن تعرض نفسها إليه وتطعن نفسها به . . وما من أحد فى الوجود يمسك بسكين ويطعن بها نفسه إلا إذا كان الموت أحب إليه من هذه النفس . . وأنا موقفى معها فى هذه الحال سيكون موقف الطبيب الذى يعرف مكان الداء، وإذا عرف الطبيب مكان الداء ضمن الشفاء وضمن للمريض البرء منه نهائيًّا، وما من إنسان له ضمير وفى استطاعته أن يشفى إنساناً ، يتخلى عن هذا الواجب .

ولذلك كان أول شيء فعلته هو أنني ذهبت في ظهر اليوم الثاني وفي نفس الموعد المحدد . . لذهابي كل يوم إلى المطعم . . الذي يواجه العمارة التي تقطن فيها الفتاة وجلست على المائدة نفسها وقد عزمت على أن أفعل شيئاً بالذات . . ولذلك رحت كما هي العادة أتطلع إلى الشقة الثانية على اليمين المطلة على الطريق وإلى نوافذها المغلقة كما هي العادة كل يوم والشرفة التي لم يتغير فيها شيء أو حتى تزحزح مقعد من مكانه . . غير أنني لا أنكر أنني في هذا اليوم كنت أنظر إلى هذه النوافذ المغلقة وأشعر بما يشبه أنياب الثعابين الصغيرة تنغرز في صدري وتقطع في نياط القلب وازددت إحساساً بهذه الآلام أنني بعد أن جلست بدقائق رأيت سيارة أنيقة حمراء تحمل رقماً التقطته سريعاً تقف أمام مدخل العمارة بالذات وخلف سيارتي مباشرة ويهبط منها ذلك الشاب الوسيم الأنيق الذي رأيته بالأمس في شقة الفتاة .. ورأيته أكثر وسامة وأناقة عنه بالأمس ، ورأيته يحمل بعض اللفافات بين يديه واستطعت أن أتبين إحداها وأعرف من طريقة لفها ومن الزجاجة البارزة من اللفافة أنها زجاجة من الخمر . . وبعد أن أغلق السيارة أسرع بالدخول إلى العمارة وهو يتلفت حواليه كما كان يفعل تماماً وهو يخرج إلى الشرفة أمس وكأنه لا يريد لأحد أن يراه . .

رأيت ذلك كله بعيني هذا اليوم أيضاً . . وكدت أتهاوى في مكاني وكان السمك اللعين قد قدم إليّ . . فلم أشأ أن أنظر إليه ثانية . . فقد

تبدى لعينى أشبه بالثعابين التى تنهش فى صدرى والتى ازددت إحساساً بآلامها بعد أن رأيت الشاب بعينى يدخل بيت الفتاة . .

وكان الصبى الصغير الذى لا تفارق الابتسامة ثغره يروح ويجىء حولى وكأنه كلب أليف يبصبص لى بذنبه ، وما إن رأيته حتى واتتنى فكرة نفذتها سريعاً لكى لا أعود فأتقاعس عنها وأخرجت ورقة وقلماً من جيبى وكتبت للفتاة ما معناه أننى الآن فى المطعم الذى يقابل بيتها مباشرة ، وأننى أريد أن أراها الآن لأمر هام جداً وأننى فى انتظارها . .

كتبت هذا وأردت ألا أكتب شيئاً آخر . . ولكنى عدت وفكرت . . ربما ولسبب وجود هذا الشاب عندها الآن يتعذر عليها الخروج . . وأحتاج إلى هذه المحاولة مرة أخرى . . ولذلك زدت على ما كتبت . . وأنه لو تعذر عليها مقابلتى الآن فإنى أنتظر منها تليفوناً فى وقت حددته لها وعينت لها ساعته وهو الوقت والساعة الذى سأكون فيهما فى هذا الرقم الذى دونته لها .

دونت هذا كله سريعاً فى الورقة التى أخرجتها من جيبى وطويتها ثم أشرت إلى الصبى الصغير بأصبعى فجاءنى يركض ككلب الصيد تماماً . . فقلت له فيما يشبه الهمس لأننى من غير شك أحسست بحرج عندما بدأت أنفذ ما اعتزمت عليه :

— هل ترى هذه العمارة ؟

أشرت له بنصف أصبعى حتى لا يلاحظ أحد . . فقال :

— نعم .

ـــ وترى هذه الشقة الثانية على اليمين ذات النوافذ الثلاث المغلقة ؟

ـــ نعم . . نعم .

فقلت وقد ازداد صوتى خفوتاً وأنا أناوله الورقة :

ـــ أعط السيدة التى تقطن الشقة هذه الورقة . . وانتظر ماذا ستقول لك وعد سريعاً .

فقال الصبى فى غير مبالاة :

ـــ حضرتك تقصد الست زينات الراقصة ؟

فابتهجت مطمئناً لأنه يعرفها . . وقلت وأنا أبتسم :

ـــ نعم . . نعم . . هى .

فقال الصبى وقد تلاشت الابتسامة من على ثغره . . شأن من يعجز عن جميل كان يود أن يصنعه :

ـــ إنها تركت هذه الشقة منذ أسابيع والآن يقطنها شخص آخر .

١١

إن الإنسان كتلة من المتناقضات أو أنا كذلك على أقل تقدير . . فقد كان الذى ينتظر أن يحدث عندما سمعت هذا النبأ . . أن تأخذنى المفاجأة . . فقد كنت أنتظر كل شىء إلا أن أسمع هذا . . أو أفكر فيه . . وما دمت قد سمعته فكان يجب علىّ أن أضيق به أولا . . ثم أضيق بنفسى ثانية وأضيق بهذه السلسلة الطويلة من الهواجس السوداء التى عشت فيها طوال تلك الأيام والساعات منذ أن رأيت هذا الشاب . وظننت فيه ما ظننت واتهمت الفتاة بما اتهمتها به . . ولكن العكس تماماً هو الذى حدث . . لأننى ما كدت أسمع ما قاله الصبى وأعرف أننى كنت خاطئ الفهم حتى انتابتنى فرحة جارفة . كادت تخرجنى حتى عن وقارى الذى اعتدت أن أكونه حتى بينى وبين نفسى . . ورحت من فرحتى أريد أن أفعل شيئاً أو أفعل كل شىء . . أن أضحك مثلا بصوت عال . . أحتضن هذا الصبى وأقبله . . أخرج كل ما فى جيبى من نقود وأعطيه إياها .. أوزعها على هؤلاء الخدم جميعاً .. أطعم كل هؤلاء الذين فى المطعم على نفقتى . . ولما لم أستطع أن أفعل شيئاً من هذا ، فعلت كل ما أريد فى طبق السمك الذى أمامى والذى كان يتبدى لعينى من لحظات

قصار أشبه بالثعابين تماماً . . رأيته فى عينى كالفرحة التى أنا فيها وفى ثغرى أحلى مذاقاً من الشهد ولذلك التهمته التهاماً وأكلته عن آخره . . ولم أفعل ذلك فقط . . وإنما طلبت مزيداً من هذا الطعام الذى هو من أحلى ما تذوقته فى حياتى . .

أكل هذا لأنه ثبت لى خطأ ظنى فى الفتاة . . وأنها بريئة من هذه التهمة الظالمة التى اتهمتها بها وأن عرضها طاهر لم يمس وأن ذيلها نظيف لم يلوث ؟ . . وهل إلى هذا الحد يهمنى شرف هذه الفتاة ؟ وهل هو يهمنى إلى هذا الحد الكبير من أجلى « أنا » وخلقى الذى بطبعه يستنكر هذا الجرم ويستبشع هذه الجريمة ؟ أو هو يهمنى من أجل هذه الفتاة بالذات . وحرصى على سلامتها هى بالذات ؟ من غير شك أنه من أجلها هى . . وليس من أجلى أنا . . أو أجل خلقى . . أو تربيتى . . أو طباعى . . بدليل أننى عندما رأيت ذلك الشاب وظننت فيها هذا الظن الذى بلغ عندى مرتبة الإيمان . . كنت خالص النية صادق العزم على أن أمد لها يدى وأنتشلها من هذه البئر التى هوت إلى قاعها . . إذن الأمر أمر الفتاة بالذات وليس أمر سواها . وليس هو أمر العطف فقط كما كنت أظن . . أو كما كانت تغالطنى نفسى وتريد أن تقنعنى . . بأن صلتى بالفتاة هى أننى ربما أستطيع ذات يوم عن طريق هذه الصلة أن أكتشف شخصية ذلك الرجل الذى ضبطته الفتاة فى مخدع المجنى عليها والذى أصبح هو المفتاح الوحيد لهذه القضية بعد قتل دسوقى . .

إذن لم يكن الأمر أمر هذا أو بعضه أو كله . .

إنما هو أمر الفتاة . . والفتاة بالذات . . وإذن . . أنا أحب هذه الفتاة . . .

* * *

كانت المشكلة التى واجهتنى والتى شغلت بالى وقتاً طويلا هى كيف أعثر على زينات وأهتدى إلى عنوانها . . وأعرف أين تقيم . . وكان هذا بالنسبة لى أمراً عسيراً كل العسر . . فقد تبين بعد كل هذه الأحداث جميعاً . . وبعد أن تأكدت هذا التأكد البالغ حد الإيمان والذى لا سبيل إلى الشك فيه . . أننى أحب هذه الفتاة . . تبينت أننى ما زلت عند طباعى التى جبلت عليها . . وهى خجلى الشديد وارتباكى الذى لا حد له فى كل ما يمس عواطفى الخاصة ويتصل اتصالا مباشراً بمشاعرى وأحاسيسى ، وإلا كان عندى أكثر من سبيل لمعرفة مكانها والعثور عليها فى ساعات ولكننى لم أجرؤ حتى على مجرد التفكير فى ذلك برغم الأسباب القوية التى تدفعنى دفعاً لرؤيتها واللقاء بها . . لا من أجل الشوق إلى رؤيتها فقط أو الرغبة المتزايدة فى التحدث إليها والجلوس معها ، وإنما لكى أطمئن عليها وأعرف كيف تعيش . . ومن أين ترتزق بعد أن طردت من عملها . . حتى لا تضطرها الظروف إلى التورط فيما كنت قد ظننتها تورطت فيه واتهمتها به ظلماً . . واتهمتها بلا تريث أو تبصر فى خطورة هذه التهم الظالمة التى يتهم بها الناس .

وهكذا مكثت ثلاثة أيام كادت هذه المشكلة تنسيني حتى وجودى ككائن بشرى يعيش على وجه الأرض . . ولما ضاق بى التفكير ، وثقل على نفسى . . وبدأت أستشعر ثقله . . ومرارته أيضاً . . فكرت فى أن ألجأ إلى وظيفتى وأعيد التحقيق فى القضية من جديد . . ومن السهل وجود الأسباب التى تبرر ذلك وأطلب القبض على الفتاة مرة أخرى ولا بد من أنه سيقبض عليها . . وبذلك يحل هذا الإشكال ، غير أنى استنكرت هذه الفكرة . . واستبعدتها لعدة أسباب لعل أهمها الظلم الذى سيقع على الفتاة مرة أخرى . . هذا إذا افترضنا جدلا أننا سنجد الضمير الذى يبيح لى أن أرضى رغباتى على حساب المهنة التى أحترمها ، وهذا الضمير لن أجده إلا إذا وجدت الموت ، وأنا لست مجنوناً حتى أبحث عن الموت .

وفكرت فى العمارة التى كانت تقطن فيها الفتاة . وفى بواب هذه العمارة بالذات والذى لم أعرفه ، ولكنى أعرف أن بوابى العمارات جميعاً هم دائماً حملة أسرار السكان . . فالبواب يعرف عن الزوجة ، أكثر مما يعرف زوجها ويعرف عن الزوج أكثر مما تعرف زوجته . . وهو ودود بطبعه ومتسامح بحكم مهنته حتى الذين يتركون السكنى فى عماراته هو أكثر الناس تتبعاً لأخبارهم . . فإن كان يبغضهم وسره خروجهم فهو يحلو له أن يعرف ما يسببونه من متاعب لغيره وإن كان يحبهم فهو فى أكثر الأحيان لا يقطع صلته بهم حتى ولو بعد واديهم عن واديه . . وفكرت فى مطعم السمك مرة أخرى . . وبرغم الهلع الذى أحدثه لمعدتى مجرد هذا التفكير . .

فقد ذهبت إلى هناك وما كنت لأظن أو أتصور بحال من الأحوال أن مجرد هذا الذهاب العابر إلى هذا المطعم سوف يترتب عليه الكثير من الأحداث الهامة ، وبمثل هذه السرعة التى حدثت بها ، فما إن دلفت قدمى إلى هذا المطعم ورآنى ذلك الصبى الصغير الذى لا تفارق الابتسامة ثغره حتى جاءنى راكضًا تغمره فرحة لا حد لها وتزدحم الكثير من الألفاظ على شفتيه حتى خلته يمسك بها فى جهد كيلا تتساقط قبل أن يذكرها لى . ولذلك لم ينتظر حتى يحيينى كعادته وينحنى تلك الانحناءة السمحة التى تعودها . . وإنما قال على الفور وكأننا أصدقاء خلصاء يحب كلانا الآخر الحب كله :

— أين أنت يا سعادة البك ؟ ! .. لقد كنت أنتظر مجيئك كل يوم بفارغ الصبر .

— خيرًا . .

— الست زينات . .

وما إن نطق هذا الاسم حتى خفق قلبى وأحسست بضرباته تتزايد وقلت :

— ماذا بها ؟

— لقد عرفت سكنها الجديد . . وعرفت أين هى تقيم الآن . .

— عرفت بيتها ؟

— نعم .

— وكيف عرفته ؟

— من يومين فقط . . فى اليوم الثانى مباشرة لليوم الذى أعقب سؤالك عنها لمحتها وأنا أعمل هنا فى المحل واقفة أمام العمارة تتحدث إلى عم خير البواب . فأسرعت إليها فى الحال و . . .

وأراد الصبى أن يتمم حديثه . . لكنى قاطعته فى لهفة :

— هل قلت لها شيئاً ؟

فازدادت ابتسامة الصبى تركيزاً فوق ثغره وقال فى كبرياء :

— عيب . . محسوبك . . وإن كان صغيراً فى السن لكنه يفهم كل شىء . .

فأحسست بكثير من الخجل يلم بى ويجعلنى أكاد أتلعثم فى الحديث ولكنى قلت :

— وكيف عرفت عنوانها إذن ؟

— كانت قد تركت بعض متاعها عند عم خير البواب . . وهو عبارة عن أباجورة صغيرة . . وحقيبة بداخلها بعض الملابس وجاءت لتبحث عن أحد ليوصل لها هذه الأشياء إلى مسكنها الجديد فتطوعت أنا للقيام بهذه المهمة .

وابتلع الصبى أنفاسه سريعاً واستطرد قائلا فى نفس الفرحة التى تجعله يكاد يرقص أمامى وهو يتحدث :

— وقد تطوعت بهذه المهمة عن طيب خاطر من أجل سعادتك فقط .

ـ لماذا من أجلى ؟

ـ عفواً . . أقصد من أجل أفضالك الكثيرة التى غمرتنى بها . .

ـ أشكرك على أى حال . . وأين تقيم ؟

ـ فى مصر الجديدة . .

فقلت فى دهشة :

ـ مصر الجديدة ؟

ـ نعم .

ـ وذهبت أنت إلى مصر الجديدة ؟

ـ يا سلام . . ولو كانت فى أسوان لذهبت إليها من أجل خاطر سعادتك .

فازددت خجلا وازددت أيضًا تقديراً لرقة إحساس هذا الإنسان الصغير وقلت له . . ولكن من قلبى هذه المرة :

ـ أشكرك كثيراً يا عمر . .

ـ تفضل .

ـ ماذا ؟

وأخرج عمر من بين طيات ذلك الشريط الأحمر الذى يلتف حول صدر الثوب الأبيض الذى يرتديه . . ورقة صغيرة ناولها إلىّ . . فقرأت فيها الآتى : ١٢٥ شارع السبق . . الدور الأرضى . . شقة رقم ١ — مصر الجديدة . . .

١٢

كان من الأمور التى يسرت لى مهمتى كثيراً وأعفتنى من أكثر من حرج كنت أنتظره . . المكان الذى ذهبت إليه فى مصر الجديدة وموقع البيت الذى تقطنه الفتاة . . فقد كان المكان هادئاً إلى حد كبير . . والبيت يكاد يكون خالياً من كل جانب وأمام البيت يقع الطريق مباشرة وهو طريق عريض جداً .. يليه مباشرة ميدان السبق الفسيح وكان الوقت ليلا . . والطريق خالياً من المارة تماماً . . اللهم إلا سيارة تغدو أو تجىء يقودها عاشق ولهان أو محب تجلس بجانبه حبيبة مدلهة .. أو بعض العشاق من الفتيان والفتيات ينقلون الأقدام فى خطوهين فتتكسر أعطاف العذارى اللائى تمايل خصورهن وهن يسرن متأبطات الأذرع بجانب سور الميدان الفسيح. ومثل أولئك أو هؤلاء فى استطاعة من كان فى مثل حالى أن يطمئن إليهم وإلى أن نظراتهم لا تمتد إلى أكثر من وجه الحبيب، وأن عيونهم لا تبصر غير بسمة الثغر أو عذوبة الشفاه ولا تتطلع لغير رقة الخد أو لفتة الجيد وإن زادت فإلى استدارة الجبين أو رجفة الشعر . . ومع ذلك تريثت كثيراً وتصرفت بحذر شديد وحرص بالغ الدقة . . إذ قطعت الطريق أولا عدة مرات رائحاً غادياً . . ومع أنى لم أجد إلا كل ما يطمئن . . ومع

وثوق من أن أحداً فى هذه الضاحية النائية لا يعرفنى من قريب أو بعيد . . فقد ذهبت إلى شارع آخر يبعد كل البعد عن هذا الشارع الذى أريده وأوقفت سيارتى هناك . . وعدت إلى بيت الفتاة على قدمى . . ومن حسن الحظ أننى لم أصعد غير درجات قليلة العدد جدًّا حتى وجدتنى بعدها أمام باب مسكن الفتاة مباشرة . . وقد سرنى هذا ووقفت لحظات استعدت فيها أنفاسى قبل أن أدق جرس الباب . . ولما دققت الجرس . . لم يفتح الباب سريعاً . . ولم يرد أحد فى الداخل على الفور مما جعلنى أظن أن لا أحد فى البيت ، ولولا أننى رأيت بعض شعاع من نور تسرب إلى عينى من خلف شراعة الباب الزجاجية لانصرفت . . ثم رأيت النور بعد لحظة يضىء الصالة من الداخل وسمعت صوتاً أعرفه جيداً وأعرف نبراته جيدًّا أيضًا يقول من وراء الباب :

— من ؟

— أنا .

— أنت من ؟

فأسقط فى يدى وارتبكت ارتباكاً شديدًّا . . إذ ماذا أقول لها . . وهل تعرف من أنا إذا قلت لها اسمى . . وازددت ارتباكاً وأنا أجيب :

— أنا فكرى . .

فازدادت دهشة وهى تسأل من خلف الباب أيضًا :

— من فكرى ؟

ـــ أرجو أن يفتح الباب . . وستعرفين من أنا . .

ورأيت خيال يدها من خلف الأسطوانة الزجاجية التى تتوسط شراعة الباب تمتد وحركت فى بطء مزلاج الشراعة من الداخل . . وسمعت لذلك المزلاج الصغير صوتاً بغيضًا خشناً مما يدل على أنه لم يستعمل منذ وقت بعيد . . وما إن انفرجت شراعة الباب عن نصف وجهها ورأتنى حتى شحب وجهها فجأة وجحظت عيناها فى خوف شديد وقالت متلعثمة وأنفاسها تتدهور فى سرعة غريبة ويدها ما زالت ممسكة بمزلاج الشراعة وكأنها ماتت عليه . . ويدها الأخرى تترنح أصابعها فوق الصدر وهى تبحث فى اضطراب عن فتحة القميص عند الصدر وتلم أطرافها فوق الثديين وتخفيهما مع الصدر فى طيات الثوب :

ـــ أرجوك . . إن كان معك أحد من الجنود . . فلينتظروا حتى أرتدى ثيابى على الأقل .

فاندهشت دهشة بالغة . . وقلت :

ـــ معى جنود . . ولماذا ؟

ـــ ألم تجئ لتقبض علىّ ثانية ؟

فانخفض صوتى فى كثير من الدهشة . . وأنا أقول بألم بالغ :

ـــ أنا أقبض عليك ؟

ثم استطردت على الفور . . ولكن بصوت عال :

ـــ أنا جئت فقط لأسأل عنك وأطمئن عليك . .

فارتاحت عيناها على الفور وهدأت أنفاسها وقالت مبتسمة وهى تفتح لى الباب :

ــ أهلا وسهلا . . تفضل . .

ولما دخلت . . لم أرها . . حتى إننى ظننت أنها إنما انصرفت إلى الداخل . . ولكنى لما استدرت لأغلق الباب رأيتها مختفية خلفه تلم ــ وهى تكاد ترتعش من الخجل ــ أطراف تلك الغلالة الرقيقة فوق ما تعرى من جسدها . . فأغلقت عينى على الفور . . حتى لا تتسرب نظرة أخرى على الرغم منى ــ كما حدث ــ وترى غير الوركين وثنية الساق التى تشع نوراً من خلف نسج الغلالة الرقيقة السوداء وابتعدت خطوات . . كان ظهرى أثناءها لها . . ولما انصرفت هى إلى إحدى الغرف وتأكدت من أننى وحدى فى البهو . . فتحت عينى . . فلم أجد غير كنبة واحدة مستطيلة وضعت فى صدر البهو وكانت هى كل شىء تقريباً فيه . . فجلست . . ومن ثم رحت أتلفت حولى وأتطلع إلى متاع البيت البسيط المتواضع الذى ينم عن ذوق من غير شك . . ولكنه فى الوقت نفسه يعبر عن فقر مدقع ويعبر عنه فى صورة واضحة من صوره البغيضة التى تتمثل فى كل شىء . . وشاهدتها فى كل شىء : فى الكنبة التى أجلس فوقها وقد تآكل غطاؤها وبرزت نتف القطن السوداء المغبرة على جوانبها أشبه ما تكون بأمعاء جثة متعفنة .

فى المصباح الكهربائى الصغير المعلق فى وسط البهو يرسل ضوءه

— الشاحب فى صمت . . وقد تركت عليه آثار الذباب بقعاً سوداء أشبه ما تكون بآثار الجدرى فى الوجه السمح . . كما شاهدت هذه الصورة البغيضة للفقر بشكل أوضح فى الطاولة الصغيرة التى كانت بجانب الكنبة . والتى رأيت فوقها بقايا طعام متواضع جداً . . نصف رغيف جاف يعبث صرصار فى قلبه وطبق صغير به بعض حبات سوداء صغيرة الحجم من الزيتون . . وبجانب الطبق ورقة صغيرة ملفوفة على بقايا من قطع الجبن الرومى التى سال زيتها حتى تلوثت به الورقة بحيث أغرى بها صرصاراً آخر راح يلف ويدور حولها .

رأيت هذا كله وشعرت بشىء من الألم كما لو كنت أنا الذى يعيش فى هذا الشقاء . . غير أننى بجانب هذا الألم أحسست بشىء من الاغتباط أيضاً . . لأننى تذكرت هواجسى السوداء التى عشت فيها بعد أن رأيت ذلك الشاب الأنيق فى شرفة البيت الذى كانت تقطنه الفتاة سابقاً وكنت أظنه يقيم معها . . والأحزان التى عشت فيها عندما ظننت هذا الظن الأسود . . والتبعة الجسيمة التى ألقيتها على نفسى لأننى تكاسلت فى البحث عن الفتاة وتركتها حتى أرغمها الفقر على أن تتردى فى الهاوية ، ولعل هذا بالذات هو الذى جعلنى الآن أشعر بهذا الاغتباط الزائد . . لأننى استطعت أن أعثر عليها فى الوقت المناسب . . وأن أمد لها يدى فى اللحظة الحرجة . . وبدأت — وأنا جالس فى مكانى — أفكر فى هذه اليد التى سأمدها لها . .

لكن قطع علىّ تفكيرى أن الفتاة كانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأقبلت تقطع البهو فى روب غامق اللون سميك النسج من الصوف الخشن أغرقت جسمها كله فيه . . وحجبته خلفه كما تحجب السحائب السوداء وجه القمر وتغطيه وتحجب نوره عن العين . . وكأنها أدركت بفطنتها كل ما كنت أفكر فيه قبل مجيئها لأنها قالت وهى تجلس قبالتى فوق مقعد صغير كانت قد أتت به معها من الغرفة التى كانت تستبدل فيها ملابسها :

ـــ معذرة . . فأنا ما زلت حديثة العهد بالسكنى هنا . . ولذلك فالبيت لا يزال كما ترى .

ـــ إنه سكن جميل على أى حال .

وحانت منها نظرة عابرة . . فرأت الطاولة التى كانت بجانبى . . والصرصار الذى فوقها يروح ويجىء حول ورقة الحبن . . كما يروح ويجىء العابد حول المحراب . . فنهضت سريعاً ونحت الطاولة بعيداً ثم عادت إلى مقعدها وقالت فى شىء من الخجل وهى تحاول أن تبعد أشياء معينة بالذات حتى لا نتحدث عنها :

ـــ أصنع لك فنجاناً من القهوة ؟

ـــ أشكرك .

فنهضت ثانية وقدمت لى سيجارة . . فتقبلتها منها وقلت وأنا أتناولها وأشعل لها سيجارتها :

ــ أما زلت تدخنين كثيراً ؟

ــ كثيراً جداً . .

ــ ولكن هذا يضر بصحتك .

ــ ومنذ أيام أصبت بنزلة شعبية حادة . . ألزمتنى الفراش طويلا . .

فأحسست على الفور بما يشبه وخز الإبرة فى قلبى لمجرد علمى أنها كانت مريضة . . وقلت :

ــ لقد سألت عنك . . فى المرقص الذى كنت تعملين به . .

ــ وماذا قالوا لك ؟

ــ إنك تركت العمل هناك . .

ــ شكراً لهم على أى حال .

ثم استطردت وهى تبتسم فى مرارة :

ــ الحقيقة أنهم طردونى .

فتجاهلت كل شىء وقلت :

ــ طردوك ؟

ــ نعم . .

ــ لماذا ؟

فازدادت الابتسامة الشاحبة التى كانت لا تزال مرتسمة على شفتيها مرارة وقالت :

ــ لأننى مجرمة وقاتلة وخريجة سجون . .

فأحسست بأن هذه الطعنات كأنها موجهة لى شخصياً . . فقلت :

— كيف يقولون هذا ؟

— أليست حقيقة ؟

— الحقيقة أنه ثبت براءتك بدليل الإفراج عنك . .

فانخفض صوتها وهى تقول :

— الناس لها الظاهر . . وليس هناك جناح على ما يقولون .

وأردت أن أغير هذا الحديث الذى أدركت أنه يؤلمها كثيراً . . فقلت :

— وماذا فعلت بعد أن تركت العمل ؟

— قعدت فى البيت طبعاً .

— ومن أين كنت تنفقين ؟

— الله يعلم .

ثم اختنق صوتها وهى تستطرد :

— ما زال فى الدنيا بعض الخير . . وقد بعث الله لى بذلك الرجل الطيب . .

وأرادت أن تنطق اسمه . . ولكن الدموع غلبتها . . فتركتها لحالها . .

فلما هدأت قالت من تلقاء نفسها وهى ما زالت تبكى :

— لقد بعث الله بهذا الرجل . . عم خير . . فكان لى أكثر من أب .

وكنت قد نسيت هذا الاسم برغم أنى سمعته مرة . . ولكن أين . .

لا أدرى . . ولذلك سألت :

ـ من عم خير ؟

ـ بواب العمارة التى كنت أقطن بها . .

فأغمضت عينى كما لو كنت لا أريد أن أرى سكيناً تغوص فى صدرى . . وقلت وأنا مغمض العينين :

ـ لقد أعطيتك رقم تليفونى . . فلماذا لم تتصلى بى ؟ !

ولما خفضت وجهها إلى الأرض . . وأغلقت عينيها الواسعتين على الدموع الكثيرة التى فيها ولم تجب . . قلت :

ـ هل ضاع منك الرقم ؟

ـ إنه الشيء الوحيد الذى أحمله فى صدرى دائماً .

وبرغم سوء الحال الذى أنا فيه . . والسكين التى تغوص فى صدرى وأستشعر آلامها الزائدة . . . قلت كطفل داهمته فرحة زائدة :

ـ أشكر لك هذا الشعور . . وسوف أحفظ لك ما حييت هذا الجميل . .

ـ أى جميل ؟

ـ أنك تحتفظين برقم تليفونى . .

ـ إننى فى الحقيقة إنما أحتفظ بجميلك الذى أسديته لى . .

ـ إنك أخت . .

فانخفض صوتها حتى كدت لا أسمعها وهى تقول وكأنها تخاطب نفسها :

— أخت ؟ هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة من إنسان .

ومرت بعد ذلك فترة صمت كانت من أثمن الفترات التى مرت بى فى حياتى . . ولذلك وددت أن تطول . . لولا أن لسانى تعجل سؤالها . . فقطعت هذا الصمت الجميل الذى لا يتوفر كثيراً فى حياة كل إنسان . . وقلت :

— إذن . . لماذا لم تتصلى بى ؟

— خشيت أن أثقل عليك . .

— تثقلين علىّ أنا ؟

قلتها فى دهشة أثارت انتباهها لأنها رفعت عينيها إلىّ . . ولكنها عادت فخفضتهما ثانية وقالت وكأنها تصر على شىء :

— نعم خشيت ذلك . . .

— ما هو بالذات الشىء الذى خشيته ؟

— أشياء كثيرة . .

— مثل ؟

ولما لم تجب . . وتذرعت بالصمت . . ظننتها تقصد الحرج من المال ومد يد المساعدة إليها . . ولذلك قلت :

— وكيف تثقلين علىّ فى أى طلب تطلبينه . . إنك بالنسبة لى شىء هام . . شىء كبير . . وأظنك قد أدركت هذا . .

فقالت وهى لا تزال تلقى بنظراتها إلى الأرض :

ــ ولأننى أدركت هذا . . خشيت أن أتصل بك . .

ــ خشيت ماذا ؟

قلتها فى حدة . . وكأننى أنهرُها على عمل مشين ارتكبته . . فقالت وهى تنظر إلىّ هذه المرة :

ــ لم يكن ما ظننت أنت هو الذى خشيته أنا . . فأنت أكرم أخلاقاً من أن يظن فيك هذا الظن . . وقد وضح كرم هذه الأخلاق عمليًّا عند تطوعك بالانفاق على وأنا فى السجن . . ووضح أكثر من ذلك عندما تكرمت وأعطيتنى رقم تليفونك . . ومن غير شك أعطيتنيه لهذا السبب . . وليس لسواه . . أنا أعرف ذلك جيداً . . ولكن الذى خشيته حقيقةٍ . . وما زلت أخشاه . . وسأظل أخشاه . . هو أننى أخاف عليك .

ــ تخافين علىّ أنا ؟

ــ نعم . .

ــ مم ؟

فانخفض صوتها كثيراً جدًّا وهى تقول :

ــ أرجو أن لا تنسى أننى راقصة . .

ــ وماذا فى ذلك من خوف ؟

ــ كلام الناس .

ــ وهل هم يعرفون عنك مثل الذى عرفته أنا ؟

ــ الناس دائماً لها الظاهر . .

— وما شأننا بهم ؟

— أنسيت أنهم يكونون المجتمع الذى نعيش فيه . . وأنت واحد من هذا المجتمع . . وأنا واحدة فيه . . وأنت شريف ينظرون إليك بعين الاعتبار والتقدير . . وأنا راقصة ينظرون إلىّ بعين السخرية والتحقير ؟ . .

— وهل أنت كذلك ؟

فصمتت حيناً . . ثم قالت ؟

— ألست راقصة ؟

فنطقت فى دهشة بالغة . . وبصوت مرتفع وكأننى أصرخ :

— ماذا تقولين ؟

— هل تريدنى أن أكذب عليك ؟

— أنت محتقرة وموضع سخرية من الناس ؟

— نعم أنا كذلك ؟ . .

— كيف تقولين هذا ؟

— قلت لك إننى راقصة ؟

— الرقص مهنة . .

— والبغاء أيضاً مهنة . .

قالت ذلك وهى تزم شفتيها فى مرارة . . فقلت :

— كيف تقولين هذا القول ؟

— لا أدرى لماذا.. إذا كذبت على الناس جميعاً.. فأنا لا أستطيع

أن أكذب عليك . .

ـــ وأنا كذلك . .

ـــ إذن . . لماذا تغالط نفسك ؟

ـــ أنا لا أغالط نفسى أبداً . . وإنما أتكلم عنك أنت . . وأتكلم عنك فى صدق . .

فاعتدلت فى جلستها وتحدثت فى روية وهدوء حديث الواثق تماماً :

ـــ أنا لا أتحدث الآن عنى « أنا » وإنما أحدثك عن نفسى . . أحدثك عن مهنتى كراقصة . .

ـــ الرقص فن . . وفن معترف به . .

ـــ اعترفنا به فقط . . ونبيحه . . تماماً كما اعترفنا بالبغاء . . وقلنا عنه إنه يدفع عن المشتغلين به غائلة الفقر .

فأحسست بغيظ شديد لهذه التهمة الظالمة التى تريد أن تلصقها بنفسها . . وقلت محتداً :

ـــ كيف تقولين هذا . . وتقرنين السيئ بالحسن . . دون مبالاة بهذا الفرق الكبير بين الاثنين ؟

فقالت فى نفس الهدوء الذى تتحدث إلىّ به :

ـــ هذا الفرق الذى تتحدث عنه ـــ فى نظرك فقط ـــ وفى نظر القانون أيضا . . ولكن لا وجود له أبداً فى نظر التى تحترفه . . أقصد فى نظر الأخلاق . . إذا ما أردنا أن نتحدث عنها كأخلاق .. وإلا فقل لى

أنت . . ما الفرق بين التى تعرى جسمها فى الظلام لقاء بضعة قروش . . والتى تعريه علانية تحت الأضواء نظير بضعة قروش أيضاً ؟ . .

وكأنها لم تنتظر منى الجواب . . لأنها قالت مستطردة :

— قد تقول إن الفرق فى الامتلاك ، وأقول أنا لك حتى هذا الفرق أدنى إلى الاستهانة منه فى النور إلى القذارة والاستهانة به فى الظلام . .

ومع أننى لم أفهم هذا المعنى الأخير من قولها . . ومع أننى هممت فعلا أن أسألها تفسيراً . . إلا أنها قالت وهى تشير إلىّ بأصبعها ونبرات صوتها تكاد تشتعل غلاً وغيظاً وربما ضغينة أيضاً :

— وأعتقد أنك أنت بالذات . . وأنت من خيرة المثقفين اول من يؤمن بهذا . .

— أومن بماذا ؟

— بأن لا فرق عندك . . بين البغى والراقصة . .

فقلت مستنكراً فى شدة :

— هذه تهمة ظالمة . . تلصقينها بى . .

فقالت فى هدوء وهى تنظر إلى الأرض هذه المرة :

— إذن لماذا طلبت توقيع الكشف الطبى علىّ للتأكد من صحة أقوالى وتعرف أعذراء أنا . . أم غير عذراء ؟ . .

وفجأة دارت بى الأرض وأدركت هى ذلك لأنها ابتعلت أنفاسها سريعاً وقالت :

ــ معذرة . . إذا قلت هذا الآن . . ولم أقله لك فى حينه . . وصدقنى أنى سررت كثيراً لأنك فعلت ما فعلت برغم ما فى هذا من استهانة بحرمة فتاة . . لأنك لو لم تفعل لرميتك بالغباء .. وشبّهتك بالأبله الذى يصدق أضخم الأكاذيب . .

ــ أرجوك ... إننى أتألم . .

ولما رأتنى أتألم حقيقة . . قالت وهى تشعل لى لفافة من علبتها وتشعل لها أخرى :

ــ أظنك الآن أدركت لماذا لم أتصل بك تليفونيًّا بالرغم من أنى أحتفظ برقم تليفونك إلى الآن . وبالرغم من أنه كما قلت لك أعز شىء احتفظت به فى حياتى . .

ــ إننى أشكرك . . ولكن الذى أريد أن أعرفه . . طالما أن نظرتك لمهنتك هى هذه النظرة ، فلماذا تشتغلين بها ؟

وكنت أرمى من وراء هذا السؤال إلى شىء . . فقالت :

ــ لأننى لا أريد أن أثقل على أحد . . كما أثقلت مثلا على عم خير بواب العمارة التى كنت أقطنها سابقاً . . بعد أن طردونى من عملى . .

ــ يخيل لى أنه رجل طيب فعلا . .

ــ وددت لو عشت حياتى بجانب هذا الرجل الطيب العجوز . .

ــ ولماذا تركت السكنى فى عمارته ؟

ــ كان الإيجار غالياً وقد ظل هذا الرجل يسعدنى إلى أن أعجزته

الظروف عن هذه المساعدة ففضلت هذا السكن لعدة أسباب . .

ـ أليست مصر الجديدة بعيدة وتكاليف مواصلاتها كثيرة ؟

ـ لم أتعود أن أخرج من بيتى أبداً . . لا فى الليل ولا فى النهار . . إلا فى أوقات عملى فقط . . وهذا السكن قريب من عملى الجديد الذى سألتحق به بعد يومين .

ـ أى عمل ؟

فقالت وهى تبتسم ابتسامة شاحبة ؟

ـ راقصة طبعاً .

ـ فى أى ملهى ؟

ـ عم خير له شقيقة تعمل خادمة فى منزل مدير ملهى حلمية بالاس . . وقد توسطت لى فى العمل هناك برغم تفاهة الأجر . .

ـ كم ستتقاضين هناك ؟

ـ خمسة عشر جنيهاً . .

ـ فقط ؟

ـ فقط .

ـ ولماذا قبلت هذا الأجر التافه ؟

ـ تعبت من التعطل . .

فصمت حتى أعالج بعض آلامى . . وقلت وأنا أنظر إليها وأر: أن أبكى :

ـــ منذ متى وأنت بلا عمل ؟

ـــ منذ اليوم الذى خرجت فيه من السجن .

ـــ كل هذه المدة ؟

ـــ نعم . .

ـــ ومن أين كنت تعيشين ؟

فقالت ضاحكة وهى تنهض لتصنع لى فنجاناً من القهوة بعد هذا الحديث الطويل :

ـــ كان عم خير يردد دائماً مثلاً ظريفاً جدًّا . . وكنت أردده دائماً معه « الحر يبيت على الطوى . . ويصبح بالاطمئنان شبعان » .

ـــ أنت ملاك أيتها الفتاة . .

قلتها لنفسى بعد أن انصرفت لتصنع لى القهوة . . غير أنها لم تكد تنصرف حتى عادت ثانية وطلبت منى علبة الثقاب لتشعل الوابور . . فطلبت منها فى إخلاص وصدق ورجاء أيضاً أن تأذن لى فى مساعدتها فى صنع القهوة . . وذهبت معها إلى المطبخ . . ورأيتها وهى تشعل الوابور فى ابتهاج شديد . . ورأيت ناره وهى تنعكس على وجهها وتنير قسماته التى تغيرت فجأة . . من حزن إلى فرحة غامرة زادته بهاء . . وأضفت على سماته إشراقة من نور إلهى يسر العين أن تتطلع إليه . . فلم أملك نفسى من الفرحة وقلت لها :

ـــ أراك الآن سعيدة . . فلماذا ؟

ــ لأنني أصنع لك بيدى فنجاناً من القهوة . .

ــ زينات . .

نطقت هذا الاسم دون وعى ، ثم تداركت نفسى سريعاً ، حتى لا أنهار وتنهار قواى أمام هذا الجمال الإلهى . . أمام هذه النفس الصافية التى تشبه تماماً هذه الإشعاعات من النور التى تنبثق من قسمات وجهها . . والتى تتدفق نوراً باهراً يشع من عينيها الواسعتين الجميلتين ، فملأ قلبى نوراً ، وصفاء ، وبهجة .. خشيت وأنا أنظر إلى هذا كله أن أخر راكعاً عند قدميها . . أن أسجد للأرض التى تقف عليها . . ولذلك أمسكت عن القول . . وزممت شفتى . . فلم أنطق بعد (زينات) بحرف . . وكأنها أدركت شيئاً . . أدركت على الأقل أننى كنت أريد أن أقول شيئاً ثم أمسكت عن القول . . فقالت وهى تبتسم وتنظر لى نظرة حنان لم أتعودها من أحد :

ــ كنت تريد أن تقول شيئا ؟ . . .

ــ وإذا قلت . . فهل تصدقيننى ؟

ــ ثق أننى لو لم أصدق كل كلمة . . تصدر منك . . لما سمحت لقدمك أن تخطو خطوة واحدة فى بيتى . .

ــ إذن أنت تثقين فى . .

ــ كما أثق فى نفسى تماماً . .

ــ وإنى بالنسبة إليك شىء هام . . كما أنك بالنسبة إلى شىء

هام جداً . . وكبير جداً . .

فارتعشت يدها . . وهى تحمل صينية القهوة . . وتخرج من المطبخ . .
وقالت ويدها ما زالت ترتعش :

ـ أنا لا أدرى أقلت لك أم لا . . إننى منذ أن رأيتك برغم الظروف القاسية التى رأيتك فيها وبرغم الظروف الأشد قسوة التى تكشف عنها التحقيق . . والتى عرفت منها من أنا . . وكيف ولدت . . ومن هى أمى . . وكيف ماتت . . والهزة العنيفة التى هزت كيانى . . وكادت تودى بى . . برغم كل هذا . . أحسست بوجودى فى الدنيا لوجودك أنت فيها . . فإن كنت قد قلت لك هذا فأرجو أن تصدقه . . وإن كنت لم أقله . . فلأن إحساسى يستشعر أنك تعرفه تماماً . . ولست فى حاجة إلى أن تعرفه منى . .

* * *

وكنا قد وصلنا ومعنا صينية القهوة إلى البهو . . والكنبة التى كنت أجلس إليها . . فلم أجعلها تجلس على المقعد الذى كان أمامى . . وإنما أجلستها بجانبى . . ومن ثم رحت . . وفى طفولة بريئة . . وفى قلب لا ينبض إلا صدقاً . . وفى أحاسيس ومشاعر لا تنطق عن الهوى . . رحت أقص عليها كل شىء وأحدثها عن كل شىء . . وأروى لها فى إخلاص الكثير من الرغبات . . وأحسست وأنا أتحدث فى انطلاق السيل . . والكلمات تزدحم على شفتى وتندفع كالموج . . أحسست كقاض . . أن الخطب والعبارات الرنانة والأحاديث والجمل الطنانة : . كل ذلك لا قيمة له



ولا نتيجة فيه . . طالما أنه لم يقم على دليل . . لذلك رحت أقيم الدليل تلو الدليل . . وأذكر لها كل دقائق الماضى . . وما حدث فيه . . منذ اللحظة التى ودعتها عينى فيها آخر مرة . . قصصت عليها الجهد الكبير الذى بذلته عندما ذهبت لأول مرة فى حياتى إلى « الصالة » وما قمت به من حيل فى سبيل أن أعرف شيئاً عنها والليلة التى قضيتها مع آلام الدنيا التى تجمعت فى مرقدى وأنا أهتف بالغمض لعلنى أجد فيه درعاً تقينى من الألم بعد أن عرفت بأنها طردت من عملها . . وبسبب هذه القضية بالذات . . ثم محاولاتى بعد ذلك التى بذلتها فى سبيل رؤيتها والاتصال بها . . وما جرى لى فى مطعم السمك والنزلات المعوية التى أصبت بها . . وتلك الابتسامة التى كانت لا تفارق ثغر ذلك الصبى الصغير . . والتى كانت تخفف عنى كثيراً . . والتى كنت أعقد عليها الكثير من الآمال . . ثم تلك الليلة أو الليالى التى قضيتها . . ولا يعلم غير الله كيف قضيتها . . بعد أن وقعت عينى على ذلك الشاب الوسيم الأنيق الذى رأيته فى شرفة البيت وكنت أظن أنها لا تزال تقطن فيه . . وذلك الحساب العسير الذى حاسبته لنفسى والتبعات الجسيمة التى ألقيتها عليها والتقصير الذى اتهمتها به والعذاب الذى عشت فيه طوال تلك الأيام والليالى والذى كنت سأعيش فيه ما حييت لولا أننى اهتديت إلى الحقيقة فى آخر لحظة . . واهتديت إليها على يد ذلك الصبى الصغير الذى أدين له بالفضل . . كل الفضل ما حييت . .

قصصت عليها كل هذا . . وهى صامتة لم تنبس . . حتى إذا أنهيت حديثى هذا الطويل المدعم بالأدلة والأسانيد . . فتحت عينيها الكبيرتين. وشالت بهدبيها الطويلين إلى أعلى . . ونظرت إلى . . وقالت هذه الكلمة التى ما زال رنينها العذب . . ونبراتها الحنون . . منطبعة فى القلب :

ــ فعلت هذا كله من أجلى ؟ !

ــ إنك أكثر من أخت . .

ــ قل هذه الكلمة مرة أخرى . .

ولما قلتها سريعاً مرة أخرى . .استلقت على صدرى فجأة . . كطفلة تلوذ بصدر حنون . . وألقت برأسها الصغير الجميل على كتفى ومن ثم راحت تبكى . . وتجهش فى البكاء . . ومع أنى لا أذكر أنى بكيت فى حياتى أبداً ... إلا أنى كنت فى أكثر الأحايين أستشعر رغبة زائدة فى البكاء . . وأحس أنى إن بكيت . . فسوف تخفف عنى الدموع الكثير من الآلام . . بل سوف تقل أحزانى جميعاً . . لذلك لم أشأ أن أسكتها . . وإنما تركتها تبكى . . وتنزف الكثير من الدموع دون أن أقول لها شيئاً أو حتى أنبس. . . إلى أن هدأت . . فجففت لها دموعها بيدى . . ولم أفعل ذلك فقط . . وإنما أدخلتها الحمام وغسلت لها وجهها بيدى . . ولما أعدتها إلى مكانها . . وأجلستها على الكنبة . . كنت قد لاحظت وأنا أمر على باب غرفة نومها . . أن زجاجة صغيرة من الكولونيا موضوعة على الكومودينو بجانب السرير . . فذهبت أحضرها لها . . وكانت أول مرة

أدخل فيها مخدعها . . وبرغم الأشياء الكثيرة التى كانت تلفت النظر فى هذا المخدع المتواضع جداً . . والتى تنم فى مجموعها عن فقر وفاقة . . إلا أننى استشعرت هدوءاً وطمأنينة ورائحة زكية أشبه ما تكون برائحة الطهر تماماً ، تملأ نفسى أمناً . . كذلك الذى نستشعره ونحن . . نخفض الجباه . . فى مكان له قدسيته . . كما لفت نظرى شىء وقفت عنده عينى حيناً . . ورحت وأنا فى مكانى أتأمله فى شىء من الرهبة وأنظر إليه وهو تحت الوسادة وأتذكر ما قالته فى التحقيق المتهمة الثانية نظيرة أحمد البسيونى من أن الفتاة تحرص دائماً على أن تضع مصحفاً كريماً تحت وسادتها لتستأنس به فى وحشتها . . ويكون لها هدياً فى هذه الظلمة التى تعيش فيها . . وطالت وقفتى أمام لقاء المخدع الطاهر بالمصحف الشريف وأخيراً انتبهت إلى زجاجة الكولونيا التى كانت أمامى على الكومودينو فتناولتها وانصرفت . . ولكن بعد أن فعلت شيئاً . . إذ دسست يدى تحت الوسادة ووضعت بجانب المصحف مباشرة كل ما كان فيها . . ولا أدرى إلى اليوم ما هو الذى كان فيها على وجه التحديد . . وهل كان الذى فيها ورقة [illegible] قة من فئة الخمسة جنيهات . . أو فئة العشرة أو هى تزيد على ذلك . . وتصل قيمتها إلى شىء كبير . . وهل كانت ورقة واحدة أو أكثر . كل هذا إلى اليوم لا أدرى عنه شيئاً . . وكل الذى أذكره تماماً أن كل شىء فىّ كان يرتعش . . وأنا أفعل خشية أن ترانى . . ولما تأكدت أننى فعلت ما فعلت وأنا فى مأمن من أى عين

خرجت من الغرفة مبتهجاً جداً . . ومن ثم جلست بجانبها . . وكانت فعلا قد هدأت كثيراً . . دون حاجة إلى ماء الكولونيا . . وقد أطربني ذلك . . وما قمت به في الخفاء من واجب . . لدرجة أنني ضحكت . . وظللت بها حتى ضحكت . . وعادت إلى وجهها إشراقته وإشعاعات النور التي تنبثق من قسماته . . وظللنا كذلك إلى وقت بعيد من الليل . . إلى أن أحسست أنني جائع . . أو بمعنى أصح أنا الذى تعمد هذا الإحساس . . وكاد يزعجها أنه لا يوجد في البيت ما يؤكل في هذا الوقت . . وفكرت في أن تستدعى البواب ليأتي لنا بطعام من الخارج . . ولكني طلبت منها أن أقوم أنا بهذه المهمة . . وأشهد بأنها لم تقبل إلا بعد جهد . . وما زلت أذكر برغم مضى هذا الزمن الفرحة التي أحس أنني أعيشها الآن وأنا أكتبها . . والتي كانت تغمرني وتفيض على وأنا أقف وسط أول حانوت بقالة التقيت به في هذا الوقت المتأخر من الليل في تلك الضاحية النائية وأطلب ما أريد . . وكلما طلبت شيئاً غمرتني فرحة جديدة وكلما رأيت حقيبة الورق التي أمامى تمتلىء ، امتلأت فرحتى وطلبت مزيداً حتى وددت أن أنقل كل ما في ذلك الحانوت الكبير إلى بيتها مرة واحدة ، وشعرت بهذه الفرحة تتزايد وأنا أسير في الليل على قدمى حاملا بين ذراعي هذه الحاجيات وكأنني أحمل سعادة الدنيا جميعاً . . ولما دخلت عليها محملا بكل هذه المؤن وكل هذه المواد الغذائية المحفوظة وغير المحفوظة التي تفيض عن حاجة أسرة كاملة لشهر أو يزيد . . فغرت فاها في دهشة

زائدة ، ورمتنى بالجنون ، واتهمتنى بالتبذير وبأننى لا أصلح لكى أكون رب أسرة أبداً ، وبأنه لو قدر لى أن أتزوج . . كان أول قرار يجب أن تتخذه زوجتى صباح الزواج مباشرة هو الحجر على . . ولا أدرى لماذا أحسست فى قرارة نفسى بارتياح لهذا القول لدرجة أننا كررناه ثانية ونحن على المائدة نتناول طعامنا ونضحك ونتحدث فى كل شىء . . ونضحك كثيراً . . ولم نمسك عن الضحك إلا عندما تناول حديثنا موضوع القضية مرة أخرى وتحدثنا فيها طويلا هذه المرة . . ورحنا نستعرض ظروفها القاسية مرة ثانية . . وكيف أن دم القتيلة ذهب هدراً بعد أن أغلقت جميع الأبواب والنوافذ بعد مقتل دسوقى الذى كان الوحيد الذى يمسك بالخيوط كلها فى يده، ولم أشأ أن أقص عليها ثانية تكييفى المنطقى للجريمة وأقول لها إن الذى قتل أملك هو دسوقى بعد أن تأكد أنها أصبحت عشيقة لغيره . . لم أشأ أن أقول لها ذلك حتى لا أزيدها ألماً ولا سيما بعد أن عرفت منها أنها منذ أن انتهى التحقيق وعرفت ما عرفت وخرجت من السجن ، وهى حريصة على أن تذهب فى صباح كل يوم جمعة إلى قبر المجنى عليها وتقرأ عليها الفاتحة وتترحم عليها مبتهلة إلى الله أن يغفر لها ذنوبها وأن يجعل الجنة مثواها . .

لهذا لم يتركز حديثنا على المجنى عليها ، ولا على دسوقى أيضاً ، بقدر ما ركزناه على هذا الرجل الذى شاهدته يخرج من مخدع القتيلة قبل الحادث بعشرين يوماً كما قالت فى التحقيق . . هذا الرجل الذى ما زالت شخصيته

مجهولة ، وأغلب الظن أنها ستظل إلى الأبد مجهولة لأنها هى نفسها لم تتأكد من رؤيته كل التأكد . . مع أنه لو اكتشفت شخصيته لتغير وجه القضية على الفور وأمكن معرفة كل الحقائق التى لا يعرفها سوى هذا الرجل المجهول .

كان هذا تقريباً هو محور حديثنا فى تلك الليلة التى سعدت بها سعادة لا تقدر لدرجة أننى لما انصرفت من بيتها على أن نلتقى فى الليلة التالية ، كانت غاية الأمانى عندى أن أغمض عينى وأفتحها على هذه الليلة الثانية التى سأراها فيها ، وآنس إليها كما رأيتها وأنست إليها فى هذه الليلة . غير أن الأمانى جميعاً حتى التى نشقى منها ليس من السهل تحقيقها ، وإن هى تحققت فدون ذلك العذاب ، والدليل أننى بعد أن خرجت من عند زينات فى تلك الليلة لم يتغير شىء ، فقد ظل الليل يسير فى بطء كعادته من ملايين السنين ، والقمر فى السماء يسير إلى مستقر له كعادته أيضاً لم يتغير فيه شىء ، وحتى الشمس عند ماجاء الصباح طلعت كعادتها من الأفق ، وظلت تسير فى بطء وتكاسل ممل طوال اليوم كله ، لم يتغير حتى لون إشعاعها ، وكذلك عقارب الساعة لم يتغير شىء فيها هى الأخرى ، منذ أن وجدت من مئات السنين ، بل أغلب الظن أنها قد تغير فيها شىء لم أفطن إليه الا هذا اليوم ، فقد بدأت تواصل سيرها فى ملل وضيق وجبن . . وفى خوف كذلك . . فقد كانت دقاتها مضطربة أشبه ما تكون تماماً بضربات قلب الخائف الوجل .

١٣

مرت الساعات التي كانت باقية على لقائنا الثاني وكلها ملل وضيق. .

ولما جاء الموعد سبقتني الفرحة إلى هناك .. وقد بلغ من فرط إحساسي بذلك أنني شعرت وأنا في الطريق إليها بشيء من الغيرة حيال هذه الفرحة التي سبقتني إلى هناك . إذ كيف يسبقني إليها شيء ، حتى لو كان هذا الشيء هو فرحتي باللقاء .

ولما ذهبت إليها في الموعد المتفق عليه ، وكانت الساعة الثامنة والنصف ، أطربني أنني وجدت عندي من الشجاعة والجرأة ما جعلني أوقف سيارتي أمام منزلها مباشرة ، ولم أبحث عن مكان خفي أوقفها فيه ، كما حدث مثلا في الليلة الماضية ، وكذلك وجدت عندي من الجرأة والشجاعة ما جعلني أهبط من السيارة علانية وأدخل البيت وأصعد ذلك السلم الموصل إلى باب مسكنها دون حرج أو خوف من أن يراني أحد . . . غير أنني عندما طرقت الباب فوجئت بشيء غريب لم أصدقه في أول الأمر . . ولكني تأكدت منه أخيراً . . وهو أنها ليست في البيت تنتظرني كما كنت أتوقع . . . وإنما وجدت البيت مظلماً . . بل مغرقاً في الظلمة والصمت . . فاندهشت . إذ أنها لم تتعود الخروج من البيت كما قالت لي . . ولم يحن

بعد موعد ذهابها إلى الملهى الذى ستعمل فيه ابتداء من الليلة . . فقد أخبرتنى أنها لن تذهب إلى هناك الا عند الحادية عشرة ، وهو الموعد الذى ستقوم فيه برقصها كل ليلة . . وقلت إنه لا بد أن يكون قد طرأ طارئ استدعى خروجها الآن ، وتمنيت مخلصًا أن يكون خيراً ورحت أنتظر . . وانتظرت طويلا جدًّا حتى تعبت قدماى من كثرة الذهاب والإياب أمام المنزل فى انتظار عودتها كما تعبت أيضاً من طول جلستى فى داخل السيارة أنظر إلى كل غاد ورائح . . ومكثت كذلك حتى اقتربت الساعة من الحادية عشرة وقطعت الأمل من مجيئها . . وكان لابد لى أن أراها على أى وضع لكى أطمئن عليها ، ولذلك لم أجد بدًّا من الذهاب إلى الملهى . . وكانت هذه أول مرة أذهب إلى هذا الملهى الليلى ، وابتعت تذكرة ووقفت فى وسط هذا المكان الجميل الهادئ أتطلع إلى مائدة بعيدة عن الرواد ، أجلس إليها . . إذ شعرت بحرج إذا أنا جلست بينهم . . فقد لاحظت أن كل رجل يجلس معه سيدة قد تكون زوجته وقد تكون غير ذلك ، ولكنها سيدة على أى حال . . ولم أر واحداً يجلس بمفرده حتى الذين جاءوا دون أن يصطحبوا نساء معهم . . إنما فعلوا ذلك لغرض ، وهو صلتهم ببعض الفتيات اللواتى يعملن فى الملهى واللواتى يجلسن معهم علانية على الموائد أمام الجميع ، وغير ذلك فلم أر مائدة واحدة خالية من الخمر وأنا لا أشرب الخمر أبداً ، فكيف أجلس فى وسطهم بلا خمر وبلا نساء . . لهذا كله بحثت عن مائدة بعيدة عن

الناس جميعاً ، وجلست إليها . . ومن ثم رحت أنظر من بعيد إلى هذا الخليط الغريب من الناس ، وإلى هذه الأماكن بالذات . . التى تظهر فيها أخلاق الناس على حقيقتها .. وإلى هذا التنافر العجيب وهذا التناقض الذى لا تجده إلا فى هذه الأماكن ، أو هذه الأوضاع التى لا تقبلها كرجل شريف الا فى هذه الأماكن فقط .. وتعجبت لماذا نحن نقبلها وفى هذه الأماكن بالذات. ، ورحت أتأمل هذه المائدة التى يجلس إليها زوج وزوجته ، وتلك التى تجاورها تماماً ويجلس إليها عشيق وعشيقته ، وكيف أنك تستطيع بسهولة أن تتبين هذا من ذاك وأن مجرد نظرة عابرة إلى هذا الرجل المتزمت الذى يصطنع الوقار اصطناعاً والذى يضع نصف تقطيبة دائمة فوق جبينه، تستطيع أن تعرف أنه زوج ، ونظرة إلى ذاك الذى يضحك ويهرج ويتحدث بهذا الصوت الصاخب وهذا الانطلاق بلا تحفظ تستطيع أن تعرف أنه عشيق .

وكذلك النساء . . . . . فأنت من السهل عليك جداً فى هذه الأماكن بالذات أن تتعرف بمجرد النظرة الخاطفة إلى شخصية كل واحدة منهن .. فهذه التى تجلس مرتدية كل هذه الثياب من الوقار والحشمة والتزمت الذى تعرف كيف تصنع منه فى لحظة واحدة عدة ألوان . . والتى تجلس وكل آمالها أن تتسع رقعة المائدة حتى تبتعد أكثر وأكثر عن الرجل الذى تجلس معه . . هذه هى زوجة من غير شك . . أما تلك التى على نقيضها تماماً والتى تغافل حتى نفسها وتقرب مقعدها من حين إلى حين إلى مقعد الرجل

الذى معها حتى تكاد تلتصق به من غير أن تدرى . . فهذه عشيقة من غير شك . . ورحت أتعجب من هذه الأوضاع التى كان يجب أن تكون على العكس تماماً .. وأتأمل حياتنا الغريبة التى نعيشها والتى نرتدى فيها دائماً ثوب النفاق . . دون أن يرغمنا على ذلك أحد . . كأن النفاق فريضة فرضتها علينا الأديان التى نعتنقها . . أو كأن الصراحة التى يجب أن نجابه بها أنفسنا جريمة نعاقب عليها ؟

وكدت أغيب فى دوامة هذا التأمل . . لولا أن أقبل الجرسون وانحنى أمامى تلك الانحناءة التى يرتسم الاحترام الكبير فوق ظاهرها فقط . . وخجلت أن أطلب منه قهوة أو شاياً أو كوباً من المثلجات . . ومع أن هذه الأشياء موجودة فعلا فى هذه الأماكن وموجودة ليطلبها الناس إذا أرادوا . . ولكن طلبها يجعلك دائماً موضع سخرية .. لماذا ؟ لا أدرى .. ولذلك خجلت فعلا أن أطلب شيئاً من هذا . . وطلبت زجاجة من البيرة . . ولما جاء بها . . ووضعها أمامى على المائدة . . رحت أحتسيها على مضض . .. وظللت كذلك أشاهد بعض الألعاب والنمر التى كان يعرضها هذا الملهى على رواده . . إلى أن انطفأت أضواء المسرح فجأة فانطفأ معها شىء كان فى وجهى . . ما هو ... ؟ لا أعرف . . لماذا انطفأ . . ؟ ! لا أدرى . . ولكن الذى حدث أننى شعرت بانقباض شديد . . وأنا أرى تلك الفرقة الموسيقية تخرج إلى المسرح وتعزف لحناً راقصاً . . وفجأة تعالى تصفيق يكاد يصم الآذان . . وكان له وقع الصواعق

فى أذنى . . ثم خرجت على إثره زينات تكاد تكون عارية تماماً إلا من بعض قطاعات محددة من جسمها ، وحتى هذه القطاعات أيضاً كادت تبدو عارية لولا بعض الأشرطة الحمراء والصفراء التى انعقد بعضها فوق أسفل البطن . . وتدلى بعضها الآخر وتناثر فوق الوركين ومؤخرة الأرداف . . وما إن رأيت ذلك حتى أحسست بما يشبه النار فى عينى . . فأدرت وجهى حتى لا أرى هذا الجسد يتعرى هكذا أمامى وأمام هذا الحشد الكبير . وتذكرت حديث زينات لى ، عن الفرق بين البغى والراقصة ولست أدرى لماذا أحسست أنها كانت على حق عندما عقدت هذه المقارنة وأن الفرق لا يكاد يذكر ، أو هو يذكر فعلا إذا ما تحدثنا عن الأخلاق . . — أى أخلاق — وقارنا بين التى تدفعها الحاجة إلى أن تتعرى فى الظلام ولعين واحدة . . وهذه الذى تتعرى تحت الأضواء ولمئات العيون .. ورحت أسأل نفسى ... ما هو الشرف .. وما هو مفهومه عند المرأتين . . . . . . وما هو الشرف فى مفهومه عند المجتمع ؟ ! . .

وظللت كذلك إلى أن دوى التصفيق فى أذنى مرة أخرى . . فاستدعيت الخادم وأنقدته ثمن زجاجة البيرة وأجزلت له بعد ذلك فى العطاء . . وأعطيته ورقة لزينات قلت لها فيها . . إننى فى الصالة وإننى أنتظرها . .

ومن ثم رحت أنتظر . . وانتظرت فعلا ساعات طويلة . . ولما انصرف الناس جميعاً . . ولم يبق غيرى تقريباً . . نظرت فى ساعتى

فوجدتها الثالثة صباحاً . . اندهشت وسألت عنها أحد الخدم . . فقال ساخراً وهو ينظر لى فى كثير من الازدراء . . بأن الست زينات إنما انصرفت من ساعات طويلة . . أى عقب أن أنهت رقصتها مباشرة . . فازدادت دهشتى وانصرفت . . وذهبت إلى بيتها . . ولكنى عندما بلغت البيت انصرفت على الفور لأننى وجدت نفسى فى حاجة إلى جرأة أهل الأرض جميعاً . . وحتى لو ظفرت بها لما استطعت أن أدخل بيت راقصة فى هذا الوقت المتأخر من الليل . . وفى اليوم الثانى . . وجدت نفس الشىء . . ذهبت إليها فى البيت فلم أجدها . . ولم أشأ أن أذهب إليها فى الصالة ثانية . . فقد أحسست أننى لن أقدر على هذا مرة أخرى . . ومر يوم آخر . . ولم أجدها أيضًا . . وهكذا مرت ثلاثة أيام لم أرها ولم تحاول هى أن تتصل بى مما زاد مخاوفى وجعلنى أترك عملى وأذهب إليها فى النهار ما دام قد تعذر علىّ وجودها فى الليل .

١٤

لا حظت شيئاً غريباً عندما وصلت إلى البيت . . فما إن كدت أوقف سيارتى وأهبط منها وأصعد إلى باب المسكن حتى رأيت رجلا عملاقاً ــ عرفت فيما بعد أنه البواب ــ يعترض سبيلى .. ويسألنى فى غلظة وخشونة عما أريد .... فارتبكت .. وشعرت بشىء كثير من الحرج . . إذا ماقلت له عما أريد . . وبشىء كثير من الحرج أيضاً إن لم أقل له شيئاً . . وماذا سأقول له إن أنا أنكرت عنه الحقيقة ؟ وكأن الرجل لاحظ علىّ هذا الارتباك لأنه قال مستطرداً وقد ازدادت لهجته جفاء :

ــ إذا كنت تريد الست زينات . . فهى لا تريد أن تقابل أحداً . .

ــ هى التى قالت لك ذلك ؟ . .

ــ طبعاً . .

فلم أنطق . . ورحت أهبط الدرج ثانية . . وكان هو أيضاً يهبطه خلفى . . فقلت له ونحن عند الباب الخارجى :

ــ قد تكون الست زينات تعنى أحداً آخر لا تريد مقابلته ؟

ثم استطردت وأنا أخرج ورقة من جيبى لأكتب عليها شيئاً :

ــ فهل لك أن تخبرها بوجودى . . وتعطيها هذه الورقة . .

فلم يشأ الرجل حتى أن يصغى إلى . . وإنما قال وهو ينصرف لينهى الحديث :

ــ أنا لا أعرف أحداً آخر يتردد عليها . .

فوقفت خزيان . . إذ فهمت من حديث الرجل أننى المقصود بالذات . . ومما يزيد هذا تأكيداً . . محاولة تهربها منى فى الأيام الثلاثة الماضية . . وقد اندهشت دهشة كبيرة لهذا الانقلاب الغريب ، إذ مازلت أذكر اللحظة التى ودعتها فيها . . ونحن على أحسن حال ، وبعد أن تفاهمنا تفاهماً صريحاً وجميلا . . وطيباً فى الوقت نفسه . .

ورحت أفكر فى شتى الأسباب البعيد منها والقريب . . . . والطيب منها وغير الطيب . . وحتى الخبيث الذى لا يتأتى إلا لذوى النفوس السيئة . . ومع ذلك لم أهتد إلى سبب واحد معقول أو حتى غير معقول . . يجعل زينات تفعل معى هذا الذى فعلته . . ولو كنت وجدت سبباً ، ولو كان تافهاً ، فربما كنت أرحت نفسى من هذا العناء ، وعملت أنا من جانبى على تلبية هذه الرغبة ، ولكننى لم أجد . . ولذلك كان علىّ أن أراها . . وأن أراها بأىّ حال ، ومهما كلفنى ذلك من ثمن . . ولهذا قمت بعمل جرىء لم يكن أمامى سواه . . وهو أن أنتظرها عند منتصف الليل أمام منزلها . . فهى كما قد عرفت تنتهى دائماً من رقصتها فى الملهى حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف . . وهى كما تعودت وعرفت أيضاً . . تنصرف عقب الانتهاء من عملها مباشرة . . وهى تنصرف دائماً إلى

بيتها . . وسواء أكان ذلك أم غيره فهى لا بد أن تذهب إلى البيت . . وإذن فخير السبل إلى أن أراها وأتحدث إليها وأعرف منها حقيقة هذا التغير الغريب هو أن أنتظرها فى هذا المكان بالذات .

* * *

ما كادت الساعة تقترب من منتصف الليل حتى كنت أجلس داخل سيارتى أمام مدخل البيت مباشرة . . ومن ثم رحت أنتظر . . ولا أدرى هل انتظرت طويلا أو لا . . ولا أدرى حتى ما هى الأفكار التى كانت تدور برأسى طوال ساعات هذا الانتظار . . وهل كانت من السواد بحيث إنى كلما حاولت أن أبعدها اقتربت هى . . أو أنها كانت من الأفكار المطمئنة التى تريح البال وتجعل الإنسان يتمسك بها ريدور ويلف حولها كما تدور الفراشة حول مضباح من نور . . أو تلف النحلة حول زهرة متضوعة العطر . . وإنما الذى أدريه تماماً هو أننى رأيتها بعد منتصف الليل بعشر دقائق على وجه التحديد . . وهو القدر الذى قطعته فى الطريق من الملهى إلى البيت بعد أن فرغت من عملها مباشرة . . رأيتها مقبلة من بعيد فى سيارة أجرة . . ولما وقفت بها السيارة بالقرب من البيت وهمت بأن تغادرها كانت قد رأتنى ، فإذا بها ترتد سريعاً إلى داخل السيارة وتختبئ فى قلبها وهى تأمر السائق بأن ينطلق سريعاً وقد انطلق بالسيارة وبها فعلا .. فاندهشت . . اذ تأكدت من أشياء كثيرة . . كنت أحاول أن لا أصدقها . . أو حتى أسمح لنفسى بالتفكير فيها . .

وما دامت قد حدثت .. وما دمت قد تأكدت منها .. فلا بد لى على الأقل أن أعرف أسبابها . . ولذلك تصرفت تصرفاً لا يصدر عن عاقل أبداً . . إذ كنت أشبه بصبي صغير حدث السن . . وأنا أطاردها بسيارتى وأتعقبها فى كل مكان تختفى سيارتها فيه . . ولما أدركت أن لا مفر لها وأننى سوف أتعقبها مهما حاولت الهرب منى . . أوقفت السيارة وهبطت منها وصرفت السائق ثم جاءتنى حانقة ثائرة وقالت وكل شيء فيها يرتعش من الغيظ :

ـ لماذا أنت تتعقبنى ؟ !

ـ ولماذا أنت تهربين منى ؟ !

ـ أرجوك . . ابتعد عن طريقى . .

فازدادت دهشتى وقلت :

ـ هكذا دون ما سبب ؟ !

ـ أجل . . دون سبب . . دون سبب . .

فقلت وأنا أنظر إلى وجهها المحتقن وعينيها المغرورقتين بالدموع :

ـ لابد من سبب . .

ـ السبب هو أنت . . أنت .

ـ أنا ؟ !

نطقتها فى ذهول لاحد له . . ثم أطبقت ولم أنبس . ورأيت كل شيء فيها يرتعش ويهتز . . ففتحت باب السيارة وأجلستها بجانبى ومن ثم قلت

لها وأنا أنظر إلى شيء في عينيها يحترق :

ـ أنا السبب ؟ !

فانفطرت الدموع من عينيها وقالت :

ـ أجل . . أنت السبب . .

فتوجست خيفة . . وظننت فعلا أنني إنما ارتكبت شيئاً أغضبها وأغضبها إلى هذا الحد . . حد أنها تتهرب مني . . وحد أنها تبكي بهذه الحرقة . . ولهذا سألتها وأنا أضطرب كما لو كنت فعلا قد ارتكبت عملا مشيناً :

ـ لماذا أنا السبب . . وماذا فعلت ؟ !

فلم تجب . . وصمتت بعض الوقت . . ولما جففت دموعها قالت وكأنها تخاطب إنساناً لا تعرفه ولم تره من قبل :

ـ ماذا تريد مني ؟ !

وكنت أنتظر كل شيء إلا أن أسمع منها هذا القول الذي أحرجني حرجاً شديداً .. وزادني حرجاً أنني لم أجد جواباً أرد عليها به .. ولذلك صمت . . ومرت فترة صمت ثقيلة كدت أرزح تحتها خجلا ومع ذلك استطعت أن أخرج من هذا الصمت وأن أتكلم . . وقلت لها :

ـ أنا أريد لك . . ولست أريد منك .

ـ تريد لي ماذا ؟ !

ـ الخير . .

فقالت فى سخرية جارحة وهى تبتسم فى مرارة :

ــ حتى الذى يسرق . . يظن أحياناً أنه يفعل الخير . .

ــ وهل أنا لص ؟

فقالت فى خشونة :

ــ إنك تريد أن تكون كذلك . .

ــ إنك تجرحيننى بهذا القول . .

ــ بل أنت الذى تريد أن تجرحنى . . وكأن تلك الجراح التى تعرفها . . لم تؤثر فيك . . . . حتى تريد أن تجرحنى هذا الجرح الذى سيودى بحياتى . .

فخرجت عن طورى حتى كدت أخنقها . . ولكن يدى تجمدت بجانبى . . وقلت :

ــ ما هذا القول الذى تقولينه ؟

ــ بل قل أنت . . ماذا تريد منى . . وماذا يريده شاب فى مثل سنك من فتاة مثلى . . لماذا يريد أن يصادقها ، ويوطد علاقته بها . . ويتردد عليها فى بيتها . . ويلاحقها فى كل مكان تذهب إليه . .

فنظرت إليها لكى أتأكد من أن هذه هى زينات التى كنت أتحدث إليها طيلة أمس الأول حتى الثالثة صباحاً . . ولما تأكدت من أنها هى فعلا . . قلت وكأننى أهذى :

ــ ما الذى غيرك هذا التغيير المفاجئ ؟

ـ أرجوك . . إننى أسألك ماذا تريد متى ؟

ـ قلت لك لا شىء . .

ـ إذن . . لماذا لا تتركنى ؟

ـ لأننى لا أستطيع . .

ـ ولماذا لا تستطيع ؟

فازددت حرجاً . . وارتبكت ارتباكاً شديداً . . ولما لم أجب . . قالت وكأنها تريد أن تصرخ :

ـ قل . . تكلم . . لماذا لا تستطيع ؟

ـ لأننى أحبك . .

نطقتها سريعاً . . وبلا تريث . . وبلا وعى أيضاً . . فقالت وقد هدأت على الفور وكأنها ما كانت تريد سوى أن تنتزع منى هذا الاعتراف :

ـ هذا ما كنت أخشاه . .

ـ تخشين أنى أحبك ؟

ـ أجل . .

ـ ولماذا تخشين هذا ؟

فقالت . . وكأنها تنتزع القول انتزاعاً :

ـ أتريدنى أن أصدقك القول ؟

ـ من غير شك . .

ــ لأننى لا أحبك . .

ــ أنت تكذبين . . لأن ما لمسته منك حتى ليلة أمس الأول على الأقل يؤكد غير ذلك . . ثم إنه لا يمكن أن يكون هذا هو شعورى نحوك وأنت لا تبادليننى نفس الشعور . .

ــ جائز جداً . ..

ــ لا . .

ــ أمن الحتم أن نتبادل الشعور ؟

ــ إن الزهور دائماً لا يصدر عنها غير العطر . .

ــ كثير من الزهور لا عطر لها . .

ــ ليست من فصيلة الزهور إن لم يصدر عنها العطر . .

ــ أليس من الجائز أن يكره الأخ أخاه ؟

ــ فى السراء فقط . . أما فى الضراء فهو شقيقه ابن أمه وأبيه . .

فاختنق صوتها كثيراً وهى تقول :

ــ وهذا هو الضر الذى أخشاه . .

ــ أى ضر ؟

ــ أن تحبنى وأن أحبك . .

ــ أضر . . أننا نتحاب ؟

ــ بالنسبة لى على الأقل . .

فازددت حيرة وقلت :

ــ أتشكين فى حبى لك ؟

ــ ليس هذا هو الذى يعذبنى . .

ــ ما الذى يعذبك إذن ؟

ــ أنك تحبنى كل هذا الحب . .

فأمسكت بيديها ووضعتها بين يدى . . وقلت وأنا أتحسس ظهر يدها وكأننى أتحسس شغاف قلبى :

ــ إذن ما الذى تخافينه ؟

فاختنق صوتها مرة أخرى واغرورقت عيناها بالدموع ثانية وقالت :

ــ إننى أسأل نفسى . . ما هو مصير هذا الحب . . وما هى نهايته ؟؟

ــ لن تكون له نهاية أبداً . .

ــ لكل شىء نهاية . .

ــ شيئان ليست لهما نهاية . . الله . . والحب . .

ــ ومع ذلك فإنى خائفة . .

ــ مم ؟

ــ لا أدرى . .

ــ هل تشكين فى طهارة خلقى ؟

فقالت صارخة وهى ترتمى على صدرى وتبكى :

ــ لا . . لا . . ليس هذا ما أخافه . . ليس هذا ما أخافه . .

ــ فيم الخوف إذن ؟

فأجهشت فى بكاء طويل وقالت فى خوف شديد وهى تلوذ بأحضانى مرتعشة . . وكأنها تبحث بين خبايا صدرى عن مكان تختبئ فيه :

ــ إننى خائفة عليك . . خائفة عليك منى . . أفهمت ؟

فربت على صدرها المختبئ فى صدرى وقلت :

ــ تحدثى . . قولى كل شىء . . تخافين علىّ مم ؟

ــ قلت لك منى . . منى . .

ولما كانت ثقتى فى خلقها فوق الشبهات جميعاً . . قلت :

ــ منك أنت يازينات ؟

ــ لست أخاف عليك من زينات التى تعرفها أنت . . وإنما أخاف عليك من زينات الراقصة التى يعرفها الناس . .

فأدركت على الفور كل ما تعنى . . وكل ما يجول فى خاطرها . . كما أدركت أيضاً لماذا أغلظت لى فى القول أول الأمر . . ولماذا كانت تريد أن تنصرف عنى . . وكيف أنها كانت جادة عندما تهربت منى . . ولا أدرى لماذا قدرت لها هذا الشعور تقديراً معيناً . . وتأثرت به إلى حد أننى كدت أبكى وأنا أضم شغاف القلب على هذا الشعور النبيل وهذا الجميل الذى جعلنى أحس لأول مرة فى حياتى بأن لى فى هذا الوجود من يحبنى ويحرص على ويريد لى أكثر ما يريده لنفسه من خير ، والشعور بذلك ليس من السهل احتمال السعادة به ولا الصبر على الاعتراف به . .

فإظهاره والاعتراف به هو خير حافظ للفضل نفسه . . إن كنت حقيقة تريد أن تبقى عليه وتثبت أنك جدير به . . لهذا كله لم أتمالك نفسى فبكيت حقيقة . . بكيت وأنا أضم هذه السعادة كلها إلى صدرى وأحتويها بين حنايا الضلوع . . وأنا أربت على كتفها الصغيرة التى كانت لا تزال مستلقية على كتفى . . ودموعها لا تزال تنساب دافئة فوق صدرى . . ولما أحسست بذلك الدفء يتسرب إلى قلبى رفعت ذلك الرأس الصغير الذى أحبه إلى عينى ومن ثم تحسست بشفتى ذلك النور الذى فوق الجبين وعند مفرق الشعر تماماً. أودعت قبلتى التى قدر لها منذ هذه اللحظة أن تكون العنوان الجميل لكتاب حبنا السماوى . . . حبنا الذى عشنا له وبه زمناً . . فكان هو الزمن وكان هو العمر وكان هو الدنيا وهو الحياة . . حبنا الذى كان لنا أشبه بالكتاب المقدس الذى يهدى إلى سواء السبيل ويعلم الطهر والصفاء . . والخلق الطيب . . ويخلق من البشر أناساً يترسمون خطى الملائكة فيما يقولون وفيما يعملون وفيما يحبون لأنفسهم ويحبون لغيرهم من الناس.

* * *

وبهدى من هذا الطهر والصفاء . . والبعد عن الغرض . . توطدت علاقتنا واستقامت حياتنا بعيدة عن الشوائب وبعيدة أيضاً عن كل ما يحتمل فى النفس من سوء أو ما يشوبها من متاعب . . فقد تجنب كلانا كل مايضايق الآخر. وكل ما يؤذى شعوره أو يسبب له المتاعب. فقد كان أشد ما يؤذيها أن ترى قدمى تنزلق إلى الصالة التى تعمل فيها ، ويرانى أحد

روادها وأننى لا أزيد أو أنقص عن أولئك الذين يعيشون فى الظلام كما كانت تسميهم . . وكان أشد ما يؤذى شعورى ويؤرقنى طوال الليل ويجعلنى أتقلب على فراشى أتوجع من حرقة النار المشتعلة فى مرقدى هو أننى أراها ترقص أمام الناس وأن أرى تلك العيون النهمة وهى تنطلق معربدة كالسهام وتنغرز فى كل موضع تعرى من جسدها أو اختفى خلف الثياب . . ولا أدرى لماذا كان هذا يسبب لى كل هذه الآلام . . وكل هذه النار التى تحرقنى فى الليل وفى النهار . . تحرقنى وأنا مغمض العينين وتحرقنى أيضاً وأنا مبصر أرى تلك العيون التى كانت تنغرز سهامها الملوثة فى قلبى أنا . . لقد كنت أحس وأنا أتوجع حقيقة أننى إنما أتوجع لنفسى وليس لأحد آخر . . ولشد ما كان يزيدنى هذا الإحساس توجعاً فلا أملك غير أن أبكى وأبكى طويلا دون أن تنسكب دمعة واحدة من عينى . . ولقد علمنى هذا أن حر البكاء وأشده حرقة وإيلاماً هو الذى من غير دموع . . ولما أدركت هى هذا بفطنتها . . وكنت أتحرج فى أن أظهرها عليه حتى لا أزيد من آلامها امتنعت عن الرقص وطلقت هذه المهنة ولم تعد إليها بعد ذلك أبداً . . وكانت بهذا سعيدة . . سعادة لا تقدر كما قالت لى فيما بعد . . لأنها استطاعت بذلك أن تجعلنى أتجنب مواطن الزلل ... بأن أبتعد عن ارتياد هذه الأماكن التى كان انهيار القيم فيها وتحطيم المقدسات وركلها بالنعال .. هو غاية كل من يرتادها كما كانت تقول!

١٥

استأجرت لزينات شقة صغيرة منعزلة فى حى هادئ من أحياء القاهرة .. وأثثناها أثاثاً لا بأس به . . وزودناها بكل ما تحتاج إليه فتاة فى مثل خلق زينات .. أحب الأشياء إليها هو أن تكون بعيدة عن الناس وأسعد الأيام عندها هى التى تقضيها وحيدة بين جدران بيتها لا ترى أحداً ولا يراها أحد . . وكنت أتردد عليها من حين إلى آخر . . لأطمئن عليها أو أقضى لها ما تكون فى حاجة إليه . .

وعلم الله الذى أشهده على نفسى وأنا أدون الآن هذه المذكرات، والقلم يرتعش فى يدى . . ويكاد يرتعد فرقاً كلما اقتربت من الأحداث الجسام التى أرويها فى صدق وأثبت كل صغيرة وكبيرة فيها بأمانة وإخلاص . . أقول أشهد الله على أننى ما ترددت على بيتها الجديد بعد ذلك أو ذهبت إليها فيه مرة فى الليل أو فى النهار إلا كما يتردد العابد على المحراب ليستمتع بلحظات من الهدوء والسكينة ورضا النفس والزلفى إلى الله بالنية الحسنة واطمئنان البال .

وبرغم أن ترددى عليها كان قليلا نظراً لكثرة مشاغلى التى كانت أحياناً تستغرق منى النهار والليل كله . . فقد كانت تطرب له كثيراً وتفرح له فرحاً زائداً . . وكان هذا يسرنى سروراً بالغاً . . إذ كان أقصى

أمانى أن أنزل الطمأنينة إلى قلبها دائماً ، وكنت كلما وجدت متسعاً من الوقت قضيته معها إما فى البيت أو فى نزهة بالسيارة فى الخلاء وأحياناً كنا نذهب إلى السينما، وكثيراً ما كنت أسأل نفسى وأنا معها . . لماذا أنا سعيد كل هذه السعادة وأنا فى صحبتها ؟ ! وكانت هى أيضاً تسأل نفسها هذا السؤال عينه . . وكان الجواب يجىء دائمًا واحدًا لا يتغير .. لأننا نحب لغير ما غاية ولغير ما هدف .... كان حبنا كالزهر تماماً .. غاية ما ننشده منه هو أن تظل رائحته تتضوع عطراً .

وهكذا ظللنا وظلت سفينة السعادة تمخر بنا عباب النعيم تحيطها إشعاعات من نور باهر الضياء يهديها دائمًا إلى الطريق القويم ويجنبها عوادى الغرق أو يكتسح أمامها الصخور حتى لا ترتطم بصخرة منها فتتحطم . . وما كنت لأظن أبداً أو حتى يظن القدر نفسه أن سفينة سعادتنا هذه سوف تتحطم وبهذه القسوة وهذا العنف . . وأن موجة عاتية سوف تقذف بها فجأة فتجعلها فى سرعة الغمض تتحطم وتتناثر أشلاؤها فوق الصخرة وتذهب معالمها فى جوف البحر وأن يحدث هذا كله سريعاً جدًا . . وقبل أن تقوم من مقامك . . أو حتى قبل أن يرتد إليك طرفك .

فقد كنت فى تلك الليلة على موعد مع زينات لنشاهد فيلماً كان يعرض إذ ذاك فى سينما « ديانا » بشارع ألفى بك . . وبينما كنت أنتظرها على باب السينما . . شاهدت سيارة أبى الحمراء الكبيرة يجىء بها عم أحمد السائق ويقف بها أمام مطعم سان جيمس ، كما شاهدت

أبى خارجاً من المطعم بعد تناول العشاء وكان فى صحبته أحد أعيان الدائرة الانتخابية الذى سيساعده فى الانتخابات ، وكنت لم أر أبى من عدة أيام فذهبت إليه وصافحته وتحدثت إليه فى بعض الشئون ، وسرنى كثيراً أننى وجدته مبتهجاً إلى سير المعركة الانتخابية التى قربت نهايتها والتى تبشر بالنجاح المؤكد ، ثم صافحنى مرة أخرى وانصرف مع من معه

وانصرفت أنا أخترق عرض الطريق لكى أنتظر زينات . . غير أننى شاهدتها واقفة فى الظلام على الطوار الجانبى بجوار مطعم نيو كورسال فذهبت إليها وما إن اقتربت منها حتى وجدتها فى حالة اضطراب شديد وذهول يكاد يفقدها صوابها . . فاندهشت وزادت دهشتى عندما وجدتها تمسك بذراعى بيديها المرتعشتين وتسألنى وهى تكاد من الخوف تصرخ فى الطريق :

ــ من هذا الرجل الذى كنت تتحدث إليه ؟

وكانت طريقة إلقاء السؤال غريبة .. ومريبة فى الوقت نفسه .. فقلت :

ــ لماذا ؟ . .

فهزتنى فى عنف من كتفى وهى تصرخ هذه المرة :

ــ تكلم . . قل . . من هذا الرجل الذى كنت تتحدث إليه ؟

ــ لماذا أنت مضطربة هكذا ؟

فقالت وهى تكاد تسقط إغماء . . لولا أنها استندت إلى كتفى :

ــ هل تعرف من هو هذا الرجل ؟

ـــ من ؟ !

ـــ إنه الرجل الذى رأيته بعينى هاتين يتسلل من مخدع « أمى » قبل أن تقتل بأيام . .

ففتحت عينى وأغمضتها آلاف المرات . . قبل أن ألتقط أنفاسى وقلت وكأننى أخاطب شبحاً خرج إلىّ فى الظلام :

ـــ ما هذا القول ؟

فلم تصغ إلى ما أقول . . واستطردت وهى ما تزال تهزنى من كتفى :

ـــ لماذا أنت تنتظر . . أستيقظ . . أسرع خلفه . . أمسك به . . اقبض عليه . . إنه هو الذى قتل أمى . .

فلم أستيقظ كما كانت تريد . . وإنما ظللت فى مكانى متحجراً أشبه ما أكون بتمثال من الحجر تماماً . . ولم أفق إلا على شىء يتسرب من بين أصابعى ويتطاير فى الهواء . . عرفت فيما بعد أنه كان تذاكر السينما . . ثم ذهبت معها إلى البيت ولا أدرى حتى الآن . . هل ذهبت معها إلى البيت فى سيارة أجرة أو فى سيارتى . . وهل كنت أقودها أو لا . . وهل كدت أرتكب أكثر من حادث فى الطريق أو أننى كنت متمالكاً لقواى العقلية والجسمانية . . وهل كانت هى من الإعياء والفزع بحيث حملتها على كتفى حتى أدخلتها البيت أو هى التى فعلت معى ذلك . . كل هذا لا أذكر منه شيئاً الآن . . ولكن الذى أذكره جيداً هو أننى كنت وأنا معها نتحدث كلما أفقت من غشيتى . . .

وعادت هى فأكدت أن هذا « الرجل » هو نفسه الذى شاهدته بعينيها يخرج من بيت المجنى عليها . . فعدت ثانية إلى فقدان صوابى ، كما أذكر شيئاً آخر وأذكره جيداً . . وهو أننى لم أقل لها من هو هذا الرجل ولا ما هى صلتى به . . وهل أعرفه أنا معرفة جيدة أو هى معرفة عابرة ؟ كما أذكر شيئاً ثالثاً وأذكره تماماً . . لأنه لا ينسى وهو أننى بعد أن غادرت بيتها فى الساعة الثالثة صباحاً فى هذه الليلة وقطعت ثلاثة أرباع الطريق إلى بيتى . . عدت ثانية فرجعت إليها لأسألها بعض أسئلة جديدة اتضح أننى سألتها لها أكثر من مرة . . مثل هل هى متأكدة من هذا القول الذى تقوله .. ومثل رجائى لها أن تكون مخطئة فى الفهم .. ومخطئة فى النظر . . ومخطئة فى الرؤية . . ولكن المسكينة لم تستجب لرجائى ولم ترحم قلبى . . فجعته فى أعز ما يملك . . وهو حياته . . وراحت تؤكد لى كل حرف قالته . . وتدعم قولها بالأسانيد والأدلة والوصف الدقيق للرؤية . . وهى تعيد علىّ نفس المشاهد التى رأتها بعينيها ووصفتها فى التحقيق وصفاً دقيقاً وكيف أنه كان يضع صحيفة على وجهه حتى لا تراه . . ولكنه عندما استدار ليخرج من الباب . . استطاعت أن ترى نصف وجهه . . بل ثلاثة أرباع الوجه . . وكيف أنه هو نفس الوجه ونفس الشارب . . . ونفس العيون الضيقة التى تميل إلى السواد . . ونفس الياقة المنشاة والدبوس الماسى الذى يلتمع بريقه فوق رباط العنق ، بل نفس الطول والعرض واللون الذى يميل إلى السمرة .



ولما أعادت على مسامعى كل هذه الأوصاف للمرة العاشرة بعد المائة . . أو المائة بعد الألف تركتها وانصرفت ثانية إلى الطريق أو إلى البيت لا أدرى . . وأنا أسبح فى دوامة من الهواجس الغريبة والأفكار السوداء . . ترى هل هو أبى حقيقة . . ولو كان هو . . فما هى العلاقة التى كانت بينه وبين هذه المرأة . . وهل أبى كذلك . . ممن لهم علاقات نسائية ؟ ! ولكنى أعرفه جيداً . . إننى ابنه . . . وأكاد أعرفه أكثر مما يعرف هو نفسه . . حقيقة إنه كأى إنسان آخر فيه الكثير من صفات الخير ومن صفات الشر . . ولكن صفة الشر هذه بالذات ليست أبداً من صفاته . . إن كل ما فيه من صفات الشر حقيقة كما أسميها أنا « صفات شر » هو حب المادة . . وجمع المال . . والجرى خلف الشهرة والمجد بأى ثمن وقد بلغ من ذلك كل ما يريد بل أكثر مما يريد . . فهو يملك ما يزيد على أربعة آلاف من الأفدنة . . . غير العقارات الكثيرة التى تدر عليه أموالا طائلة . . وبلغ من الشهرة والمجد ما لم يبلغه غيره . . فهو « باشا » وهو مرشح للوزارة .

مثل هذه الصفات أعرفها فى أبى . . ولكن هذه « الصفة » بالذات لا أعرفها عنه أبدًا ، ولا أستطيع أن أكون خالص الضمير إذا اتهمته بها . . ولو كان كذلك . . أفيكون هذا مع تلك المرأة ؟ ! إنها كما هو ثابت من التحقيق فى الخامسة والأربعين من عمرها . أى أنها عجوز لم يفتها القطار فحسب . . وإنما فات عليها فعلا حتى كادت عجلاته

تأكل شبابها وتدوس أنوثتها بدليل الآثار التى تركتها فى الوجه هذه العجلات الخمس والأربعون . . حقيقة إنها كما يتضح من صورها كانت لا تزال بها بقية من جمال . . وبقايا من أنوثة . . ولكن ليس إلى هذا الحد . . حد الفتنة والعشق . . و . . القتل أيضاً .

وكدت أسترسل فى هذه الأفكار ، وفى غيرها . . لولا أننى فجأة . . رميت نفسى بالسخف . . وقصر النظر وبلادة التفكير . . إن الذى يعنينى الآن ليس هذا أبداً . . ليست هذه العلاقة وأسبابها إن مجرد التفكير فى ذلك معناه أننى قطعت بأنه أبى حقيقة . . إن الذى يتحتم علىّ أن أفكر فيه أولا : أهو أبى أم لا . . وكنت كلما فكرت فى ذلك ورأيت الظنون تسبقنى إلى تلك النافذة السوداء . . التى سأطل منها على الحقيقة ، أحسست بنار السكين التى تنغرز فى صدرى . . وكلما فكرت فى العكس أو أملت فى أن يكون العكس هو الصحيح أحسست بتلك السكين تنسل من صدرى وتخرج منه . . والغريب أننى كنت أشعر فى الحالين بنفس الأوجاع .

١٦

واتتنى فكرة لا أدرى لماذا ارتحت إليها بعض الشىء . . وأحسست بعدها أن آلامى قد نامت . . كماتنام تماماً آلام الطفل الذى تلهب رأسه الحمى إذا ارتفعت درجة حرارته إلى حد الهذيان .

إن زينات قد رأت أبى وهو يتحدث إلىّ فى الليل ، وعيون الليل مهما كانت مبصرة فهى لا ترى ماتراه عيون النهار . . فلماذا لا أمكن لزينات من رؤية أبى مرة ثانية فى النهار . . ومن المقطوع به أنها بذلك سوف تزداد تأكيداً إن كان هو أم لا . . ولكن كيف أمكن لها من ذلك دون أن أجعله يراها . . حتى لا يعرفها . . حقيقة إنه من المقطوع به حتى الآن أن أبى لا يعرف زينات ولم يرها فى حياته . . ولكن إذا كان هو فعلا الشخص الذى شاهدته زينات يتسلل من غرفة القتيلة ، هذه الغرفة التى كانت زينات تقف على بابها تلك اللحظة . . فمن المقطوع به أنه رآها وأنه سوف يعرفها فى الحال إذا وقعت عينه عليها . . وأنا ليس من صالحى ، حتى الآن على الأقل ، أن يعرف أبى من هى زينات . . فكيف إذن أمكن لها من أن تراه دون أن يراها هو؟ ... رباه ! أن رأسى يكاد ينفجر . . .

وهكذا مر الليل بطوله . . ولما جاء النهار . . كان أسوأ حالا بكثير

من الليل الطويل الذى مضى ، فقد واتتنى فكرة لا أعرف كيف اهتديت إليها . . ولذلك نفذتها فى الحال . . فقد كانت فكرة صائبة فعلا . . . كان المكتب الذى اتخذه أبى لنفسه فى ذلك الحين ليدير منه أعماله ويعقد فيه اجتماعاته ويستقبل فيه من يريد استقباله من أهل دائرته الانتخابية يقع فى إحدى عمارات الخديوى بشارع عماد الدين ، وكان المسكن الذى يجاور مكتب أبى مباشرة ولا يفصله عنه سوى باب المصعد فقط هو مسكن مدام إيلين مصممة الأزياء المعروفة ، وكانت بحكم مهنتها تتردد عليها نساء كثيرات من شتى الطبقات ، وكنت أعرف ذلك جيداً لأن أمى كانت فى يوم ما إحدى زبائن مدام إيلين . . وكثيراً ما كنت أذهب معها إلى هناك . . فقد كانت أمى مقلة جداً فى الخروج ، ولا تخرج إذا خرجت إلا فى صحبتى أنا بالذات . . فلماذا لا أشترى بعض الثياب لزينات وأجعلها تذهب بها إلى مدام إيلين وفى وقت يكون أبى فى مكتبه يستقبل ويودع بعض زواره الذين كان يصر — ولا سيما فى هذه الأيام الأخيرة للانتخابات — على أن يودعهم لا إلى باب المكتب فقط ، وإنما إلى باب المصعد بالذات ، وبذلك تستطيع زينات من خلف شراعة باب مسكن مدام إيلين أن تراه جيداً دون أن يراها هو . . ونفذت هذه الفكرة . . وقامت زينات أيضاً بتنفيذ كل ما اتفقت معها عليه بدقة زائدة .. وجلست أنا أنتظرها فى قلب سيارتى أمام «بار فنيكس» الذى لا يبعد عن العمارة إلا بأمتار قلائل . . وكل جارحة فىّ وكل نقطة دم

تجرى فى عرق من عروق ترجو وتتمنى وتضرع إلى الله أن يخيب ظن الفتاة .. وأن تكون الرؤية التى رأتها خاطئة . . . وبرغم أننى انتظرت طويلا .. وانتظرت ما يزيد على الساعتين تقريبًا ، إلا أننى لم أشعر بملل الانتظار ولم أضق به، بل العكس تماماً هو الذى كنت أشعر به . . كنت أود أن يطول انتظارى النهار كله والليل أيضاً بل العمر بطوله . . فقط لا تأتى زينات وتقول لى إنه هو . . كنت أشعر فى هذه اللحظات أنه فى مقدورى أن أحتمل كل شىء . . أحتمل حتى أن تموت زينات قبل أن تجىء إلى أو أن أموت أنا قبل أن تجىء زينات . . أما الذى كنت لا أستطيع حتى مجرد التفكير فيه فهو أن تتحقق رؤية الفتاة . . وأن يكون الرجل الذى سوف تراه الآن هو نفسه الرجل الذى رأته يتسلل من مخدع المجنى عليها قبل ارتكاب الجريمة بأيام . . ولذلك عندما وقعت عينى على زينات وهى خارجة من باب العمارة . . ذلك الباب الذى ظلت عينى مسلطة عليه ما يزيد على الساعتين حتى لكأن نظراتى مشدودة إليه بحبل . . أغمضت عينى على الفور . . حتى أطيل فى عمرى لحظات قبل أن أرى وجه زينات . . وأرى الفاجعة مرتسمة عليه وعلى قسماته . . ولما أقبلت وجلست بجوارى فى قلب السيارة وفتحت عينى ورأيتها رؤية العين . . كانت كل الأسئلة التى أردت توجيهها إليها تسبقنى الأجوبة عليها ممثلة فى كل شىء فيها . . فى وجهها الشاحب المصفر الذى يشبه فى صفرته وجوه الأموات تماماً .. فى عينيها المضطربتين ونظراتها الملتهبة التى

تتدفق منهما كما تتدفق ألسنة اللهب من فجوتين صغيرتين . . فى شفتيها المرتعشتين كشفاه محموم . . فى صمتها المطبق الثقيل الذى لا يستشعر وطأة ثقله سوى المفجوع فقط .

سارت بنا السيارة وتحدثنا . . تحدثنا أحاديث كثيرة . . ولكنى لا أستطيع أن أذكر من هذه الأحاديث شيئاً حتى أثبته الآن بحرفيته . . فقد كنا ونحن نتحدث إذا تنفست هى بسهولة واستقامت ألفاظها أصبت أنا بالصمم فلا أسمع شيئاً . . وإذا تفتحت أذناى وأصبحت حاسة السمع عندى قادرة على التقاط حتى صوت تزاحم الدموع فى عينيها اختنقت أنفاسها وأطبقت على شفتيها . . فلم تعد تنطق . . ولهذا لا أذكر من هذا الحديث الطويل شيئاً اللهم إلا سؤالها لى من حين إلى حين . . . من هو هذا الرجل . . ؟! وما اسمه . . ؟! وهل أنا أعرفه أو . . ؟! ولماذا لم أقبض عليه حتى الآن .

وكذلك لا أعرف أيضاً ما الذى حدث بعد ذلك فى هذا اليوم بالذات . . وهل قضيته مع زينات فى بيتها . . أو قضيته بمفردى أسير وحدى على غير هدى كإنسان آلى تحركه قوة هائلة من قوى الشر . . وكنت كلما رأيت هذه القوة تستبد بى نفيت عن خاطرى نفياً باتاً كل هذه الأحداث جميعاً . . . المجنى عليها التى قتلت . . . القضية التى حققت فيها . . زينات التى تعرفت عليها وأحببتها . . دسوقى الذى اغتيل فى ظروف غامضة . . تكييفى للأحداث بعد مقتل دسوقى . . دسوقى

الذى كان عشيقاً للمجنى عليها .. المجنى عليها التى عشقت غيره .. الرجل الذى شوهد وهو يتسلل من مخدع المجنى عليها .. قتلى دسوقى للمرأة التى خانته وفضلت عليه رجلا آخر .. هذا الرجل الذى قتل دسوقى .. أبى وأنا أتحدث إليه أمام سان جيمس .. زينات التى كاد يغمى عليها عندما رأته .. المعاينة التى تمت فى الخفاء فى بيت مدام إيلين .... كل ذلك كنت أنفيه عن خاطرى .. وأبعده عنى بيدى الاثنتين كما يبعد الإنسان الذباب من على وجهه تماماً .. ولكن هذا الذباب وا أسفاه كان أقوى من أن تبعده يد .. وكان كذلك أكثر من أن تتجاهله عين .. ولو كانت عين .. عين .. ابن .

وفى الصباح ، ولعل هذا من سوء الحظ أيضاً ، حدث حادث خلقته الصدفة البحتة .. فقد استيقظت مبكراً على غير العادة وارتديت ثيابى وخرجت حتى دون أن أتناول طعام الإفطار كما هى العادة قبل أن أغادر البيت .. وبينما أنا أهبط سلم القصر الرخامى التقيت بأبى يهبطه هو الآخر .. فقد كان كما قال لى .. على موعد مع أحد الوزراء فى بيته فى هذا الوقت المبكر .. فلاحظت وأنا أتحدث إليه شيئاً مخيفاً للغاية .. تسمرت نظراتى عليه .. فقد رأيت — ولعل هذا عن طريق المصادفة أيضًا — البدلة التى كان يرتديها فى هذا اليوم .. ورأيتها سوداء مغرقة فى السواد وذات خطوط رفيعة بيضاء .... ولا أدرى لماذا نظرت إليها جيداً وتفحصتها بعينى بدقة كادت تلفت نظره لولا أننى

كنت أكثر لباقة من أن أجعله يفطن إلى هذا . . ولما انصرف . .
وانصرفت أنا إلى طريقى . . تذكرت أننى استمعت إلى وصف دقيق
إلى هذه البدلة وأن هذا الوصف مدون بحرفيته فى شىء ما ، ولذلك كان
أول شىء فعلته ، عندما ذهبت إلى مكتبى هو أننى استدعيت سكرتير
التحقيق وطلبت منه دوسيه الجناية رقم ١١٠٧ . . ورحت معه أراجع
أقوال بعض الشهود وبعض الذين كانوا قد اتهموا فى هذه القضية . .
وقرأت مرة أخرى الوصف الدقيق الذى وصفت به زينات ذلك الرجل
الذى رأته يتسلل من مخدع المجنى عليها . . ووقفت عينى طويلا على
وصف البدلة التى كان يرتديها ولونها الأسود الغارق فى السواد وخطوطها
الرفيعة البيضاء . . . . كما استوقف نظرى فى أوراق التحقيق بعض أشياء
أخرى . . أشياء كثيرة دونتها خلسة فى ورقة صغيرة أمامى وأحفظتها جيبى
خلسة أيضاً . . ومن هذه الأشياء التى استرعت انتباهى ... بصمات
الجانى التى وجد بعضها فوق مزلاج باب الغرفة التى ارتكب فيها الحادث ...
ووجد بعضها الآخر على « فازة » وجدت ملقاة على الأرض . كان
الجانى قد قذف بها المجنى عليها قبل أن يرتكب جريمته بالمسدس . .
ومنها أيضا نوع المسدس الذى استعمل فى الحادث . . ولست أدرى لماذا
استرعى انتباهى هذا كله . . ولست أدرى أيضاً لماذا ضربت بكل
أفكارى السابقة عرض الحائط . . ولم أعد أفكر فى غير شىء واحد
فقط . . وهو التأكد أولا من إبعاد هذا الشك القاتل ، وهو علاقة أبى

بهذا الحادث . . هذه العلاقة التى برغم كل ما حدث مازلت أستبعدها وأنفيها بكل قوتى . . وكنت كلما نفيتها نفياً باتًا وأبعدتها عن خاطرى بعد السماء عن الأرض ، عادت بعض الأفكار السوداء التى لا قبل لى بإبعادها تأكل فى خاطرى وتقرضه بأنيات موجعة للغاية . . أحاديث أبى معى عن القضية . . حديثه عن دسوقى بالذات . . أرض المجنى عليها المتاخمة لمزارع أبى تمامًا .. وإمكان إيجاد صلة عن هذا الطريق . . وحتى لا تتناثر أفكارى أو يغيب بعضها عن البعض الآخر ويمتد بى هذا العذاب المضنى طويلا . . رحت أدون هذا كله فى مذكرات خاصة بى حملتها فى جيبى واحتفظت بها بين طيات ثيابى .

ومن ثم بدأت إجراءاتى السرية الخاصة التى قمت بها بمفردى ولا يعلم بها أحد غير الله وأنا وهذه المذكرات التى بدأت تتكاثر صفحاتها ... والتى كنت أدون فيها أولا بأول حتى أفكارى التى كانت تدور فى الظلام بينى وبين نفسى . . هذه الأفكار التى كانت بالنسبة لى أشبه بالسم الذى يفرى جسدى ولا سيا عندما أمسك بخيط جديد يزيدنى قربًا من الفاجعة ويجذبنى إليها على الرغم منى . . وقد مكثت كذلك إلى أن حدثت فى يومين اثنين فقط بعض الحوادث الهامة جدًا التى أطارت صوابى وأطاحت بكيانى من جذوره . .

١٧

استيقظت كالعادة في الصباح وارتديت ثيابي . . وكان أبي قد عرف بذلك قبل أن أخرج فاستدعاني لأتناول طعام الإفطار معه كما هي العادة إذا تواجدنا معاً في البيت وقت تناول الطعام.. وبينما أنا أجلس معه على المائدة نتناول طعام الإفطار ونتحدث عدة أحاديث كانت تدور جميعها حول معركة الانتخابات التي قربت نهايتها جداً .. لاحظت أنه بعد أن شرب من كوبة الماء التي أمامه على المائدة ووضعها ثانية مكانها . . لاحظت أن أصابعه قد تركت بعض البصمات عليها ، وكانت واضحة تماماً . . ولست أدري لماذا استرعى هذا انتباهي وفكرت فيه جيداً . . ولست أدري لماذا أيضاً تعمدت أن أطيل من تناول طعامي على غير العادة حتى فرغ أبي من طعامه وودعني وانصرف . . وانتهزت هذه الفرصة وصرفت عم إدريس الخادم إذ طلبت منه أن يحضر لي شيئاً من غرفتي بالدور العلوي . . وأسرعت بتناول الكوبة في حرص شديد للغاية ووضعتها في علبة من الكرتون وجدتها فوق البوفيه في مائدة الطعام . . وكان بها بقايا من بسكويت ومن ثم حملتها وانصرفت إلى مكتبي دون أن يفطن أحد إلى ذلك . . وفي المكتب استدعيت أحد الذين يعملون معي في المكتب

وكنت أثق فيه ثقة عمياء وطلبت منه أن يقوم – وبطريقة سرية للغاية – بمضاهاة هذه البصمات التى تحملها هذه الكوبة بالبصمات التى تركها الجانى على مزلاج باب الغرفة وعلى الفازة فى الجناية رقم ١١٠٧ وأن يحضر لى الكوبة ثانية مع التقرير الذى سوف يجىء به إلى بطريقة غير رسمية .

وفى اليوم الثانى . . . مباشرة ولكن فى الليل . . حدث أن ذهبت إلى البيت فى وقت متأخر من الليل فوجدت أمى قد انتابتها أزمة الربو بشكل مزعج هذه المرة مما استدعى إحضار الطبيب فى الحال ، ووجدت الطبيب عندها ومعه أبى فى حالة قلق زائد فانضممت إليهما ، وبعد أن أسعفها الطبيب وبدأت عينها تغفو طلب منى أبى الذى كان بملابس النوم أن أحضر له علبة سجائره من غرفة نومه التى كانت تجاور غرفة والدتى مباشرة لا يفصلها عنها سوى ممر قصير لا يزيد على عدة . ار ، ولما ذهبت لأحضر له علبة السجائر وفتحت باب الغرفة ودخلت . . لفت نظرى مسدس أبى ، فى جرابه الجلد الأصفر ، موضوعاً فوق الطاولة بجوار علبة السجائر . . وما إن رأيته حتى واتتنى فكرة جريئة جداً ومع ذلك نفذتها فى الحال . . ونفذتها بدافع قوى لـ اه نفس الدافع الذى جعلنى اختلست بالأمس كوبة الماء . . ولكن ما هو هذا الدافع ؟ . . لا أدرى حتى الآن . . ولكن الذى أدريه هو أننى كما اختلست كوبة الماء ووضعتها فى حرص شديد داخل علبة الكرتون كذلك اختلست المسدس . واستبدلت به مسدساً آخر كنت أحمله فى

جيبي دائماً ، من حسن الحظ أو من سوئه لا أدرى . . فى نفس الحجم بحيث إننى لما وضعته فى الجراب وأعدته إلى مكانه لم يتغير شيء . . ومن ثم حملت مسدس أبى فى جيبي وانصرفت . . وأعطيته علبة السجائر . . وظللنا نتحدث أنا وهو والطبيب إلى أن انصرف كل منا إلى حال سبيله .

وما إن انصرفت أنا إلى غرفة نومى وأغلقت بابها خلفى وتأكدت من ذلك جيداً ومن أننى وحدى دون رقيب حتى أخرجت المسدس من جيبي وتفحصته . . وما إن فعلت حتى شعرت بدوار شديد . . كما شعرت بأن الضوء الذى ينير غرفتى يظلم فى عينى . . أو هو على الأقل يخفت إلى حد أننى لم أستطع معه أن أدون فى مذكراتى الخاصة هذه النتيجة المرعبة لهذا الفحص الدقيق الذى قمت به والذى ثبت منه ثبوتاً قاطعاً أن هذا المسدس هو نفسه الذى استعمل فى الجريمة وأنه ماركة « براونج » عيار ٧ ، وأن « المشط » الذى يتسع لسبع الرصاصات كاملة العدد ليس به سوى أربع رصاصات فقط . . وأن ثلاث الرصاصات الناقصة هى التى استعملت فى الحادث وهى التى هتكت فروة الرأس وحطمت الجمجمة ونفذت إلى المخ فأحدثت الوفاة فى الحال . . كما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى .

وشعرت بأننى أختنق . . وبأن كل ما تحتوى عليه غرفتى من أثاث إنما هو كابوس يجثم فوق صدرى . . ويخنق أنفاسى . . ففتحت الباب

سريعاً وهربت . . وفى الطريق لا أدرى أين ذهبت فى الليل . . هل رحت أجوب الطرقات وحدى فى الظلام . . أو جلست فى قلب سيارتى أحترق ككومة من نار تندلع منها ألسنة اللهب . . أو ذهبت إلى زينات وأيقظتها من نومها فى هذا الوقت المتأخر من الليل . . وأنها هى التى جعلتنى أفطن إلى ما أنا فيه من سوء حال وإلى النار التى تشتعل فى صدرى وجمراتها التى تتقد فى عينى . . وكيف أن المسكينة ظلت بقية الليل تطفئ فى هذه النار وتلقى فوق ألسنتها المشتعلة بكل ما تملك من أحاسيس ومشاعر وروح وقلب ووجدان . . فلم تزد على أنها زادتها اشتعالا . . إلى أن جاء الصباح . . فتركتها هى التى تحترق وانصرفت . .

وفى مكتبى وحوالى الظهر تقريباً كانت قد حلت الفاجعة.. إذ جاءتنى نتيجة مضاهاة البصمات التى تمت بطريقة سرية كما طلبت تماماً فإذا بها نفسها بصمات القاتل . . وبذلك استقامت أركان الاتهام جميعاً . . واستقامت بما لا يقبل الشك . . أو يحتاج إلى دليل . . وبذلك أيضاً انقلبت جميع أفكارى العقلية والمنطقية وحتى الاستنتاجية التى كنت قد كونتها لنفسى . . فلم يكن دسوقى هو الذى قتل المجنى عليها . . لأنه اكتشف أنها فضلت عليه عشيقاً غيره . . ولم يكن ذلك العشيق الجديد هو الذى قتل دسوقى انتقاماً منه لأنه قتل عشيقته . . وإنما الأمر غير ذلك كله . . . وأن الذى قتل المجنى عليها إنما هو هذا الرجل الذى شاهدته زينات يتسلل من مخدعها فى الليل والذى هو . . . رباه ! ...

إننى لا أقدر حتى على مجرد نطق هذا الاسم . . ولكن الذى أقدر عليه وعلى التفكير فيه لأنه فوق طاقة البشر تجاهله . . . هو . .

لماذا ارتكب أبى هذه الجريمة ؟ ! . . لماذا سفك دماء المجنى عليها ؟ ! . .

لماذا قتل أبى زينب عبد العال الشوباشى وأطلق عليها ثلاث رصاصات من مسدسه فأرداها قتيلة ؟ ! . .

إن الثابت والمقطوع به . . أنه كان على علاقة مشينة بها . . بدليل تردده على بيتها فى الخفاء حتى لا يراه أحد . . وبدليل رؤية زينات لهما فى هذا الوقت من الليل وهما فى حالة تكاد تشبه التلبس يقطع بريبتها أكثر من سبب . . خلو البيت حتى من الخادمة التى أبعدت عن البيت لنفس الغرض والتى قطعت زينات بأنها كانت خارج البيت فعلا، بدليل أنها التقت بها مقبلة من الخارج بعد خروج أبى، وبدليل رؤية زينات للحادث رؤية العين . . . الاثنان فى قلب المخدع . . النور الذى انطفأ فجأة ... ارتباك الرجل وتسلله سريعاً من قلب الغرفة ... ارتباك المجنى عليها الشديد والحالة المريبة التى كانت عليها . . . وقميص النوم الخفيف الذى كانت ترتديه . . واضطرابها الزائد عندما شاهدت زينات . . كل ذلك يقطع بوجود العلاقة المشينة بين الاثنين . . وهذه العلاقة ظلت قائمة إلى ما قبل ارتكاب الحادث بأيام قلائل . . فما هو الذى حدث حتى جعل هذه العلاقة تنقطع فجأة . . وهى لم تنقطع فحسب ، وإنما انقلبت إلى هذا المنقلب . . من حب . . وغرام . .

وهيام . . وجرأة متناهية فى سبيل تحقيق الغاية . . إلى البغض . . والكراهية البالغة هذا الحد . . حد القتل . . سفك الدماء . . . . ارتكاب أشنع الجرائم . . . ومن الذى يفعل هذا كله . . . أبى؟

ودارت بى الأرض دوراناً شديداً . . وأحسست بمقت وكراهية لكل شىء . . للناس جميعاً . . لبيتى . . ولمكتبى . . ولأبى . . وأمى . . وزينات . . وحتى نفسى . . وأردت أن أهرب . . أهرب من هؤلاء جميعاً . . وقد هربت فعلا . . وذهبت إلى فندق متواضع فى حى غير معروف . . واضطررت ولأول مرة فى حياتى لكى لا أرى أحداً أو يتعرف على أحد أن أزور وأن أقيد نفسى فى الفندق تحت اسم غير اسمى . . ومكثت ثلاثة أيام فى غرفتى لم أبرحها . . ثلاثة أيام هربت فيها فعلا . . من الناس . . والدنيا . . وكل ماله صلة بالحياة . . وبهذا العالم الذى نعيش فيه . . ومع ذلك لم أقدر على أن أهرب من نفسى . . من الشىء الحقيقى الذى وددت أن أهرب منه . . من المذكرات التى بلغت الكثير من الصفحات . . والتى دونت فيها هذه الأحداث جميعاً . . واحتفظت بها فى جيبى . . بين طيات ثيابى . . بين محاجر عينى . . خوفاً من أن يراها أحد غيرى . . ثم خرجت بعد هذه الأيام الثلاثة وبى رغبة ملحة إلى شىء . . شىء أحسست أنى لو عرفته فربما انطفأت هذه النار التى كادت تخلف جسدى تراباً . . هذا الشىء هو أن أعرف لماذا ارتكب أبى هذا الجرم . . وقتل هذه المرأة فى عقر دارها ؟ . .

١٨

رجعت إلى بيتى فى مساء اليوم الرابع . . وما كدت أقترب من مدخل القصر حتى رأيت شرفاته وردهاته وحديقته الواسعة تموج بجموع من الناس تهتف وتصفق وتملأ ضحكاتها أرجاء القصر . . وتعطر الفرحة الكبيرة أبهاءه جميعاً .. لقد نجح أبى فى الانتخابات وتحقق الحلم الكبير الذى كان يسعى إليه ودخلت فى غمار هذه الجموع وضحكت أنا أيضاً مع من ضحك وصفقت أنا أيضاً مع من صفق وارتميت فى أحضان أبى وعانقته وذابت الفرحة التى غمرتنى فى خضم الموج الزاخر الذى كان يصطخب فى صدر أبى أنساً وفرحاً وابتهاجاً .. ومن ثم انتحيت جانباً .. وجلست أجفف العرق الذى كان يتصبب منى بغزارة ، والذى لا أعرف حتى الآن سببه .. ورحت وأنا فى جلستى هذه أرقب أبى وهو يروح ويجىء وكل شىء فيه يرقص .. حتى الأرض التى يسير عليها . . حتى الملابس التى يرتديها . . حتى تلك الياقة المنشاة وذلك الدبوس الماسى الذى تتحلى به ربطة العنق .. ولا أدرى لماذا استقرت عينى على هذا الدبوس بالذات وهذه الياقة المنشاة بالذات . . وتذكرت أنى شاهدتهما كثيراً من قبل . . وأنى أيضاً استمعت إلى وصف دقيق لهما ذات

مرة أو ذات مرات . وأن هذا الوصف مدون فى بعض الأوراق .

ومر أبى من جوارى وهو يروح و يجىء بين الناس وأقبل على مرة أخرى وقبلنى مرة ثانية مهنئاً بنجاحه .. كأنه نسى أنه هنأنى وقبلنى من قبل . . وأطال هذه المرة من تقبيلى ومداعبتى ، وراح يربت على وجهى بأصابعه وأحسست بدفء هذه الأصابع وحلاوة حنانها وهى تمر على وجهى . . . وتعجبت كيف يمكن لهذه الأصابع التى تعرف مثل هذا الحنان وتعرف مثل هذا العطف والتى لها مثل هذه اللمسات الإلهية التى تذوب رقة وحناناً . . وحبًّا . . كيف يمكنها أيضاً أن تضغط فى قسوة وفى ظلم وفى وحشية على مفتاح مسدس لتزهق روحاً من الأرواح . .

ومكثت كذلك فوق مقعدى أشبه ما أكون بحجر كبير وضع فوق قاعدة من القواعد . . لا أنطق ولا أتحرك . . ولا أتكلم . . إلى أن انتصف الليل وانصرف الناس وخلا القصر من الرواد جميعاً . . . . ولم يبق فى هذا القصر الفسيح الأرجاء سوى أنا وأبى فى الدور الأول الذى ما زالت الأنوار تتلألأ فى قاعاته كالشموس المشرقة . . وأمى فى الدور العلوى راقدة فى فراش المرض كجثة محنطة حديثاً وموضوعة فى حوض من البلّور . . ونظرت إلى أبى وهو يجلس أمامى فى إحدى شرفات القصر التى تطل على الحديقة الواسعة ، وتأملته وهو يرفل فى الفرحة التى تحيط به من كل جانب . . وأحسست بالدموع تغمر عينى . . لماذا ؟! . . . . لا أدرى . . كما أحسست بأنى أريد أن أقول له شيئاً .. وأن قوة فوق

طاقتى تدفعنى دفعاً لأن أقول له هذا الشيء . . ومع ذلك لم أقدر . . كانت شفتى أشبه بقطعتين من الجلد الجاف تماسكتا والتصقتا بحيث لا ينفذ من بينهما حتى خيط من هواء و . . وكأنه لاحظ علىّ ذلك فسألنى : لماذا أنا صامت هكذا ؟ ! . . فلم أجب . . وزاده صمتى إصراراً على السؤال أو زاده إحساساً بما أعانى من فزع وخوف . . فقال وهو ينظر إلى شفتى المطبقتين المرتعشتين :

— إنك تخفى شيئاً . .

ولما لم أجب أيضاً . . تحققت شكوكه . . وقال وعلائم الدهشة ترتسم على وجهه :

— إنك تريد أن تقول شيئاً . .

— فعلا . . أريد أن أقول أكثر من شيء . .

فقال وهو يقترب منى فى حنان الأب ويضع يده على كتفى :

— أعرف أنك غير راض من أول الأمر عن هذه المعركة الانتخابية التى خضتها والتى كبدتنى هذه المبالغ الطائلة .. ولكن العشرة آلاف جنيه التى أنفقتها ليست بذات بال إزاء هذا النجاح الذى جعلنى الآن أكاد أجلس فوق كرسى الوزارة .

ياالله ! . . إنه ما زال يتحدث عن أطماعه . . وعن كرسى الوزارة الذى يحلم به . . لماذا لم يفطن إلى ما فى خاطرى . . ويحدثنى عنه ؟ . . رباه ! . . . لماذا لم تجعل للبشر حاسة سادسة أو سابعة أو ثامنة تمكن لهم

من معرفة ما يدور فى نفوس الغير . . وما يحرق هذه النفوس حتى كان أبى على الأقل يعرف ما بخاطرى ويحدثنى هو عنه ، حتى لا يكلفنى هذا العناء الشديد . . وحتى لا يترك لهذه العقدة تمسك بشفتى كما تمسك بها تماماً أنياب أفعى قاتلة تنفث السم ؟!

ولما رأيته يريد أن يستطرد ثانية فى أحاديثه هذه البغيضة إلى نفسى . . عن المجد والطموح والعظمة وكرسى الوزارة الذى بات يحلم به . . لما رأيته كذلك قلت له وأنا أخفض صوتى . . فقد كان مناى أن لا يسمع ما أقول :

ــ إن الذى أريد أن أقوله . . فوق هذا كله . .

ــ ما هو؟ . . وماذا تريد أن تقول ؟

ــ إنك متهم بجريمة قتل . .

فاربدت سحنة الرجل على الفور . . وقال :

ــ إنك تهذى . .

ــ ليتنى كنت كذلك . .

فانقبضت قسمات وجه . . وهو يقول ثانية :

ــ قلت لك إنك تهذى . .

فاختنق صوتى حتى كدت لا أستطيع التنفس . . وأنا أقول :

ــ من المؤسف أننى مازلت متمالكاً لكل قواى . .

فدوى صوته كالرعد هذه المرة :

ـــ كيف تجرؤ على أن توجه إلى أبيك مثل هذه التهمة ؟

ـــ لست أنا الذى يوجهها . . وإنما الذى يوجهها هو القانون . .

فغابت التجاعيد التى على وجهه . . خلف موجة داكنة من السواد . . وقال وكأنه هو الذى يهذى حقيقة :

ـــ إننى ألقى بك من هذه الشرفة . .

وأخرج المسدس من جيبه سريعًا وهو يستطرد :

ـــ أو أفرغ هذه الرصاصات فى صدرك . . قبل أن أسمع منك هذا القول عن أبيك .

فنظرت إلى المسدس الذى فى يده . . وتذكرت المسدس الآخر الذى أحتفظ به . . وقلت وأنا أتلوى من الألم :

ـــ إنه من السهل عليك أن تفعل ذلك إن أردت . . أن تلقى بى من الشرفة . . أو تفرغ رصاصات هذا المسدس فى رأسى . . ولكن ليس من السهل أن يعفيك هذا من تهمة القتل . .

ـــ أى تهمة يا مجنون ؟

ـــ تهمة قتل المجنى عليها زينب عبد العال الشوباشى . . .

ـــ إننى لا أعرف واحدة بهذا الاسم . .

فنظرت إليه فى دهشة غريبة . . دهشة امتزجت فى نفسى بفرحة زائدة حتى إننى وددت لو أنه يعيد على مسامعى هذا القول مرة أخرى . كما أحسست بشىء آخر . . وددت لو يدوم إحساسى به وهو أن بى

رغبة أكيدة لتصدق هذا القول . . ولماذا لا أصدقه . . ولماذا لم يكن حقيقة ؟ ! . . ولماذا لم يكن أبى صادقاً فيما يقول ؟ ؟ . . ويكون هو المفترى عليه . . وأنا الذى يفترى . . . حقيقة إن عهد المعجزات قد انقضى . . وإن طاقة فى السماء لن تفتح مرة أخرى . . ويتسلل منها نور يضيء الكون أو ظلام يعتم الدنيا . . أو يخرج منها للناس رسول يهدى إلى الحق أو نبى ينصف الناس . . حقيقة إن هذا كله قد انقضى ولن يرجع إلى أن تقوم القيامة ويخلق الله الناس خلقاً جديداً . . ولكن لماذا هذا القطع . . لماذا نحن البشر نقطع بذلك . . أليس هذا فيه ما فيه من جحود . . أليست اليد التى خلقت كل هذه المعجزات من أجل هناءة البشر قادرة على أن تجنب فئة أخرى من الناس هذا الشقاء الكبير الذى يعيشون فيه . . حتى لو تطلب هذا خلق معجزة جديدة . . . . رباه . . إنه شقاء كبير فعلا . . . وأى شقاء يكون هذا الذى يتعذب به ولد من أجل والده ؟ !

ووضعت آمالى جميعاً فى هذه المعجزة . . التى سوف تبعد ذلك الرجل عن أبى وتبعد أبى عن ذلك الرجل . . وتستبدل قتيلة بأخرى لا يعرف أبى عنها شيئاً ولم يسمع باسمها من قبل كما قال لى الآن..رباه ! اللهم اجعل قول أبى هو الصدق . . فليس سوى هذا يطفئ هذه النار التى تحرقنى . . . رباه ، إنك أعلم بحرقة النار لأنك أعلم بقلبى الذى يتمزق !

تعلقت بأذيال هذا كله سريعاً . . ودعوت الله من أجل أبى . . ثم

قلت وأنا أنظر إلى وجهه الذى تغيب ملامحه أمام عينى فى أفق مظلم حالك السواد :

ــ ولكن ماجاء فى التحقيقات يثبت أنك تعرفها . . ويؤكد أنك قتلتها .

ــ قتلت من ؟ !

فقلت مرة ثانية :

ــ المجنى عليها زينب عبد العال الشوباشى . .

ــ ومن الذى يثبت ذلك ؟ !

فأشفقت عليه من الإجابة . . وصمت . . ولم أنطق . . فقال وهو يدق الأرض بقدميه . . كما يدقها تماماً الثور الهائج . . وقال :

ــ أكمل هذيانك وقل . . ما الذى يثبت ذلك ؟

ــ أشياء كثيرة جداً . . الراقصة زينات شوقى التى شاهدتك تخرج من مخدع المجنى عليها قبل الحادث بأيام . . . تعرفها عليك عندما شاهدتك بعد الحادث . . وصفها . .

فقاطعنى وكأنه يبعد شيئاً عن أذنيه :

ــ إننى لا أسألك عن الراقصة زينات شوقى . . وإنما أسألك عن جريمة القتل . . ما دليلك عليها ؟ . .

ــ البصمات التى تركها الجانى والتى اتضح أنها بصماتك أنت بالذات . .

ــ ولكن أحداً لم يأخذ بصماتى . . حتى يتحقق هذا . .

فلم أصغ إلى هذا القول .. واستطردت :

ــ والمسدس الذى استعمل فى الجريمة . . واتضح أنه مسدسك أنت . . ماركة براونج عيار «٧» والرصاصات الثلاث التى أطلقت منه على رأس المجنى عليها فأردتها قتيلا للحظتها . .

ــ ولكن مسدسى فى جيبى لم يأخذه منى أحد حتى يعرف ذلك . .

قال هذا وأخرج المسدس من جيبه . . ولكنه ما كاد ينظر إليه حتى جحظت عيناه جحوظاً غريباً مخيفاً وقال وهو ينهار أمامى فوق أحد المقاعد ويجهش باكياً كطفل . .

ــ كيف سولت لك نفسك أن تفعل هذا ؟

فأغمضت عينى . . لأننى لم أجرؤ على أن أرى الدموع تنهمر من عينيه . . ولما كرر علىّ السؤال اضطررت إلى أن أروى له الحقيقة كاملة . . وهى أننى فعلت ذلك اضطراراً بعد أن عجزت عن احتمال ذلك الشك القاتل الذى كان يغرس أنيابه السامة فى صدرى . . وكانت كل آمالى أن أثبت لنفسى سوء الظن وأن أقطع لها ببراءة أبى .

فظل يبكى .. ولما نزف الكثير من الدموع تمتم وهو يتلوى وكأنه جواد جريح مضروب على أم رأسه :

ــ وبعد أن عرفت ؟

ــ أسألك لماذا قتلت ؟

ــ وهل يعفى هذا من الجريمة ؟

ــ قد يخفف هذا من الجرم .

ــ إنى أسألك . . هل يعفى هذا من الجريمة ؟ !

ــ لا . .

ــ ولو اعترفت بالجرم ؟

ــ ولو اعترفت بالجرم . .

ــ ولو كانت الدوافع قاسية ؟ !

ــ ولو كانت الدوافع قاسية .

فبكى ثانية . . وصمت مرة أخرى . . ثم استطرد وهو يجفف دموعه :

ــ ولو أن الذى قتل أب . . من أجل ابنه ؟

فجحظت عيناى . . ونظرت إليه . . وقلت مشدوهاً :

ــ أى . . . أب وأى ابن ؟ !

ــ ألم تسألنى لماذا قتلت ؟ إنى قتلت . . . من أجلك أنت يابنى . .

ــ من أجلى أنا ؟ !

فلم ينطق . . وظللت أنظر إليه جاحظ العينين . . ومرت فترة صمت لا أدرى حتى الآن كيف مرت ولكن الذى أدريه أنها طالت إلى حد كبير . . كبير جداً . . وظللنا كذلك أنا وهو إلى أن نهض متهالكاً على نفسه . . وجلس بجوارى . . ومن ثم أمسك بيدى التى كانت ترتعش وتهتز بين يديه والتى كانت تزداد ارتعاشاً كلما تساقطت عليها نقاط

الدموع التى كانت تتساقط من عينيه كنقاط من نار . . والتى ظلت تتساقط طوال هذا الحديث المفزع الذى كنت أستمع إليه . .

قال أبى وهو يرجونى أن أصغى إليه جيداً . . وهل كنت أملك غير أن أصغى إليه جيداً :

ـ تعرفت على المجنى عليها منذ ثلاثين عاماً أو يزيد . . وكنت إذ ذاك لا أزال فى ريعان الشباب . . وكنت فقيراً معدماً لا أملك سوى راتبى الذى كان فى ذلك الحين لا يتجاوز الخمسة جنيهات وكانت هى كل أجرى الذى أتقاضاه عن عملى كناظر للزراعة فى أحد تفاتيش جدك لأمك هذه . . وكان هذا لا يرضى طموحى وأطماعى التى كانت عريضة واسعة لا يعرف لها حدود . . وكان هذا يقض مضجعى ويؤرق عينى فى الليل وفى النهار أيضاً .. ولذلك كانت عيونى دائماً مشبوكة بآفاق عليا . . آفاق مليئة بكل شهوات النفس التى كنت أحلم بها . . من مجد وجاه ومال وثراء .. ومن يكن كذلك لايغمض له طرف.. إنه يكون دائماً أشبه بالصائد الذى يتتبع القنيصة بعين يقظة . . وإلا غيبت عنه فى الأرض .. أو غابت عن عينيه فى السماء . . . إن (الفرصة) كالعقاب الذى لا يحلق إلا عالياً جداً لكى يتعذر عليك رؤيته ولذلك فهو لا يقع عليك أبداً . . وإنما عليك أنت أن توقعه . . ولكى تتمكن من ذلك يتحتم عليك أن تكون صياداً ماهراً تحذق فنون الرماية وتجيد إصابة الهدف . . ومن سوء الحظ أنه كانت عندى هذه القدرة .

أعرف أن هذا سوف يؤلمك يابني .. ولكني الآن أعترف .. والاعتراف لا يكون مطهراً للنفس إلا إذا نبع من ذات النفس التي تعترف بآثامها .. عند ذلك يكون الاعتراف صادقاً .. والصدق حسنة .. حسنة قد لا تكون بذات بال عند ابن .. ولكنها عند قاض شريف شيء له قيمته ..

قال ذلك وصمت لحظات .. جففت خلالها بعض الدموع .. ثم استطرد في هدوء .. وفي وضوح أيضاً .. وقال :

— وذات يوم واتت الفرصة .. وكانت مغرية بحيث انشبكت عيني فيها على الفور وتعلقت بها ، حتى في لحظات الغمض كانت عيني أشد تعلقاً بها .. كما لو كانت في الحلم أكثر منها إغراء في الحقيقة .. وهكذا دائماً يكون الشيء الثمين .. تفكر فيه وهو في يدك كما تفكر فيه وهو في قاع البحر .. إنه في يدك تخاف عليه .. وفي قاع البحر تبحث عنه .. ومن الغريب أن أملك في الحصول عليه لا يقل عن أملك في الاحتفاظ به .. حتى الفرصة ذاتها أمل .. ولذلك عندما جاءت كانت هي أملي .. الذي عشت عليه حياتي كلها .. هذا إذا افترضنا أنه كانت لي حياة في ذلك الحين ..

كانت أرض هذه السيدة — زينب عبد العال الشوباشي — تقع بجوار التفتيش الكبير الذي كنت أدير أعماله .. والذي أصبح فيما بعد ملكاً لي كما هو اليوم .. وكان موقع هذه الأرض غريباً .. وقد اتخذت

من غرابته هذه وسيلة لأول حجر ألقيت به فوق الشجرة لكى يطير العصفور وأخرجه من عشه حتى أراه ، وأصوب له البندقية . .

كانت هذه الأرض التى تملكها هذه السيدة .. وتزيد مساحتها على الخمسين فداناً . . تقع بين فكى تفتيشنا الكبير . . كانت أشبه ما تكون باللسان .. وأرض هذا التفتيش الواسعة هى فكاه . . وكانت هذه السيدة قد مات عنها زوجها وهى فى العشرين من عمرها . . فترملت عليه برغم هذه السن .. وبرغم جمالها الذى كان يضرب به المثل بين النساء والرجال معاً .. فقد كانت جميلة جمالا ليس من سبيل إلى وصفه . . كما كانت أيضاً طيبة العنصر . . دمثة الخلق .. متدينة إلى حد كبير .. وقد قنعت من الغنيمة بالإياب . . فلم تشأ أن تتزوج ثانية . . ولم تفكر فى ذلك . . أو حتى تدخله فى حسابها . . ولكن هذا لم يمنعنى من التفكير فى الزواج منها . . ومن تنفيذ رغبتى مهما أصرت هى على الرفض . . ذلك لأننى إن فعلت وأمسكت بهذا الشىء الثمين فى يدى فسوف أربح أرباحاً طائلة . . سوف أربح جمالا . . وأربح أخلاقاً . . وأربح عنصراً كريماً . . ونفساً طيبة . . وقلباً طاهراً . . . . وأربح كذلك مالا . . حقيقة إن المال عندى كان هو الربح الحقيقى الذى أطمع فيه وتصبو إليه نفسى . . . وخمسون فداناً ليست بالربح القليل . . وهذه بالذات سوف تكون أكثر ربحاً إذا ما جملتها هذه الصفات الأخرى . . ولكن السبيل إلى ذلك كان صعباً وطويلا . . كان كالطريق الطويل فى

الصحراء القاحلة ليس فيه سوى الرمال التى تحرق قدميك . . ومع ذلك عرفت كيف أقطعه . . دون أن تتعثر قدمى . . .

أعلنت عليها الحرب فى الخفاء . . وأعلنتها حرباً لا هوادة فيها . . اتخذت من طبيعة الوضع الجغرافى للأرض التى تملكها هذه السيدة ساحة لهذه الحرب التى أعلنتها .

فهى إن طلبت الماء منعته عنها .. وهى إن استكفت منه أغرقتها به. . وإن هى زرعت شيئاً زرعت أنا غيره . . وهى إن تصادف وانطلقت دابة من أرضها وخطت حتى مجرد الشبر فوق أرضنا ، أطلقت أنا دواب التفتيش جميعاً وماشيته تدوس أرضها . . ومع أن هذا فيه ما فى من ظلم وافتئات على الحقوق وعدم مراعاة للحفاظ بالجار . . إلا أنه كان السبيل الوحيد لهزيمتها ، وليس من سبيل سواه .

وهكذا ظلت هذه الحرب قائمة بيننا ثلاث سنوات . . ثلاث سنوات كاملة . . ثم انتهت آخر الأمر باتفاقنا . . اتفقنا على كل شىء . . على الحب وعلى الإخلاص وعلى الوفاء . . ثم أخيراً على الزواج الذى سوف نتوج به هذا كله آخر الأمر . . وأشهد بأنى كنت مخلصاً فى ذلك الإخلاص كله . . وكنت محبًّا لها أيضاً الحب كله . . مما جعلها تترك زمام أمورها جميعاً إلىّ . . حتى زمام نفسها . . شخصيتها . . ذاتها . . حياتها . . كل ذلك أتصرف فيه كما أريد . . وكما أشاء . . وتشاء رغباتى جميعاً . . حتى تلك التى تعيش منها فى الخفاء . . وفى

ذات كل إنسان . . وترسب فى باطنه . . ولا نفطن إليها إلا فى ظروف معينة . . وحين تتحرك من تلقاء نفسها وتتمطى كما تتمطى الأفعى الملتفة حول نفسها فى قلب العشب . . حتى هذه الرغبات أسلمت لى قيادها أيضاً . . وتركتنى أحققها على الوجه الذى أريد . . وأشهد أن هذا كان فيه سعادتها . . لأنها وجدت فيه سعادتى .

وهكذا عشنا زمناً كما يعيش العشاق تماماً لا عمل لهم إلا البحث عما ينمى سعادتهم ويزيد من الهناءة التى هم فيها . . وعشنا أيضاً كزوجين لا ينقصهما غير التوقيع على ذلك الصك الذى نعلن به على رؤوس الأشهاد زواجنا . . ولكنا لم نفعل ذلك . . أو حتى نفكر فيه . . ولم يكن هذا لسبب من الأسباب ولكن لأن تيار سعادتنا كان جارفاً بحيث أبعدنا عن الناس بدرجة أننا نسيناهم ولم نذكرهم إلا عندما جدت بعض الظروف التى أرغمتنا على ذلك ، وكثيراً ما تأتى بعض الظروف التى لم تكن فى الحسبان فترغمك على تنفيذ ما كنت أهملت تنفيذه . . أو هى تذكرك به على الأقل . . فقد جاءنى زينب ذات يوم وأخبرتنى بأنها حامل . . ولا بد لنا من أن نعقد العقد حتى لا يفتضح أمرنا . . ورحبت بهذا ترحيباً كبيراً لأننى كنت خالص النية — فى كل ما اتفقت معها عليه — واتفقت معها فعلا على اليوم الذى سنتزوج فيه وحددناه . . غير أنه حدث فجأة حادث غريب لم نكن لننتظر حدوثه . . وهو موت جدك الباشا لأمك هذه . . وكان رجلا محبوباً منا جميعاً . . ومنى أنا

بالذات . فقد كان رحمه الله يحبنى ويعطف علىّ ويقربنى منه ويعتبرنى كشخصه تماماً بدليل أنه كان يطلق يدى فى كل شؤونه جميعاً .. فى هذه الأموال الطائلة . . والتفاتيش الكبيرة التى تزيد مساحتها على الأربعة الآلاف من الأفدنة ..كان كل ذلك زمامه فى يدى أتصرف فيه كما أريد .. ويعلم الله أننى كنت حقيقة جديراً بهذه الثقة . . مخلصاً لهذا الرجل الذى لم ينجب غير ابنة واحده قدر لها منذ طفولتها أن تصاب بمرض فى ساقيها كثيراً ما كان يقعدها عن السير . . وأعنى بها والدتك هذه .

وكان لوفاة هذا الرجل الطيب وقعه السيئ على نفوسنا جميعاً ولا سيما على نفسى أنا بالذات ولذلك كان من غير المعقول أن أتزوج عقب وفاته مباشرة . . وهذه تقاليد لها فى الأرياف اعتبارها الكبير .. وأحسست أننى لو فعلت ذلك وتزوجت زينب فى ذلك الحين برغم هذه الظروف القاهرة التى كانت تدفعنى إلى ذلك فسوف أفقد احترام الناس جميعاً ، — وعلى رأسهم — جدتك التى حزنت حزناً شديداً على وفاة زوجها ، وربما أثر هذا علىّ كمشرف على هذه الأعمال جميعاً ، وباعتبارها هى صاحبة هذه الأملاك بعد وفاة زوجها أردت أن أكون عند حسن ظنها .

وقد تقول لماذا لم أتزوج زينب فى الخفاء . . طالما أنه قد حدث ما حدث . . ثم أعلن عن زواجنا فى الوقت المناسب . . وقد فكرت فى ذلك فعلا . . وفكرت فيه جديًّا .. فاتضح لى كما اتضح لزينب أيضاً أن مثل هذا الزواج وفى الأرياف بالذات سبة تظل عالقة بالزوجين إلى

الأبد . . وتزول الدنيا ويفنى العالم ولا تزول الأيدى أو تفنى الحجارة التى يرمى بها مثل هذا الزواج . . وأنا أريد أن أكون زوجاً شريفاً فى نظر الناس طالما أنا كذلك فعلا فى نظر نفسى أو على الأقل كنت أظن أننى كذلك .

لهذا اتجه تفكيرى إلى وسيلة أخرى ووافقتنى عليها زينب عن طيب خاطر . . ورحبت بها ترحيباً كبيراً . . وهى أن أسافر معها سرًّا إلى القاهرة وهناك بواسطة أحد الأطباء نزيل هذه العقبة التى ترغمنا إرغاماً على أن نسرع بالزواج حتى إذا ما انتهت هذه الظروف القاسية ومرت أيام الحداد التى يمتد طولها فى الريف إلى ما يزيد على العام أتممنا العقد وتزوجنا علانية وأعلناه على رؤوس الأشهاد .

وصمت أبى لحظات . . كانت برغم قصرها طويلة ممضة فى الطول والثقل . . ثم استطرد حديثه بعد أن جفف دموعه الغزيرة التى كانت تحرق عينيه . . قال :

— غير أننا عندما ذهبنا إلى الطبيب وعرضت زينب نفسها عليه وفحصها فحصاً دقيقاً اتضح أن أى إجراء يعمله لإزالة هذه العقبة فيه خطر كبير على حياتها، ولم يكن هو وحده الذى قرر هذا ، وإنما قال به كل الأطباء الذين عرضتها عليهم . . وقد أثر هذا فى حالتها النفسية فمرضت مرضاً خطيراً وأصيبت بتضخم فى الكبد . . . وهبوط شديد فى القلب مما استدعى ملازمتها للفراش عدة شهور ، وقد اضطرها هذا إلى

أن تختفى عن الناس ، فاستأجرت لها مسكناً فى القاهرة ظلت فيه طوال شهور المرض .. ولما تماثلت للشفاء كانت شهور الحمل قد أوشكت أن تنتهى .. وبدأت آلام الوضع تنتابها وكانت تعيش بمفردها وليس معها فى البيت أحد .. وكنا حريصين على ذلك حتى لا يقف الناس على سرنا .. لذلك نقلتها إلى المستشفى لتلد هناك ولتكون تحت الرعاية الكافية. . فأدخلتها مستشفى (فؤاد الأول) للولادة وأنزلتها باسمى — أى أنها زوجة لى — ولم أجد أية غضاضة فى ذلك فقد كانت زوجتى فعلا أمام الله وعما قريب سوف تصبح زوجتى أمام الناس .

وكانت دموع أبى طوال هذا الحديث لا تنقطع .. وكان لا يصمت إلا ريثما يجففها فقط .. ولست أدرى لماذا كانت هذه اللحظات القصار التى كان يصمت فيها أبى ليجفف دموعه تثير الرعب فى قلبى .. لقد كنت أنظر إليه وهو يتحدث وأنظر إلى شفتيه وهى تتحرك وتهم بالكلام كما أنظر تماماً إلى شفتى قاض تعلق مصير حياتى بكلمة سوف تصدر من هذه الشفاه .

واستطرد أبى بعد صمت قصير ، قال :

— وكنت وهى فى المستشفى تنتظر الوضع أتردد عليها بين الحين والحين .. كنت أجىء إليها من الريف فى أول النهار ثم أعود فى آخره .. أو أسرق نفسى فى الليل وأذهب إليها ثم أعود إلى عملى فى الصباح .. وكنت فى كل مرة أجىء فيها إلى القاهرة أدعى بأننى إنما أجىء بسبب أعمال تتعلق

بالتفتيش أو التفاتيش التى أصبحت أدير أعمالها جميعاً بعد أن مات صاحبها . . وذات يوم كنت فى القاهرة . . فاستدعتنى « أنجه هانم » صاحبة هذا الثراء كله والتى شاء القدر فيما بعد أن تكون هى جدتك لأمك هذه . . أقول استدعتنى إلى القصر وهناك فاجأتنى مفاجأة مذهلة . . مفاجأة لم تكن فى يوم لتخطر لى على بال . . قالت لى إنها بما سوف تطلب منى تنفيذه إنما تنفذ وصية زوجها الباشا رحمه الله وتحقق له رغبة تمنى لو تحققت قبل موته كما أنها هى أيضاً تود أن تحققها قبل أن تموت حتى تموت مرتاحة البال .

قالت لى إنها تعيش الآن فى أيام حياتها الأخيرة وإنها لن تترك لها وريثاً غير ابنتها هذه التى قدر لها أن تعيش حياتها هكذا مريضة بساقيها . . وإنها إن ماتت وتركتها دون أن تتزوج فسوف لا يتزوجها إلا طامع فى مالها فقط . . وهذا سوف يسبب لها كأم الكثير من القلق حتى بعد الموت . . ولأنها — أى الأم — تعتبرنى خير من يصلح للزواج منها لأننى خير من يحفظ لها مالها ويحفظ لها أيضاً كرامتها كزوجة ثرية ولكنها مريضة . . لذلك فهى تعرض على الزواج منها طالما أنها تثق فى كل هذه الثقة . . وطالما أننى غير طامع فى مال . . أو ثراء . . أو جاه . . . ياللعجب !

قالت لى « أنجه هانم » هذا القول . . فدارت بى الأرض وعشت لحظات فى دوامة هذا الحلم الكبير . . الذى كان أشبه بطاقة من السماء

انفتحت لى أنا وحدى دون سائر البشر جميعاً . . لقد كان كل مناى وكل ما كنت أطمع فيه من دنياى . . وتصبو إليه نفسى هو أن أتزوج زينب عبد العال الشوباشى لأمتلك هذه الأفدنة التى لا تزيد على الخمسين . . وأصبح من أصحاب الثراء . . وأحقق حلمى العريض الذى كنت أحلم به . . فما بالك إذا تزوجت « منيرة هانم » وأصبحت أنا المالك الوحيد لهذه الأربعة الآلاف فدان غير كل هذه الأملاك والعقارات الأخرى التى نملكها الآن . . مرة أخرى . . ياللعجب ! . . .

قلت لك إن الحلم كان كبيراً بحيث جرفتنى دوامته . . ولم أفق منه إلا وأنا الزوج الشرعى . . . لهذه السيدة التى شاء القدر أن تكون هى أمك أنت يابنى .

فهتفت وأنا أكاد أصرخ :

— وزينب التى فى المستشفى تضع غلاماً منك ؟

فقال :

— لم أجرؤ على أن أذهب إليها ثانية . . أو حتى أراها رؤية العين . . وإلا فكيف كنت سألتقى بها وكيف كنت سأراها . . وماذا كنت سأقول لها ؟ ! . .

وصمت لحظات أخرى نظر فيها طويلا إلى أصابع يديه وهى ترتعش . . ثم قال :

— كل الذى فعلته أننى كتبت لها خطاباً وبعثت به إليها فى

المستشفى . . وقلت لها فيه : إننا أردنا شيئاً . . وأراد القدر غيره ، وسألت لها الله أن يمد لها يد العون وأن يخرجها من هذه الأزمة فهى لاتستحق أبداً كل هذا الشر الذى أوقعتها أنا فيه بحسن نية . .

ــ وهل هذا يكفى ؟

ــ هذا ما حدث . .

ــ وماذا فعلت ؟

فانخفض صوته كثيراً وهو يتحدث ويلقى بوجهه إلى الأرض :

ــ أشهد بأن الصدمة كانت بالنسبة إليها قاسية لا أعرف حتى الآن كيف احتملتها . . كانت تماماً أشبه بمن وقع فى الفخ وأطبقت عليه أسنانه من كل جانب بحيث إنه لا يستطيع حتى أن يصرخ . . . فهى لا تستطيع أن تطالبنى علانية بشىء وسيف هذه الخطيئة مسلط على رقبتها . ومثل هذا الجرم قد يغتفر . يستطيع أن يغتفره حتى الإله نفسه . . ولكنه فى الريف حيث تعيش هذه السيدة وحيث عاشت كل هذا العمر تتمتع بالسمعة الحسنة والخلق الطيب . . أقول إنه عندنا فى الريف ذنب لا يغتفر . . . . ذنب دونه القتل . . أو الرجم . . أو الحرق علانية فى رائعة النهار . . ولذلك فهى لم تستطع أن تبوح بشىء أو تطالبنى بشىء علانية أو حتى فى السر . . كل الذى فعلته أنها بعد أن وضعت وخرجت من المستشفى لم تملك إلا أن تتخلص من هذا العار بأن تلقى بالطفلة التى ولدتها سرًّا فى الطريق .

فقلت صارخاً . . وكأن شيئاً فى قلبى يتمزق :

ــ إذن هذه الطفلة هى . . . .

فقاطعنى أبى على الفور والدموع تغمر وجهه وكل شىء فيه هذه المرة يرتعش :

ــ أرجوك . . دعنى أعترف . . دعنى أطفئ هذه النار التى تحرقنى . . لقد عرفت الآن حقيقة لماذا يذهب الناس ويعترفون بخطاياهم عن طيب خاطر . .

ولما بكى كثيراً هذه المرة قال :

ــ أجل يابنى . . إن هذه الطفلة بالذات هى التى شاء لها القدر أن تكون أختك غير الشرعية . .

فصرخت مرة أخرى :

ــ زينات . . أختى ؟ !

ــ ومن ذات الصلب الذى جئت منه أنت . . علم الله . .

ــ اسكت . . اسكت . . لا أستطيع أن أسمع . . لا أستطيع أن أسمع . .

هتفت بذلك مرات فى وجهه ثم انخرطت أنا فى بكاء طويل . . وظل هو يتحدث : قال .

ــ كانت عاطفة الأمومة عندها أقوى من أن تجعلها تنظف ثوبها نهائيًّا من دم هذه الفتاة . . . كما كانت تماماً عاطفة الأبوة عندى أقوى

من أن تجعلنى أسكت على سوء يمسك .. حقيقة إننا أحياناً نقتل أولادنا بأيدينا ولكننا لا نفعل ذلك إلا إذا قتلنا أنفسنا أولا .. إننا حينما نقتل أنفسنا وتموت حواسنا وتتجمد مشاعرنا ويجف الدم الذى يجرى فى عروقنا نهائيًّا .. عند ذلك فقط نستطيع أن نمد أيدينا ونخنق أنفاس من نحب .

ولذلك بعد أن ألقت بالطفلة فى الطريق تتبعتها خلسة حتى رأت اليد التى بعثها الله وجعلها تمتد إلى هذه الطفلة البريئة وهى قطعة من اللحم ملقاة فى الأرض .. إننى لا أعرف حتى الآن لماذا يد الله التى تمتد بكل هذا الخير والحب والعطف والإشفاق على الناس ... هذه اليد التى تفجر الماء من قلب الحجر الصلد لتروى غلة الصادى وتنبت الزرع فى الأرض الصماء ليأكل الجائع .. لماذا هى أيضاً لا تمتد إلى أنفاس هؤلاء الذين يتعذبون كل هذا العذاب فتريحهم من هذا الشقاء .. إننى لا أدرى لماذا وجد الموت إن لم تكن هذه هى إحدى حسناته .. لماذا لم أمت ؟ ..

واستطرد أبى وهو يبكى بحرقة هذه المرة وكأنه يبكى لأنه لم يمت .. وقال :

ــ ثم لما عرفت الأم المكان الذى استقرت فيه ابنتها .. ذهبت إليها فى اليوم التالى ، وأوصت التى تكفلت بها خيراً .. وأعطتها المال .. وظلت تنفق عليها بعد ذلك إلى أن حدثت كل هذه الأحداث التى شاء القدر أن يطلعك أنت عليها وتستعرضها أمامك واضحة جلية فى

التحقيق .. أما الذى لم يتوضح إليك حتى الآن فهو أسباب هذه الجريمة والدوافع التى دفعت إليها .. وإليك هذه الحلقة المفقودة .. إليك هذا السر الذى ظل مستتراً كل هذا الزمن .. وإليك كذلك هذه الخيوط الدقيقة التى سوف تجعلك تربط بين الخيوط جميعاً وتوضح لك حقيقة الوالد الذى قتل من أجل ولده .. وحقيقة الأم التى قتلت من أجل ابنتها ..

واستطرد أبى فى شجاعة هذه المرة فقال :

ـ لقد اتضح لى أن نعمة النسيان التى وهبها الله للناس لتنسيهم أحزانهم لم تكن قادرة على أن تنسيهم الأحزان الكبيرة .

وأن هذه الستر السميكة ـ السوداء أو البيضاء ـ التى يسدلها النسيان على أحزاننا إنما تبلى أحياناً بمرور الزمن ، وتتهرأ بمضى الأيام . وأنها إن بليت أو تهرأ نسجها انتكست أحزاننا وعادت إلينا جراحها أعمق غوراً وأكثر ألماً وأعنف ناراً من لحظات الجراح نفسها .. بدليل أن الأم عندما افتقدت الطفلة بعد أن تزوجت نظيرة محمد البسيونى وانتقلت إلى الصعيد مع زوجها وتركت الطفلة ضالة فى الطريق .. ظنت الأم بعد زمن وجيز أنها قد نسيت الطفلة نهائيًّا ؛ وإن ظلت تذكرها بعد ذلك ، فإنما من أجل الذكرى فقط .. كما نذكر موتانا أحياناً ونترحم عليهم بين الحين والآخر ... ولكنها لم تكن لتظن أو يدور بخلدها فى يوم ما أنها تعيش على هذه الذكرى كل هذه السنوات الطويلة

التى افتقدتها فيها، وأن هذه الذكرى هى التى كانت تقيم أود الأم لتعيش وتلتقى بابنتها . . وليس أدل على ذلك من الفرحة التى فرحتها الأم لحظة أن علمت بأن ابنتها لا تزال على قيد الحياة وأنها سوف تراها وتلتقى بها . . وليس أدل على ذلك أيضاً من ذلك العذاب الذى تعذبته الأم عندما عثرت على ابنتها ورأتها ورأت ذلك المنحدر الذى انحدرت إليه وجلست تنظر إليها فى « الصالة » وهى ترقص . . وترى مئات العيون التى تهافت عليها كالنمل . . وتلف وتدور حول ما تبدى عارياً من جسدها وتتحسسه بهذه النظرات النهمة حتى إذا ما وجدت ملمساً غرزت أنيابها فيه ونفثت سمومها . . عند ذلك أحست الأم بأنها هى التى تقف عارية وسط هذه العيون . . وأن هذه النظرات النهمة إنما تخترم جسدها هى وليس جسد هذه الفتاة التى ترقص أمامها . . فأصابتها لوثة وانتابها سعار مجنون جعلها تركب عقلها وتفقد صوابها وتضع الأمور جميعاً فى كفة . . والظروف والملابسات والأوضاع الاجتماعية وغير الاجتماعية وسمعة الناس وأقدارها وما يمكن أن يكون وما لا يمكن أن يحدث وتقويض بيت وهدم أسرة وموت رجل وانتحار غيره . . كل ذلك جميعه وضعته فى كفة . . وأن أعترف ببنوة هذه الراقصة فى كفة أخرى .

ومد أبى أصابعه بحكم العادة ليجفف دموعه . . ولكنها كانت قد نضبت . . ولما لم يجد غير قلة من نقاط حمراء بلون الدم . . واصل حديثه وهو ينظر إلى أصابعه التى ترتعش :

ـ أنا أعرف جيداً أنها ابنتي . . وأعرف أنني المتسبب الأول في هذا الجرم الذي وقع . . وأعرف كذلك أن ضميري يحاسبني حساباً عسيراً وكان يؤرق عيني ويقض مضجعي وكثيراً ما كان يضغط على قلبي بعنف حتى ليكاد يسحقه . . وكان هذا يسبب لي آلاماً كثيرة لا يعرفها إلا ضمير الأب فقط . . ولكن هذا الضمير نفسه . . هذا الضمير ذاته . . كان أيضاً يحاسبني على أشياء أخرى . . لعلها كانت عنده أكثر أهمية وهي كذلك فعلا . . ذلك لأن الشقاء بها في هذه المرة لن يكون وقفاً على وحدي وإنما هو أيضاً على غيري من الناس . . إنه حاسبني فعلا على هذا الشقاء الذي سببته لابنتي . . وهو اليوم يريد أن يحاسبني على هذا الشقاء الكبير الذي أريد أن أسببه لابني .

إن الذي حدث يختلف تماماً عن الذي يحدث . . إن الذي حدث يكون كاليوم الذي مر . . ليس من سبيل إلى إرجاعه . . أو إصلاح الخطأ الزمني الذي وقع فيه . . أما الذي سيحدث فيكون كالغد . . يتحتم علينا أن نعمل له حساباً . . وإلا تورطنا في الخطأ نفسه الذي تورطنا فيه بالأمس .. إن هذه الفتاة قد قدر لها أن تعيش كما عاشت وتنشأ كما نشأت وتقتنع بأن هذه المرأة التي تبنتها هي أمها ... وترضى بما قسم لها من حظ . . أو تسخط عليه .. على حد سواء . . إن الحظ قد تحدد بدليل أنه حدث . . إنها بذلك قد قطعت الشوط على أي حال .

وجفف أبي دموعه . . وقال :

ـ إن الذى يرى الموت غير الذى يسمع عنه.. وأنا قد رأيته .. عشت فيه .. تعذبت به .. كنت أشعر بأن الذى يموت هو « أنا » وليست هذه الطفلة .. وأن الذى يتعذب هو « أنا » وليست هذه الإبنة .. فكيف أستطيع أن أجربه مرة أخرى .. وعلى صورة أبشع .. كيف أقوى على أن أتركك تبدأ الشوط .. وقد رأيت بعينى هاتين الجراح التى أثخنت قدمى .. كيف أجعلك تمسى وتصبح فإذا بأخت لك تعمل راقصة فى ملهى .. كيف أستطيع أن أغمد فى صدرك هذه السكين .. وهل يجرؤ أب على أن يفعل ذلك .. هل يجرؤ والد على أن يقتل ولده بيديه ؟ ... إننى وإن كنت قد فعلت ذلك مرة .. فقد فعلته لأننى لم أكن قد عرفت حرقة النار .. لأننى لم أكن قد اكتويت بها .. حقيقة كنت أعرف أنها نار .. ولكن معرفتك للشىء غير تجربتك له .. إننا مهما شاهدنا اشتعال النار .. وسمعنا دمدمة جمراتها .. فإننا لا نستشعر حرارة لهبها إلا إذا احترقنا فعلا .. وأنا قد احترقت فكيف كنت أستطيع أن أحترق مرة أخرى ؟ ! ..

قلت لها هذا كله .. وبصرتها بنتائج هذا كله .. قلت لها إن الذى يعيش فى الظلام هو وحده الذى يعرف نعمة النور .. وأنا وهى قد عشنا فيه .. أنا وهى .. قد عرفنا قيمة هذه النعمة .. فكيف نحرم غيرنا منها ..

قلت لها إننى أدفع لها كل ما تريد .. أدفع لها حياتى .. فقط ألا تحرم « ابنى » من حياته ..

قلت لها إن مالى قسمة بين الاثنين . . ابنى . . وابنتى .. أهب لها نصف ثروتى لتهبه هى بدورها إلى الفتاة . . قلت لها هذا . . وكنت من الصادقين . . ولكنها ركبت عقلها وأصرت على تنفيذ ما تريد . . على أن أعترف رسمياً ببنوة الفتاة . . وإلا أشهرت فى وجهى السلاح الذى تملكه . . ووضعت على رقبتى السكين التى تحتفظ بها لهذا اليوم . . وكانت تملك حقيقة هذا السلاح الباتر الذى تستطيع أن تقتلنى به . . . كانت تحتفظ بالخطاب الذى أرسلته لها . . وهى فى المستشفى . . واعترفت لها فيه ببنوة الطفلة . . وكانت تحتفظ أيضاً بهذا التاريخ . . تاريخ اليوم الذى أدخلتها فيه المستشفى لتلد فيه . . وقيدتها فى دفاترها الرسمية بأنها زوجتى . . . كانت هذه الأسلحة ماضية من غير شك . . كنت الوحيد الذى يعلم كيف أنها قاصمة للظهر ... لذلك لم أجد بدّاً من . . . أن أفعل ما فعلت . . من أن أرتكب جريمتى . . . من أن أقتلها . . . من أن أسفك هذه الدماء على الرغم منى . . .

وصمت أنا هذه المرة . . وصمت طويلا . . ثم قلت وكأننى أخاطب نفسى :

ــ ولهذا كان حرصك الشديد على أن تعرف منى أولا بأول سير التحقيق فى هذه القضية .

ــ ولم أنم ليلة أن عرفت منك بأن الشبهات بدأت تتجه حول الشخص الذى انتقل إليه مفتاح هذا السر بعد مقتل المجنى عليها . . من المؤسف

حقيقة أنه كان الوحيد الذى يعلم هذا السر .

ــ تعنى دسوقى ؟

ــ أجل . . هذا الرجل الطيب . .

ــ إذن أنت الذى قتل دسوقى أيضًا . .

ــ لأننى أردت أن ألقى بالمفتاح الذى كان فى يده إلى القاع . . كان هذا هو الحل الوحيد . . . كان لا بد لى أن أفعل ذلك . . أن أعيد هذا المفتاح إلىّ . . وإلىّ أنا وحدى . . لقد كان هذا السر كبيراً يابنى . .

فقلت وكأننى مرة أخرى أخاطب نفسى :

ــ وهل فعلت ؟ !

ــ من المؤسف حقيقة أننا عندما نطمئن إلى شىء . . نكون قد فتقدناه دون أن ندرى . . إن أستار الظلام عندما تنسدل ويعلو طبقاتها ذلك السواد الذى لا تنفذ إليه عين . . . عند ذلك فقط تشرق الشمس . . ومن المؤسف أننى كنت أجهل ذلك . .

ولم يصمت أبى هذه المرة . . . وإنما ابتعد الصوت الذى كان يتحدث إلىّ . . . وغاب عن أذنى فى مكان سحيق . . . وتلاشى كنسمة هواء . . . ذابت فى قيظ صحراء يتوهج حرها . . ففتحت عينى . . فإذا بى وحدى أجلس فوق مقعد من المقاعد كجثة هامدة لاحراك فيها . . ترى هل كنت كذلك . . حتى قبل أن يبتعد هذا الصوت . . . ويغيب عن أذنى فى صحراء كبيرة . . . صحراء واسعة . . .

١٩

مكثت بعد ذلك . . عدة أيام . . . وحدى . . .

كانت الأيام التى مكثتها وحدى . . تختلف عن هذه الأيام التى يعيشها الناس . . ويحياها البشر . . كانت من لون آخر . . وصنف آخر . . وطعم آخر . . كان نهارها غير الأنهر التى نعرفها . . وليلها غير الليل الذى نراه . . والشمس غير الشمس . . والقمر غير القمر . . حتى الناس كانت هى الأخرى غير الناس . .

هكذا عشت هذه الأيام . .

أنا لا أدرى على وجه التحديد كيف عشتها . . . أو كيف قضيتها . . أو كيف مرت هى ؟ !

إن كل الذى أذكره . . . هو تلك الأشباح التى كنت أنا واحداً منها . . .

كنت أرى نماذج غريبة من هذه الأشباح . . تتراقص أمامى كلما فتحت عينى . . . نماذج من الخير . . . ونماذج من الشر . . . ونماذج من الضمائر التى ماتت . . . وغدت أشبه بالجدث الذى فى الرمس . . . ونماذج أخرى من الضمائر الحية ... التى كنت أحس بها تزداد غلياناً، وكلما ازدادت إحساساً بالتبعة ازدادت إحساسا بالمسئولية . . .

كانت هذه الإحساسات تتبلور فى أشياء كثيرة . . . أشياء كانت كلها حية وأسفاه . . الصلات المتعددة التى لا يمكن تجاهلها . . صلات الدم والرحم والحياة . . وهذا الرباط المقدس الذى يربط بين هذا جميعه . . . . هذه الأم التى فعلت ما فعلت . . وأصرت على ما أصرت . . . هل هى محقة أو غير محقة ؟ !

وهذا الرباط الذى يربط بين الدم والدم . . . بين الرحم والرحم . . . بين الأم وابنتها . .

أيمكن أن نغفله ؟ !

وهل يكون فى مقدورنا إغفاله إذا أردنا ؟ !

وإذا نحن لم نقدر . . إذا أجزناه . . . إذا أجزنا لهذه الأم أن تفعل ما فعلت . . بدافع من هذا الرباط . . . بدافع الأمومة . . . فلماذا نحن لا نجيز لغيرها ذلك ؟ ! إن الصلة هى نفس الصلة . . . والدم هو نفس الدم . . . والأرحام هى نفس الأرحام . . . والصلب هو نفس الصلب . .

فلماذا لا نجيز للأب فى سبيل الدفاع عن ابنه . . ما أجزناه للأم . . فى سبيل الدفاع عن ابنتها ؟ !

ولكن هل هذه هى المشكلة فقط . . . ؟ !

ألا ليتها كانت كذلك . . !

* * *

وأغمضتُ عيني مرة أخرى . . وفتحتهما ثانية . . ولكن على جثتين هامدتين . . واحدة هتكت الرصاصات الثلاث فروة الرأس . . وحطمت الجمجمة . . ونفذت إلى المخ . . وأحدثت الوفاة فى الحال . .

وواحدة مزقت الصدر . . وكسرت العظام . . ونفذت إلى الرئتين . . وذبحت القلب . . وتركت الجثة مزقاً مزقاً . . وثقوباً ثقوباً . . تماماً كما كما يحدث البلى فى الثوب ويتركه مزقاً مزقاً . . وثقوباً ثقوباً .

. . . ورنت فى أذنى كلمات . . ولا أدرى لماذا ارتعدت لها فرائصى الآن . . مع أننى عندما استمعت إليها أول مرة . . لم أعرها التفاتاً :

« أحياناً يكون غير الواجب هو الواجب » .

يالله ! . . . أمثل هـــذه الروح البريئة . . . هذا الضمير الحساس . . . هذه النفس النبيلة . . . يذهب دمها هدراً . . . تزهق روحها ظلماً . . . يتقطع لحمها هكذا مزقاً مزقاً ؟ !

وهذه الأم . . . هذه الأم . . . التى كل جريرتها أنها طالبت بحق . .

دافعت عن حياة . .

تمسكت بابنة . .

استماتت فى وجود . .

. . تموت . . تقتل . . تسفك دماؤها . . .

أين القصاص ؟ !

أين السماء ؟ !

أين عدالة الله ؟ !

أين الضمير الذى يرضى ؟ !

وتراقصت أمامى هذه الخيالات جميعاً .. وتراقص أيضاً غيرها وغيرها ..

إن هؤلاء قد ماتوا ..

توارت جثثهم فى التراب ...

ولكن أولئك الذين يموتون ..

ما ذنبهم ؟ !

أجل .. ما ذنبهم ؟ !

هل نتركهم .. حتى تزهق أنفاسهم أيضاً ؟ !

...... زينات ......

هل نتركها هكذا تعيش هذه الحياة ؟ !

.. رباه .. لماذا أحببت أنا هذه الفتاة ؟ !

ولماذا أحببتها أنا الآن .. أكثر من ذى قبل ؟ !

بل لماذا أنا أحببتها — الآن — كل هذا الحب الكبير ؟ !

... رباه ... إننى أسألك ...

وانسابت الدموع من عينى .. ومع ذلك لم تذهب هذه الخيالات .. ولم ينقطع هذا الحديث .. ولم تنقطع أيضاً هذه الدموع ...

... هل ستظل هذه الفتاة .. ميتة هذا الموت الدنيوى .. يلفها هذا الكفن .. كفن هذه الحياة التى تحياها ؟!

وهل سيظل المجرم .. يتمتع بكل هذا النعيم ... كل هذا الجاه ؟!

هل سيظل الوالد ينكر ابنته ؟!

ويظل الأخ ينكر أخته ؟!

هل تبدلت الأرض غير الأرض .. حتى يحدث هذا ؟!

وتبدلت السماء غير السماء ... حتى تتبلد بعض الضمائر ... هذا التبلد ؟!

.. تموت هذا الموت ؟!

رباه !!

ومرة أخرى .. رباه !!

لماذا خلقت مثل هذه الضمائر الميتة ... ولماذا أيضاً خلقت غيرها حية .. تكاد تذوب من رقة حساسيتها .. ولماذا خلقتها كذلك ، وقدرت لها أن تتورط فيما تورطت أنا فيه الآن ؟!

رباه ... لماذا فعلت ذلك ؟! ..

لماذا حملتنى هذا الحمل الثقيل .. وأنت تعلم أننى بشر .. أننى من دم ولحم ...

رباه ... إننى لم أكن رسولا .. ولا نبيًّا .. وأنك تعلم ذلك جيداً.

* * *

وأغمضت عينى مرة أخرى . . وكان أملى هذه المرة . . أن يظل غمضهما إلى الأبد . . ولكن لم يتحقق هذا الأمل . . وا أسفاه . . . لأن تلك القوة التى تفوق قوانا كبشر جعلتنى أفتحهما ثانية . . ولكن على وجه أبى هذه المرة . .

على وجه من أحب . .

. . . إننى لا أعرف . . فى الثلاثين سنة التى عشتها . . .

. . . فى هذا العمر الطويل . . الذى قضية . . .

لا أعرف . . أننى أحببت ذات يوم هذا الوجه . . كما أحبه الآن . .

. . . أننى أتعشقه . . . كما أتعشقه الآن . .

أو أننى شعرت بهذه العاطفة الجميلة . . . الحلوة . . . الرقيقة . . . كما شعرت بها الآن . . . كم أنت غالية . . أيتها البنوة . . . كم أنت عزيزة على النفس . . . أيتها الأبوة . . .

. . . أهكذا سريعاً . . يمكن الاستهانة بك . . التفريط فيك . . . القضاء عليك . . .

وبيد من ؟ ! . . .

رباه . . . إن القتلة . . وشاربى الدماء لا يجرؤون على ذلك . . .

إن الأنبياء والرسل . . . لا يقدرون عليه . .

وأحسست أننى على استعداد لأن أفعل كل شىء . . كل شىء . . أجل . . كل شىء . . فقط يبقى لى أبى . .

أحطم القدسيات جميعاً . . .

ولم لا ؟ ! . .

أليست هذه هى قدسية أيضاً ؟ ! وإن لم تكن هذه قدسية . .
فما هى القدسيات إذن ؟ !

أجل سأفعل كل شىء . .

سأرتكب أشنع الجرائم جميعاً . . .

أسرق . . .

أقتل . . .

أسفك الدماء . ..

أنبش قبور الموتى . . .

فقط يبقى لى هذا الوجه الذى أحبه . . .

وأحسست أننى أريد أن أراه . . . أن أرى هذا الوجه . . أرى أبى . . . فقد افتقدته كل هذه الأيام التى مضت . . . الليالى السوداء التى عشتها . . . الساعات الطويلة التى مرت وأنا أهتف بالغمض . . . أهتف بمن يطفئ هذه النار التى فى عينى . . . وكأنه هو أيضاً كان يحس هذا الإحساس . . . ويتشوف لهذه الرغبة . . . لأننا التقينا بعد عشرة أيام . . . التقينا مصادفة . . على باب القصر الذى ما زلنا نعيش فيه معاً .

حقيقة إننا لم نتكلم . . ولم ننبس . . وإنما نظر كل منا إلى الآخر . .

وانصرف . . وكأن كلاً منا يتأسف على شيء . . وكأن كلاً منا يتأسف على هذه النظرة . . التي بدرت منه إلى الآخر . .

ولكني رأيته على أي حال . . . رأيت أبي . . إن هذا فقط هو الذي كنت أريده . . والغريب أنه قد أفادتني كثيراً هذه الرؤية . . أفادتني في أشياء كنت أظن أنني لن أقدر عليها . . لقد شدت من أزري . . وقوت من عزيمتي . . لقد جعلتني أتردد في كل شيء . . إلا فيما كنت قد عقدت العزم عليه . .

وبهذه العزيمة الصادقة . . وبهذه القوة التي تفوق قوى البشر جميعاً . . . ذهبت إلى مكتبي في هذا اليوم . .

لقد كنت أذهب إلى مكتبي . . في الأيام التي مضت . . والتردد وخور العزيمة . . وتبلبل الخاطر وضعف الإرادة . . . كل ذلك يلازم كل خطوة أخطوها . . كل حركة تبدر مني . . كل نظرة ألقيها على شيء . . . . أما اليوم . . فلم أكن أثبت قدماً . . مما أنا فيه الآن . . لماذا ؟ ! كنت لا أدري . . .

كان أول شيء فعلته . . هو أنني استدعيت سكرتير التحقيق . . وفاجأته بطلب دوسيه الجناية رقم ١١٠٧ ولما أحضره لي . . طلبت منه أن يتركني . . أراجع هذه الصفحات مرة أخرى . . وأن لا يأذن لأحد في الدخول عليّ . . ولما انصرف . . قمت إلى الباب . . . وأغلقته خلفه . . ومع أنني أغلقته جيداً وأحكمت رتاجه أيضاً . . إلا أنني عدت إليه مرة

أخرى لكى أتأكد من ذلك . . ومن ثم تناولت هذه الأوراق وراجعتها بدقة . . . راجعتها وكأننى أقرؤها لأول مرة . . وكأننى لم أكن المحقق الذى حققها . ولما راجعتها صفحة صفحة . . وقرأت كلماتها كلمة كلمة .. تعجبت . . تعجبت كيف أننا أحياناً نؤمن بالباطل كل هذا الإيمان ...

ومددت يدى إلى شيء . . والغريب أن أصابعى لم ترتعش هذه المرة . . وهى تمتد إليه . . كما كانت ترتعش فى كل مرة . . تمتد إليه فيها . . مددت يدى إلى ذلك الشيء الذى أحتفظ به بين طيات ثيابى .. ولكن لم أكد أفعل حتى أعدته ثانية فى رعب . . وأعدته سريعاً جداً . . لقد أردت أن أتأكد مرة أخرى . . هل أغلقت الباب فعلا . . وأغلقته جيداً . . وأحكمت رتاجه إحكاماً دقيقاً . . يالله ! . . . إلى هذا الحد أنا أخاف على هذا الشىء ؟ ! ترى هل أنا أخاف منه أو أخاف عليه ؟!

ولما قمت إلى الباب .. وتأكدت من أنه محكم الإغلاق . . عدت إلى ذلك الشيء الذى أحتفظ به بين طيات ثيابى وأخرجت تلك المذكرات .. التى كنت أدون فيها أولا بأول معلوماتى . . . وأثبت فيها جميع الحقائق التى وصلت إليها . .

فردت صفحات هذه المذكرات جميعاً أمامى . . وبدأت أقرأ . . ولكنى توقفت . . أحسست بأن هذه المذكرات ينقصها شىء . . وأن القصة تنقصها النهاية . . ولما كنت أشعر برغبة ملحة فى القراءة . . .

وكان من غير المعقول أن أقرأ شيئاً ناقصاً . . مددت يدى . . وتناولت القلم . . وأكملت النقص . . . كتبت كل الحديث الذى داربينى وبين أبى . . دونت كل جملة قالها . . . وكل لفظ فاه به . . وكل اعتراف صدر منه . . وحتى كل قطرة من الدموع انسكبت من عينيه . . صورتها فى موضعها . . ووضعتها فى مكانها من الحديث . .

وبذلك تمت القصة . . . واستقامت فصولا . . ورحت أقرأ شيئاً كاملا لا عوج فيه ولا لبس . .

* * *

قرأت هذه المذكرات مرات عديدة . . هذا هو الذى تأكدت منه . . أما الذى لم أتأكد منه حتى الآن فهو عدد هذه المرات بالضبط . . هل هى عشر؟ . . . هل هى مئة ؟ . . . هل هى أكثر ؟ هل هى أقل؟ . . هذا هو الذى لا أذكره . .

ثم لما استوعبت سطورها جيداً . . . وحفظت كل كلمة فيها عن ظهر قلب . . طويتها لأعيدها إلى مكانها الأمين . . بين طيات ثيابى . . ولكن هل ستظل هذه المذكرات فى هذا المكان ؟ ! وإلى متى ؟ ! وهل أنا واثق من هذا المكان إلى هذا الحد . . حد أن أحتفظ فيه بهذا الشيء . . . . . الذى هو حياتى ووجودى ودنياى . . دون أن تمتد إليه يد . . أو تراه عين ؟! . . . وما دمت أنا أخاف عليه هذا الخوف . . . ومادام الشر . . فى وجوده . . والإبقاء عليه . . والنفع كل النفع

.. هو فى إخفائه .. إلى الأبد .. مادام الأمر كذلك .. فلماذا أحتفظ به .. لماذا لا أخفيه من الوجود نهائيًا .. لماذا لا أجعله كذرة من رماد .. أتركها تتطاير فى الهواء .. إن الهواء هو الشىء الوحيد الذى لا تراه عين .. ولا تمتد إليه يد ..

واستقر رأيى على أن أفعل ... و ... وفعلت .

مددت يدى إلى علبة من الثقاب كانت أمامى ...

ولكن هنا ؟ فى هذه الغرفة ؟ فوق مكتبى هذا ؟ ولم لا ؟ .. ولكن إذا اندلعت ألسنة النار وتطاير اللهب .. وتجمع الناس حول النار وأخمدوها .. قبل أن يتحول هذا الشىء إلى رماد كما أريد ... وبقيت قصاصة .. ورقة .. أو حتى كلمة .. فماذا يكون الحال ؟! ... لا .. لا ... إن هذا ليس مكان ذلك ...

... أى مكان إذن ؟ .. أى مكان غير هذا ؟ ... إذن سأظل أحتفظ بهذا الشىء معى .. حتى أذهب إلى بيتى على الأقل .. وفى بيتى أفعل ما أريد .. كما يفعل الإنسان فى بيته ما يريد ... ورجحت عندى هذه الفكرة .. وفكرت فيها جيداً .. ولكنى فى النهاية .. لم أستصوبها .. لقد تسلط علىّ وهم غريب .. وهم جعل فرائصى ترتعد .. من مجرد التفكير فيه .. وهم يجعلنى أقلع عن هذه الفكرة .. نهائيًا .. إذ ماذا يكون الحال لو حدث بعد أن غادرت مكتبى الآن وأنا أحمل هذا الشىء معى ... لو حدث لى حادث ... دهمتنى سيارة مثلا

اصطدمت سيارتى أنا . . . فاجأنى الموت وأنا فى الطريق . . . لا . . .
لا . . . لا . . .

وفكرت ثانية . . ولكنى فكرت هذه المرة . . فى الشقاء الذى يلاقيه السارق . . بعد أن يسرق . . . والقاتل بعد أن يقتل . . . والمجرم بعد أن يرتكب جريمته . . . إن الشقاء لم يكن قط فى السكين التى نقتل بها . . . وإنما هو فى السكين التى نخفيها . . . وواتتنى فكرة . . ولا أدرى كيف واتتنى . . . ولا أدرى كذلك . . لماذا فرحت بها ولها . . . ونفذتها على الفور . .

ومددت يدى إلى علبة الثقاب التى أمامى . . ومددت يدى أيضاً إلى هذا الشىء الذى أخاف عليه أو أخاف منه . . . لا أدرى ! وأمسكت بكل ذلك فى يدى جيداً . . .

كانت دورة المياه . . التى نستعملها نحن الرؤساء بعيدة عن دورة المياه العامة . . . كانت فى مكان منعزل تماماً عن الناس . . فلماذا لا أفعل ذلك هناك . . لماذا لا أغلق هذا الباب على . . . . وأفعل ما أريد . . . وبدل أن تتطاير تلك الذارت من الرماد التى تخلفها النار . . . بدل أن تتطاير فى الهواء . . . لماذا لا تغيب فى تلك البالوعة القذرة . . التى لا يغيب فيها إلا كل قذر . . . وهل هناك أكثر قذارة من هذا الذى سأغيبه فيها ؟ ! . .

ونهضت إلى الباب وفتحته . . ومن ثم رحت أخترق ذلك الممر الطويل

الموصل إلى هناك . . . وكنت أخترقه برباطة جأش . . وبقدم ثابتة . . . جداً . . . يعلم الله . .

* * *

. . . وفتحت الباب . . ودخلت . . وفتحت أيضاً عيني ونظرت . . وإذا بي أرى شيئاً عجيباً . . . . . لم يكن في تصوري أبداً أنه يحدث . . أنني سأراه . .

لقد أخطأت الباب الذي كنت أقصده . . وقصدت باباً آخر . .

كيف حدث هذا . . ؟ ؟ لا أدري . .

إن كل الذي حدث . . كل الذي أذكره . . . هو أنني رأيت باباً أمامي فد خلت . .

. . . لم أفطن إلى ما حدث . . . لم أفطن . . . إلى أن هذا الباب الذي فتحته ودخلت . . هو باب غرفة مكتب — رئيس النيابة — . . . نعم، لم أفطن إلى ذلك إلا . . عندما رأيت نفسي أمامه وجهاً لوجه . . وعيناً لعين . . ووجدتني أضع كل ما أحمل بين يدي .. من أوراق فوق مكتبه . . حتى علبة الثقاب وضعتها هي الأخرى أمامه ... و . . . وانصرفت . . . .

. . . .

. . . .

٢٠

أنا لا أستطيع بعد — هذه اللحظة — . . . أن أدون شيئاً مفيداً . . . إن كل الذى حدث بعد ذلك لا أعرف عنه شيئاً . . . لا أعرف حتى أين ذهبت . . . أو ماذا رأيت . . . . أو سمعت . . . . لقد كانت الرؤية غير واضحة أمام عينى . . . كنت أرى الأشياء . . ولا أستطيع أن أتبينها . . . أو أرى الوجوه . . . فلا أستطيع أن أتعرف عليها . . . . وكذلك أيضاً كانت أذنى . . . كنت لا أسمع شيئاً . . . . كانت الأصوات جميعاً تأتى عند أذنى . . . ثم تتضاءل . . . . . تتلاشى . . . . تذوب . . . . تصير إلى عدم . . . . . . كانت مثل المرئيات تماماً . . . . يختلط بعضها ببعض فى عينى . . . . بحيث إننى كنت أجهد نفسى كثيراً لأميز بينها . . . ومع ذلك لا أذكر أننى ميزت شيئاً . . . إن كل ما كانت تقع عينى عليه . . . . . خيالات فقط . . . . . . وكل ما كانت تبستمع أذنى إليه صدى فقط . . . .

غرفة صغيرة . . صغيرة جداً . . كل ما فيها جامد . . صامت . . مطبق الصمت . . لا تسمع فيها لغواً . . حركة . . نأمة . . كل ما يأتى إلى أذنك فيها شىء . . شىء غريب . . لا هو يشبه الصوت . . ولا هو



يشبه الصمت . . إنه أقرب ما يكون إلى الأنفاس . . الأنفاس المحترقة . . الأنفاس التى تكاد تتلاشى قبل أن تبلغ الشفاه . . تحترق قبل أن تخرج إلى الهواء . . ولكن أنفاس من هذه ؟ . . كنت لا أعرف . . كانت أذنى لا تميز . .

وكأذنى تماماً . . كانت أيضاً عيناى . . ولكنهما كانتا أقدر إلى حد ما على التمييز . . كنت أنظر إلى الغرفة فإذا بكل شيء فيها أبيض . . ناصع البياض . . الجدار . . النافذة . . الباب الصغير . . المشجب . . المائدة . . الإبريق الذى فوقها . . كوبة الماء التى عليها . . السرير الذى أنام فوقه . . الثوب الذى أرتديه . . الغطاء الذى فوق رأسى . . . . وجه الفتاة التى تجلس إلى جوارى . . . الثوب الذى ترتديه . . الغطاء المنشى الذى فوق رأسها . . الحذاء الذى فى قدمها . . كل هذا كان أبيض . . ناصع البياض . . لهذا فقط استطعت أن أميز . . استطعت أن أعرف . . أعرف أنها غرفة فى مستشفى . .

* * *

ضربات قلب . . تحصى . . تعد . . درجات حرارة تعلو . . تزداد . . ترتفع . . تنخفض . . تقاس أولاً بأول . . درجة درجة . . ساعة ساعة . . . . تحصى . . تثبت على الورق . . خط أسود يرتفع إذا سجلت مرة . . خط أسود ينخفض إذا سجلت ثانية . . أكياس من الثلج توضع . . تذوب . . يجيء غيرها . . تذوب أيضاً . . يجيء غيرها . . تذوب كذلك . .

إبر كأنياب الأفاعى تغرس فى لحمى .. شراب كأنه العلقم يصب بين شفتى .. يغص به حلقى . . تتجمد مرارته فوق لسانى . . فوق شفتى لهذا فقط عرفت . . عرفت . . عرفت أننى مريض .

* * *

رجع لهمس . . صدى لصوت . . زفرات لألم . . أنفاس لحزن . . همسات لدموع . . همهمة لشفاه . . وشوشة لصمت . . تأتى إلىّ أذنى من مكان بعيد . . بعيد جداً . . ومع ذلك تذهب . . تذوب . . تتلاشى . . لا يبقى منها فى أذنى سوى خيالات . . خيالات لألفاظ . . أشباح لكلمات . . صور لمعان . . هبوط شديد فى القلب . . . انهيار زائد فى الأعصاب . . فقدان كبير فى الذاكرة . . لهذا فقط عرفت . . عرفت بماذا أنا مريض . .

* * *

طبيب يخرج . . طبيب يدخل . . طبيب آخر يجىء . . ممرضة تنهض . . ممرضة أخرى تجلس . . شبح يظهر من بعيد . . يقترب . . يقترب . . يقترب . . ثم يختفى فجأة . . يتلاشى . . لا يرى له أثر . . ثم يظهر فجأة . . يرجع . . يعود . . يقف أمامى فى ثياب سوداء . . هو فقط الذى يرتدى السواد . . يقترب منى . . ينظر إلى . . يحدق فى وجهى . . يتفرس فى عينى . . يصمت . . يصمت طويلا . . لاينبس . . لا يطرف . . لا تختلج له عين . . لا تتحرك له شفاه . . إنه تمثال . . تمثال من

حجر . . تمثال من صخر . . ولكنه يبكى . . تسفك عيناه الدموع . .
دموع . . دموع كأنها النار . . تتساقط نقاطها على يدى . . على وجهى
. . على صدرى . . ترى لماذا هو يبكى ؟ ! . . ترى من هو هذا الشبح ؟! .
من هو هذا الشخص الواقف أمامى . . يبكى . . ينتحب . . تسفح
عيناه كل هذه الدموع . . من هو ؟ . . ما صلته بى . . ترى هل
رأيته قبل الآن ؟ . . ومتى رأيته ؟ . . وأين وقعت عينى عليه لأول مرة ؟ . .
ولماذا هو يبكى كل هذا البكاء ؟ ؟ . . لماذا هو يرتدى السواد ؟ ! . .
هل هو الوحيد الذى يرتديه ؟ ! . . هل هو يعلم أننى سأموت ؟ . . أو
أن أحداً تربطه بى صلة قد مات ؟ . . وما صلته بى . . بى أنا . .
. . أجل أنا . . أنا من ؟ كنت لا أدرى . .

* * *

ولما كان يجهدنى التفكير كنت أعود فأنظر إليه ثانية . . ولكنى أراه
قد غاب .. ذهب .. تلاشى .. صار إلى عدم .. إلى خيال .. حتى هذا
الخيال كان غير واضح لعينى . . كان يبدو لى أشبه ما يكون بفتاة أعرفها
. . تربطنى بها صلة . . صلة كبيرة . . عزيزة . . جميلة . . حلوة . .
كنت أحبها ذات يوم . . وكانت هى أيضاً تحبنى ذات يوم . . ولكن
من هى هذه الفتاة التى كنت أحبها كل هذا الحب ؟ . . ما اسمها ؟
من أسرتها ؟ . . من أبوها ؟ . . من أمها ؟ . . كيف ولدت ؟ . .

كيف نشات ؟ . . كيف عاشت ؟ . . كيف تعرفت عليها ؟ . . كنت لا أعرف . . أجل ، كنت لا أعرف . .

* * *

هكذا كنت . . وهكذا ظللت . . ظللت طويلا . . حتى بعد أن شفيت وأذنوا لى بالخروج . . كل الذى كنت أراه خيالات . . خيالات فقط . . وكل الذى كنت أستمع إليه صدى . . صدى . . صدى فقط . . حتى الذى حدث لى أخيراً . . كان هو الآخر صدى . . صدى لا أذكر منه شيئاً . . ولا أستطيع حتى اليوم أن أميز منه شيئاً . . كل الذى أذكره . . أميزه . . هو هذه الخيالات . . هذه الخيالات التى مازالت تروح وتجىء أمامى إلى اليوم . .

قاعة رحبة . . رحبة جداً . . فسيحة إلى حد كبير . . غاصة بالناس . . جمع غفير من البشر . . من الوجوه . . إننى أعرف أكثر هذه الوجوه . . أعرف أكثر هؤلاء الناس . . قضاة . . مستشارون . . رؤساء محاكم . . أعضاء نيابة . . وزراء . . رجال قانون . . كل هؤلاء يحيطون بى . . يلتفون من حولى . . يثنون علىّ . . نظراتهم تتعلق بى . . يذكرون اسمى . . يوجهون عبارات إلى . . همسات . . همهمات . . نظرات . . شخص كبير . . مهيب . . يتقدم إلى . . إلى أنا . . يده تمتد إلى . . إلى صدرى . . تضع عليه شيئاً . . تقلدنى وساماً . . عاصفة من التصفيق . . تنطلق . . تدوى . . تعربد فى

سمعی . . تقصف كالرعد فی أذنی . . تنهال كالحجارة على وجهی . . تدق رأسی بلا رحمة . . تمزق صدری . . شیء فی قلبی یتحرك . . یضطرب . . یخاف . . یرتعد . . یرتجف . . یتمزق . . دموع فی عینی . . تتجمع . . تسیل . . تنفرط . . تنهمر . . تنساب علی وجهی . . تغمر شفتی . . تغرق صدری . . صورة بغیضة . . بغیضة جداً تلوح لعینی من بعید . . من بعید جداً . . إنها تقترب . . إنها تدنو . . تقف أمامی . . تتراقص فی عینی . . هی فقط التی أراها واضحة . . واضحة جداً . . رایة سوداء . . ترتفع فوق أحد السجون . . ترتفع فی السماء . . ترتفع أمام عینی . . أخاف . . أغمض عینی . . أغمضهما جیداً . . ولكنها مازالت ترتفع . . ترفرف أمام عینی . . مازلت أراها . . إنها لا ترید أن تبتعد . . لماذا هی لا ترید أن تبتعد ؟ . . لا ترید أن تغیب عن عینی ؟ . . الشبح الأسود یظهر فجأة . . یظهر ثانیة . . یلوح لعینی من بعید . . إننی أراه . . أراه جیداً . . إنه یقترب . . یدنو . . یتجه إلی . . إنه أیضاً یتجه إلی مكان أتجه أنا إلیه . . ربوة صغیرة فی مكان قفر . . الرایة السوداء تعلو . . تعلو . . ترفرف فوق رأسینا . . ها هی ذی الربوة بیننا . . إنها قبر . . قبر فی مكان قفر . . قبر ترتفع فوقه تماماً الرایة السوداء . . ها هوذا الشبح یمد یدیه إلی . . یلمسنی . . یرتمی فوق صدری . . یهتف بصوت كالرعد ولكنی لا أسمع شیئاً . . لا أمیز شیئاً . . إنها كلمة واحدة . . واحدة فقط . . هی التی میزتها . . وما زلت

أميزها إلى اليوم . . أخى . . وكلمة أخرى . . كلمة واحدة أيضاً . . كلمة تماثلها تماماً . . أختى . . هذه الكلمة هى التى مازلت أميزها أيضاً . . ولكن من أين يجيء هذا الصوت . . أهو من القبر ؟ . . أهو من الأعماق ؟ كنت لا أدرى . .

* * *

. . وهذه الأخت . . أخت من ؟ . . وهذا الأخ . . أخو من ؟ . . وهذه الراية السوداء التى مازالت ترفرف أمام عينى . . ما شأنها ؟ . . وهذا القبر . . هذا القبر الذى فى هذا المكان القفر . . قبر من ؟ . . أهو قبر أحد أعرفه ؟ . . أحبه ؟ . . ولكن من هو هذا الذى أحبه كل هذا الحب . . وما زلت أحبه . . كل هذا الحب ؟ . . رباه ! إننى . . إننى . . أسالك . .

. . من هو هذا الرجل ؟

. . من هو هذا الشبح ؟

. . من هى هذه الأخت ؟

. . من هو هذا الأخ ؟

. . وهذه الراية السوداء ما شأنها ؟ . .

رباه .. رباه . . رباه . .

إننى أسالك .. أجل إننى أسالك !

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٩٦٢
I.S.B.N 977 - 01 - 6186 - 1



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩